

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

هِمْيانُ الزّادِ إلى دارِ المعادِ

للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الاباضي المصعبي

الجزء التاسع

القسم الأول

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

سورة إبراهيم - عليه السلام

وهى مكية إلا قوله تعالى :ألم تر إلى الذين بدلوا-الآيتين . ذكره مكى والنقاش وأخرجه أبو الشيخ عن قتادة ولم يستثنهما بعض ،والمشهور استثناؤهما على أنهما نزلتا فى أمر بدر وهما مدنيتان وآيها خمسون أو إحدى وخمسون أو اثنتان وخمسون أو ثلاث وخمسون أو أربع وخمسون أو خمس وخمسون أقول وكلمها ثمان مائة وإحدى وستون وقيل ثمان مائة وخمس وخمسون وحروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون وقيل ثلاثة آلاف وأربعمائة وثلاثون.

قال-صلى الله عليه وسلم -من قرأ سورة إبراهيم أعطى من الأَجر بعدد من عبد الأَصنام ،وفى رواية أعطى من الأَجرعشر حسنات بعدد كل من عبد الأَصنام وعدد من لم يعبدها ، وقالوا من كتبها فى خرقة حرير بيضاء بعد وضوء وعلقها على عضد طفل ارتفع عنه البكاء والفزع والعين وسهل فطامه بإذن الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر ﴾ تقدم مثله . ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبر لمحذوف أى هذا كتاب وقوله ﴿ أنزَلْنَاه إلَيْكَ ﴾خبر كان أو نعت لكتاب أو كتاب مبتدأ أى كتاب عظيم وجملة أنزلناه خبره وهو القرآن وقيل السورة ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمنهم وعم الناس لأنه مبعوث إلى الخلق جميعاً وقرىء ليخرج الناس بمثناة تحتية مفتوحة وضم الراء ورفع الناس أو بضم التحتية وكسر الراء ونصب الناس أى ليخرج الكتاب الناس . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾أنواع الكفر والمعاصى . ﴿ إلى النُّورِ ﴾الإيمان جمع الظلمة لأن طرق الكفر والمعاصى كثيرة وأفرد النور لأن طريق الحق واحد وهو الإيمان . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بتسهيله وتوفيقه ومن ذلك إذن صاحب الدار لمريد الدخول ، وإذن حاجب الملك لمريد الدخول عليه ونحو ذلك فانه تسهيل للحجاب وقيل بأمره وماصدقهما واحد وقيل بعلمه وهو ضعيف ولو صح من حيث ما فى الحقيقة والباء متعلقة بتخرج أو بمحذوف حال من المستتر فى تخرج أو حال من الناس .

والآية تتضمن تشريف رسول الله-صلى الله عليه وسلم-إذ كان خروج الناس من الظلمات إلى النور جارياً على يده وتشريف القرآن إذ به خروجهم . ﴿ إلى صِرَاطِ ﴾ طريق ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الغالب . ﴿ الحَمِيدِ ﴾

المحمود على كل حال والمستحق لجميع المحامد والمستوجب على خلقه أن يحمدوه وصراطه دين الإسلام .

قال ابن مسعود وابن عمر ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طرف الصراط عندنا وطرفه فى الجنة وأضاف الصراط إلى الله لأنه شيء أمر به الله وقصده بالإيجاب ولأنه أظهره الله وخص وصف العزة ووصف الحمد تنبيهاً على أن من مشى فى ذلك الصراط لا يذل ولا يخيب والجار والمجرور من قوله إلى النور بدل الشيء أو متعلق بمحذوف مستأنف جواب لسؤال مقدر كأنه قيل إلى أى نور يخرجهم فقال يخرجهم إلى صراط العزيز الحميد . ﴿ اللهِ ﴾خبر لمحذوف أى هو الله والذى صفته أومبتدأ خبره الذى ، وقرأ غير نافع وابن عامر بالجر على أنه بدل أو بيان للعزيز والأصل إلى الله العزيز الحميد فقدم الوصف وهو العزيز وأعرب بحسب العامل وكان الموصوف بدلا منه أو بياناً وهكذا إذا تقدم نعت المعرفة ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود قيل بالوضع وقيل بالغلبة والصحيح الأول﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ ملكاً وعبيداً وخلقاً ﴿ وَوَيْلٌ ﴾هلاك وهو نقيض الوأل وهو النجاة وهو مصدر لم يشتق منه فعل ولا وصف ولا غيرهما فإذا نصب فهو مفعول مطلق لعامل يقدر من معناه وأصله النصب وعدل عنه إلى الرفع

لتكون الجملة فعلية فتفيد الثبوت وكذا فى سلام عليكم والحمد لله ولكن لهما فعل وقيل إن للويل أيضاً فعلا فيشتق أيضاً سائر المشتقات . ﴿ لِلْكَافِرِينَ ﴾ بالكتاب فلم يخرجوا من الظلمات إلى النور به العابدين للأَصنام التى لا تملك شيئاً المشركين لها بمن ملكها وملك ما فى السماوات والأَرض أو أراد مطلق الكافر . ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ فى الآخرة والجار متعلق بمحذوف حال من ضمير الاستقرار فى قوله للكافرين أو متعلق بويل على تضمنه معنى تولول والصياح ولو فصل بالخبر لأَنه ولو كان مصدراً لكنه لا ينحل إلى حرف مصدر وفعل وكذا يجوز أن يعلق بمحذوف نعت له والوجه الأَول أولى لسلامته من الفصل ومن عليه للبيان أو الابتداء أو للتبعيض وكذا على الوجه الثالث وأما على الثانى فللتعليل ﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت للكافرين أو مفعول لمحذوف أى أعنى أو أذم أو خبر لمحذوف أى هم الذين أو مبتدأ خبره أولئك فى ضلال بعيد ﴿ يَسْتَحِبُّونَ ﴾ يختارون اختياراً شديداً ولتضمين الحب معنى الاختيار هنا وصل بعلى والسين والتاء كما علمت للمبالغة وادعى بعض أنهما للطلب على أصلهما وأن من يختار شيئاً يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره . ﴿ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى القريبة الزوال بالموت . ﴿ عَلَى الآخِرَةِ ﴾ ومعنى اختيارها على الآخرة الإِقبال عليها فقط والكفر بالآخرة . ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ يعرضون بأَنفسهم فهو من صد

اللازم أو يصرفون غيرهم فهو من المتعدى ،وقرأ الحسن بضم الياء وكسر الصاد على أنه من أصد بهمزة التعدية الداخلة على صد اللازم أى يصدون غيرهم وليس فصيحاً لأن صد المتعدى مغن عن ذلك .

﴿ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ وهى دينه . ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾أى سبيل الله لأن السبيل يؤنث ويذكر أى يبغون لها فحذف الجار وأوصل المجرور بالفعل فذلك من باب الحذف والإيصال ولتضمن يبغون معنى يطلبون عدى إلى قوله﴿ عِوَجًا ﴾أى زيغا عن الحق وكأنه قيل ويطلبون لها عوجا أى يبحثون عن عيب يعوجها ويشينها وليسوا بواجد به فيكذبون عليها ويبهتونها ليروا الناس أنها معوجة ويجوز أن يكون المعنى يطلبونها طلب عوج أو معوجين أو ذوى عوج أو بعوج بأن يريدوا الكون عليها مع بقائهم على ما هو عوج من شرك ومعاص وفيه ضعف لقلة من يريد ذلك، وعليه فها مفعول به بلا تقدير جار،وعوجا مفعول مطلق أو حال أو منصوب على نزع الخافض ويجوز رجوع ها إلى مطلق السبيل على طريق الاستخدام فيكون ها مفعولا بلا تقدير أى يطلبون الطريق باعوجاج وهو الشرك والمعاصى أو ذوى عوج أو معوجين أو طلب عوج أو معوجة أو ذات عوج ويجوز رجوع ها إلى الدنيا أى يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والإعراب كالذى قبل.

﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ ﴾ذهاب عن الحق . ﴿ بَعِيدٍ ﴾عنه أسند البعد إلى

الضلال مع أنه فعل للضلال مبالغة كقولك جد جدُه برفع جده تريد أنه مبالغ فى الاجتهاد حتى كان اجتهاده مجتهد، وقولك صام صومه بالرفع تريد مبالغته فى الصوم حتى كان صومه صايم ويجوز أن يكون بعيد فعيلا للنسب أى ضلال ذى بعد أو فيه بعد والنسبة تصح لأَدنى ملابسة ،والذهاب عن الطريق قد يكون بمسافة بعيدة كما هنا وبمسافة قريبة فهذا وجه غير الأَول ،وإن شئت فقل البعد لما به الضلال فوصف به الضلال للملابسة ٠﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ بلغتهم وقرئ بلسن بكسر اللام وإسكان السين بمعنى اللغة أيضاً كالريش والرياش وقرئ بلسن بضمهما وقرئ بلسن بضم اللام وإسكان السين وهو على هاتين القراءتين جمع لسان كعمد بضمتين وعمد بضم فإسكان أو الإسكان تخفيف عن الضم والهاء لرسول ،أى كل رسول بلغة قومه ووجه الجمع أن ألسنة القوم الواحد قد تختلف أو أن نطق كل أحد غير نطق الآخر.﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ماأمروا به فيفهموه عنه بسهولة وسرعة ثم ينقلوه ويترجموه لمن خالف لغتهم ولم يرسل إلى غير قومه بلغة ذلك الغير ،لأَن قومه أولى به لأَنه فيهم ومنهم فهم أحق بدعوته وإنذاره ولذا أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإنذار عشيرته أولا، ولو أنزل الكتاب الواحد على لغة كل قوم لكان أعظم فى الإعجاز لكن يكاد يكون ذلك جبراً على الإيمان وإلا لأَدى إلى التحريف والتبديل

واختلاف الكلمة ولغات أجر الاجتهاد والكد فى تعلم الألفاظ والمعانى والعلوم المتشعبة منها .

وقال الضحاك الهاء فى قومه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإن كتب الله كلها منزلة بلغة قومه وهم قريش أو العرب ثم ترجمها جبريل أو كل نبى بلغة المنزل عليهم ويرده أن الهاء فى لهم عائدة إلى القوم وقد فرض أن القوم قريش أو العرب فيلزم أن يكون المعنى ليبين كل رسول لقريش أو العرب ،وهذا لا يصح لأن نحو التوراة والإنجيل لم ينزل ليبين للعرب بل للعجم وإن رد الهاء فى لهم للأقوام قوم كل رسول كان أشد تكلفاً ،فإن صح أن كل كتاب من الله بالعربية فبدليل آخر لا بالآية هذه . ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ يخذله عن الإيمان . ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ يوفقه وأما كل رسول فما عليه إلا التبيين لقومه . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ لا يغلبه شيء عما أراد فى ملكه من انتقام وإنعام وإعزاز وإذلال وغير ذلك كإضلال وهداية . ﴿ الحَكِيمُ ﴾ فى كل ما يقول أو يفعل فلا يضل أحدا ولا يهدى آخر إلا لحكمة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنا ﴾ كاليد والعصى والطوفان وفلق البحر وقال الحسن بدينا . وقال مجاهد ببياننا وماصدقهما واحد ومرادهما آيات التوراة . ﴿ أَنْ أَخْرِجْ ﴾ أن تفسيرية لأن الإرسال فيه معنى القول دون حروفه ،ومن أجاز دخول أن المصدرية على الأمر والنهى أجاز

أن تكون مصدرية بتقدير الجار أى أرسلناه بأن أخرج .وعلى جوازه الزمخشرى والبيضاوى قائلين إن صيغ الأفعال سواء فى الدلالة على المصدر .والصحيح عندى المنع لحجج ذكرتها فى كتب النحو وصحيح ابن هشام الجواز لدلائل قد أجبت عنها،نعم سمع سيبويه : كتبت إليه بأن قم، وهو محتمل لأن يكون المراد كتبت إليه بهذا اللفظ الذى هوقولك أنقم. ﴿ قَوْمَكَ ﴾بنى إسرائيل .وكانوا قد دخلهم الكفر مابين مقلل منه ومكثر إلا من شاء الله . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾مثل الذى مر . ﴿ وَذَكِّرْهُم ﴾ حضهم ﴿ بِأَيَّامِ اللهِ ﴾ وهذا مكتوب فى المصاحف بباءين محذوف الألف هكذا باييام الله ولست معتبراً لمثل هذا ولا لما فيها من حذف الهمزة للنقل على طريق ورش بل أثبتها وذلك قصد للبيان وإنما لم أعتبره لأنى بصدد التفسير ولو كنت فى كتابة المصحف مجرداً عن التفسير لاعتبرت ذلك ولم أتساهل،وكم محذوف أثبته وأيام الله وقائعه بالأمم الكافرة السابقة عن قوم موسى مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم، هذا هو الذى يتبادر لى .يقال أيام العرب أى حروبها وذلك تسمية للحال باسم المحل الذى هو الزمان ثم إنى رأيت الزمخشرى استظهر ذلك والحمد لله وهوقول مقاتل . ويجوز أن يراد بالأيام نفس الأزمان التى كانت فيها الوقائع لأن التذكير بها تذكير بالوقائع .

وقال ابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد وقتادة : أيام الله نعمه ، وأثبته الداودى حديثا عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وروى عن ابن عباس أنها النعم والنقم وأن النعم تظليل الغمام والمن والسلوى وفلق البحر ،وأن نقمة إهلاك القرون وكذا قال الكلبى . وعن الحسن أنها النعم التى أنعم عليهم بها من نحو المن والسلوى والنقم التى كانوا فيها تحت القبط من الاستعباد وقتل الأبناء. وقيل المراد النقم التى كانوا فيها تحتهم فقط دون النعم .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ لكل كثير الصبر على البلاء والشكر على النعماء وخص الكثير الصبر والشكر لأنه المنتفع بالآيات الانتفاع الكامل ،فهو إذا سمع إنعاما على من قبل أو انتقاما منهم اعتبر وتنبه للصبر والشكر الواجبين عليه وأما قليل الصبر والشكر فقليل الانتفاع وأما من لا يصبر ولا يشكر فلا انتفاع له أصلا وقيل أراد بكل صبار شكور كل مؤمن وعبر بذلك تنبيها على أن المبالغة فى الصبر والشكر واجبة على المؤمن وإن الصبر والشكر عنوانه .

﴿ وَإِذْ ﴾ أى واذكر يا محمد إذ ﴿ قَالَ مُوسَى ﴾ من نفسه أوبالوحى ﴿ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ ﴾ متعلقان بنعمة بمعنى الإنعام بكسر الهمزة ،وإن قلنا المراد بالنعمة المنعم به وهو العطية تعلقت على

بمحذوف حال من نعمة وتعلقت إذ بذلك لاستقرار المحذوف أو بعليكم لنيابته عنه ويجوز كون إذ بدل اشتمال من نعمة سواء فسرت بالإنعام أو بالمنعم به﴿ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾وجملة ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾حال من آل فرعون أو من كاف أنجاكم وسوء مفعول به على تضمين معنى يذيقونكم سوء العذاب أو مفعول مطلق على تضمين معنى يعذبونكم سوء العذاب أى شديد العذاب ، وقد تكلمت فيه فى غير هذا الموضع ،والمراد بسوء العذاب هنا ما عدا تذبيح الأَبناء كالاستعباد والاستعمال فى المشاق بدليل عطف تذبيحهم فى قوله:﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أى يبالغون فى ذبح أولادكم بأَن لا يتركوا واحدا منهم لقول بعض الكهنة أن مولودا يولد فى بنى إسرائيل يكون سبب ذهاب ملك فرعون وبعد ذلك كان يذبح عاما ويترك آخر وفى عام الذبح لا يترك ولداً أُعلم به وكان أيضا قبل ذلك يخرق بطون الحبالى وحيث كان يذبحون بغير واو العطف فالمراد بسوء العذاب هو التذبيح المذكور بعده تفسيرا له ويجوز كون الواو لعطف الخاص على العام ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ يتركونهن أحياء وذلك طلب للحياة على الأَصل فى الاستفعال لأَنهم طلبوا بعدم قتلهن أن يكن أحياء ويجوز أن يكون الاستحياء راجعا لمن خرقوا بطنها أوفعلوا بها ما تسقط به ثم عالجواطبهاطلبا لتحيي﴿ وَفِى ذَلِكُم ﴾ أى المذكور من سوء العذاب والتذبيح

﴿ بَلَآءٌ ﴾ابتلاء ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ إنما قال من ربكم لأنه جرى على يد فرعون وقومه بإقدار الله سبحانه وتعالى إياهم عليه وخلقه إياه وإمهالهم فيه ويجوز أن تكون الإشارة إلى المذكور من سوء العذاب والتذبيح واستحياء النساء وعليه فوجه كون استحياؤهن بلاء لهن يبقين كالإماء تحت أيديهم ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء ، وعليه فالبلاء إما النعمة وعليه الشيخ هود ـ رحمه الله ـ وإما الابتلاء هل يشكرون وهو أنسب بقوله : اذكروا نعمة الله عليكم .

﴿ وَإِذْ ﴾عطف على إذ الثانية أو على نعمة وهو من كلام موسى من نفسه أو بالإيحاء إليه ﴿ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾أعلم علماً بليغا والمبالغة تفيدها زيادة تاء والتشديد ووزنه تفعل كتقدس من أذن بمعنى أعلم والجملة بعده مع القسم المقدر قبلها مقول له لأن فيه معنى القول لأن الإعلام بالوحي والوحي كلام كما يدل له تفسير بعضهم إياه بالقول وقراءة ابن مسعود وإذ قال ربكم ،أو مقول لقول محذوف أى وإذ تأذن ربكم قائلا أو فقال﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ يا بنى إسرائيل ما أنعم به عليكم من الإنجاء وغيره بالإيمان والعمل الصالح ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾من النعم الدنيوية أو منها ومن الأخروية .

وقال بعض العلماء الزيادة على الشكر ليست فى الدنيا وإنما هى من نعم الآخرة والدنيا أهون من ذلك ، قلت هو

ضعيف بل هو سبب لنعم الدنيا كما هو سبب لنعم الآخرة قبل شكر الموجود صيد المفقود وعن الحسن لأَزيدنكم من طاعتى وكذا عن سفيان وضعفه الطبرى قال عياض بل هو قوى حسن قيل إنه وجه تضعيفه أنه خصص والأَصل التعميم قلت بل وجهه أن الأَصل فى الجزاء أن يكون من غير جنسه المجازى إليه وإنه ليس كل أحد يصل درجة اعتقادات زيادة الطاعة أعظم جزاء وحقيقته الاعتراف بالنعم مع تعظيم المنعم واستعمال الجوارح والقلب فى الطاعة المخلوق لأَجلها، ويتوصل إليه بالاشتغال بتعديدها ولو كان لا طاقة على استقصائها وأعلى من هذه الدرجة الاشتغال بحب المنعم عن الالتفات إلى النعم وأصله تصور النعمة وإظهارها ؛

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أعطى الشكر لم يحرم الزيادة لأَن الله تعالى قال لئن شكرتم لأَزيدنكم ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ جحدتم النعمة بالكفر والمعصية وجواب القسم محذوف تقديره لأعذبنكم عذاباً شديداً وكنى عنه بقوله ﴿إِنَّ عَذَابِى﴾ فى الآخرة أو فى الدارين ﴿لَشَدِيدٌ﴾ للكافر ومن عادة أكرم الأَكرمين أن يصرح بالوعد كما قال لأزيدنكم ويكنى عن الوعيد كما رأيت .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لقومه ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

من الإنس والجن ،وجواب الشرط محذوف تقديره فإن وبال ذلكم عليكم أو منعتم الخير الذى لا غنى بكم عنه وناب عنه التعليل بقوله ﴿ فإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ ﴾عن شكركم وشكر سائر الخلق وعن كل شيء ﴿ حَمِيدٌ ﴾مستحق للحمد فى ذاته أو مستوجب للحمد فى صنعه جميعاً لأنه متفضل عادل كثير النعم وإن لم يحمده الحامدون أو محمود عند الملائكة وعند سائر الخلق ممن لم يكفر من عاقل وغيره وحيوان وجماد .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ﴾ خبر ﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ هذا من كلام موسى بنفسه أو بالوحى ،قلت يجوز أن يكون من كلام الله جل وعلا لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – أنزله عليه يخاطب به الكفار ثم رأيت القاضى أجازه ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ بدل من الذين أو بنيان له ﴿ وَعَادٍ ﴾ قوم هود عليه السلام ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح عليه السلام ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ مبتدأ ﴿ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ وقوله ﴿ لاَيَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ ﴾ خبره والجملة معترضة أو الذين معطوف على قوم نوح وجملة لا يعلمهم الا الله معترضة والمعنى لا يعلم عددهم أفراداً ولا جملا إلا الله لكثرتهم ولو علم بعض الناس بعضاً منهم ،وقيل المراد أنه ما بلغهم خبرهم أصلا وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون أى فى دعواهم علم الأنساب إلى آدم أو دونه وقد نفى الله علمها عن العباد وكان مالك ابن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أبا أبا إلى آدم لأنه لا يعلم

أولئك إلا الله ، قيل قد نهى – صلى الله عليه وسلم – أن يرفع نسبه فوق عدنان وقد رفعه بعضهم إلى آدم وسجعه بعضهم من آدم عليه السلام هكذا أنه من آدم أبي البشر ذا العلا إلى حوى وصار وأول من حالها أفضل حلى وحلا ثم إلى شيث فعاد النور منه مشعلا ثم إلى إدريس الذى قرأ صحفاً وتلا ثم إلى تالغ الذى فات أقرانه وما ارتكب زللا ثم إلى ولده الذى مهلا يا بذل لأَهله من المال جملا ثم إلى نوح النبى الذى ركب الفلك وعلى ثم إلى سام الذى ملك نعماً وخولا ثم إلى أرفخشد الذى تبوأ عند ربه منزلا ثم إلى هود الذى شهد بعلمه عقول العقلاء ثم إلى غابر الذى مات أبوه وقد كان نبياً مرسلا ثم إلى أرغوى الذى له مواطن الكرم نزلا ثم إلى شاروخ الذى كان على أخوته مفضلا ثم إلى إبراهيم الذى قال له جبريل حين ألقى فى النار ألك حاجة . قال : أما إليك فلا ، ثم إلى إسماعيل الذبيح الذى أرسل إلى أهل الشرف والعلا ثم إلى قيدار الذى نال البهاء والنور الجملا ،ثم إلى نبت الذى أصبح بالنور مجملا ثم إلى الهميع الذى أصبح بالنسب مكملا ثم إلى اليسع الذى قادته الأَنوار حللا ثم إلى أرد الذى ما ابتغى العز عنه حولا ثم إلى أد الذى أضحى تاجه بالفخر مجملا ثم إلى عدنان الذى انتهى الشرف إليه أما إلى غيره فلا ثم إلى معد الذى نار بنوره الظلا وانجلى ثم إلى مضر الذى رفعه الصعود إلى العلا ثم إلى نزار الذى كان

بالجمال مسربلا ثم إلى الياس الذى كان سعده مسبلا ، ثم إلى مدركة الذى أدرك شرفاً وعلى ، ثم إلى خزيمة الذى نوره يتلالى ثم إلى كنانة الذى موطن شرفه من الفخر ما خلا ، ثم إلى النضر الذى فاق نضارة وعلا ، ثم إلى مالك الذى أصبح به النسب متصلا ، ثم إلى فهر الذى قرأ آيات العلا وتلا ، ثم إلى لؤى الذى ما ابتغى غير الشرف بدلا ، ثم إلى كعب الذى نوره لا يبلى ، ثم إلى مرة الذى عذب منهله وحلا ، ثم إلى كلاب الذى عقد له الفخر حللا ، ثم إلى عبد مناف الذى كسته الأنوار جملا . ثم إلى قصى الذى ساد قومه وعلا ، ثم إلى هاشم الذى له المجد والعلا ، ثم إلى عبد المطلب واسمه شيبة الحمد أولا ، ثم إلى عبد الله صاحب العفاف والعلا وهو أبو سيدنا وحبيبنا وشفيعنا الصادق الأمين محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين وإمام المرسلين سيد الخلق أجمعين تفضيلا وجملا . ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ ﴾ الحجج الواضحات على صدقهم ﴿ فَرَدُّوا ﴾أى وجهوا أو وضعوا أو أدخلوا ﴿ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ إلى أفواههم كما قال ابن هشام ويجوز كون فى بمعنى على وبقائها على الظرفية والمعنى ردوا أيدى أنفسهم فى أفواه انفسهم فعضوا عليها غيظاً ، ماجاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الأنامل من الغيظ وهذا قول ابن مسعود وقال ابن عباس : وضعوا أيديهم على أفواههم تعجباً ، وقيل وضعوها عليها استهزاء

وضحكاً كما يفعل الذى غلبه الضحك فانه يضع يده على فيهِ أو كالذى لا يريد أن يرى ضاحكاً أو مبتسماً .

وقال بعضهم :ردوا يدى أنفسهم فى أفواه أنفسهم إشارة إلى رسلهم أن اسكتوا وأطبقوا أفواهكم وذكر الشيخ هود قولاً قوياً عن بعضهم إيضاحه أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم ومانطقت به من قولهم ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ فى زعمكم أيها الرجال أنكم أرسلتم ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا ﴾ وقرىء مما تدعونا بإدغام نون الرفع فى نون نا ﴿ إِلَيْهِ ﴾من الإيمان ﴿ مُرِيبٍ ﴾موقع فى الريبة فى قولك أن أرابه أى أوقعه فى الريبة أو ذى ريبة من قولك إرابة الرجل أى صار ذا ريبة ،والهمزة على الأول للتصيير وعلى الثانى للصيرورة ،والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الشيء وإنما صح لهم الاعتراف بالشك بعد الاعتراف بالكفر لأن الشك فيما جاءت به الرسل كفر فذكر الشك بياناً له أو المراد بالكفر الجزم بالإنكار وبالشك أنا لم ندع الجزم فى قولنا فلا أقل من أن نكون شاكين وذلك إقناط للرسل من الإيمان بهم وأنه لا جواب عندنا غير ذلك ،وقيل ردوا أيدى أنفسهم فى أفواه أنفسهم بمعنى أنهم لم يجيبوهم إلى ما دعوهم إليه ولو أجابوا بالتكذيب كقولك فى عدم الجواب أصلا رد يده إلى فيه وقال الحسن والكلبى ردوا أيدى أنفسهم فى أفواه الرسل يسكتونهم ولا يتركونهم يتكلمون . وهو أشنع رد وقيل

ردوا ايديهم فى أفواه الرسل مشيرين لهم إلى السكوت وعلى القولين فيحتمل الكلام الحقيقة ويحتمل التمثيل لعدم القبول ، وقال مجاهد وقتادة : ردوا أيدى أنفسهم فى أفواه الرسل ، أى كذبوا قولهم كقولك ردد قول فلان فى فيه إذا كذبته ،وقيل لأيدى جمع يد بمعنى النعمة فالمعنى ردوا نعم الرسل وهى مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع فى أفواه الرسل أى لم يقبلوها عنهم فكأنهم ردوها إلى حيث جاءت أو ردوا نعم الرسل بافواه أنفسهم بأن كذبوها وعليه ففى بمعنى الباء .

﴿ قَالَتْ ﴾للأمم ، ﴿ رُسُلُهُمْ ﴾رادين عليهم فى قولهم إنا لفى شك ﴿ أَفِى اللهِ ﴾أى أفى أمر الله الذى أرسلنا به أو فى وحدانيته بالألوهية أو فى وجود الله إن أنكروا وجوده والظاهر أنهم لم ينكروه جميعاً . ﴿ شَكٌّ ﴾ مع ظهور الأدلة التى منها خلق السموات والأرض كما قال ﴿ فَاطِرِ ﴾خالق . ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾والاستفهام إنكارى وفى الله خبر وشك مبتدأ وشك فاعل أفى الله لاعتماده على الاستفهام وإنما قدم وأدخلت عليه الهمزة لأن الكلام فى المشكوك فيه لا فى الشك ،أى إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وكثرتها ، وفاطر صفة لله ولو كان وصفاً لأنه للماضى فإضافته محضة أو بدل والأول أولى لأنه الأصل فى البدل إذ لا يكون وصفاً وجملة . ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ حال من

مجرور فى أو مستأنف والمعنى يدعوكم إلى الإيمان . ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم ﴾ بالامتثال ﴿ مِن ذُنُوبِكُمْ ﴾أى شيئاً من ذنوبكم وهو الذنوب السابقة على الإسلام سواء كانت فيما بينهم وبين الله أو فيما بينهم وبين العباد وذلك غفران مقطوع به للإيمان ولو عصوه بعد بغير الشرك وأما المعصية بعد الإيمان فلا تغفر بلا رد المظالم والتخلص،فلم يذكر غفرانها ثم وإن رجعوا إلى الشرك لم تغفر لهم الذنوب السابقة أيضاً وقيل يغفر لكم شيئاً من ذنوبكم وهى الذنوب التى فيما بينهم وبين الله بناء على أن الإسلام لا يكون جباً لما قبله من تبعات العباد وهو ضعيف ،ومن أجاز زيادة (من)فى الإيجاب والمعرفة جعل (من)صلة للتأكيد فيكون المعنى يغفر لكم ذنوبكم كلها ،ويجوز أن تكون اللام بمعنى إلى فيكون المعنى يدعوكم إلى غفران الذنوب .ومن تتبع القرآن وجد لفظة(من) تذكر فى غفران من أسلم من الشرك ولا تذكر فى غفران من لم يكن فى الشرك ولا فى غفران ذنب صدر بعد الإسلام من الشرك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يستوى الفريقان فى الميعاد،وخص من أسلم من الشرك لأن الغفران الذى أريد التصريح لهم به على سبيل القطع إنما هو غفران الذنوب التى سبقت الإسلام وهو مترتب على مجرد الإيمان وهى بعض ذنوبهم فى الجملة على تقدير أذنابهم بعد الإسلام وأما ذنوب من لم يكن فى الشرك أو ذنوب الإنسان بعد الإسلام فحيثما ذكرت

مغفرتها فإنما هى مقيدة بالطاعة والتخلص من المعاصى وهى بهذا القيد تغفر كلها فلم تناسب من التبعيضية ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو آخر أعماركم سالمين من العذاب بخلاف ما أصررتم على الكفر فإنكم تعذبون ثم تموتون لآخر أعماركم أو تموتون لآخر أعماركم بعذاب كما مات من قبلكم بالطوفان والصيحة ونحوهما أو يجتمع عليكم عذاب قبل الموت وعذاب عنده تموتون به .

﴿ قَالُوا ﴾ أى الأمم مجيبين لرسلهم ﴿ إِنْ ﴾ أى ما ﴿ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ لا فضل لكم علينا تخصون بالنبوة والرسالة لأجله ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلا لبعث من هو أفضل مثل إنسان يكون جسده فى البهاء والجمال والغلظ خارجاً عن العادة فى الأجساد مثل أن يكون عظيماً كالجبل ووجهه يتلألأ كالقمر أو بعث غير إنسان كالملك فإنهم يعتقدون أنهم أفضل من الإنسان فليس قول الزمخشرى لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة متعيناً فى البناء على مذهبه فى تفضيل الملك على رسل الله بل محتمل لذلك ومحتمل للبناء على معتقد الكفر كما ذكر الله عز وجل عنهم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ إلى الأصنام بهذه الدعوة إلى عبادة واحد ، ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ ﴾ حجة ﴿ مُّبِينٍ ﴾ واضح أو موضح لدعواكم أو يدل على

فضلكم ومزيتكم علينا ومرادهم التعنت باقتراح آية غير الآيات التى جاءت بها الرسل .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ ﴾ أى ما ، ﴿ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ سلموا أنهم مثلهم فى البشرية ولم يذكروا فضلهم تواضعاً واقتصروا على قولهم ، ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بالنبوة لعلمه بأنهم أهل لها دون سواهم وفى ظاهر الآية دليل على أن الرسالة اضطرارية لا اكتسابية وإنما هى لحسب عطاء الله وتفضله وهو الصحيح عندى وكذا النبوة وعلى أن ترجيح بعض الجائزات بمشيئة الله تعالى فإن جعل النبى غير نبي بيانا جائزا بمعنى أن من كان نبياً ليس مستحقاً بالنبوة بالذات ومن لم يكن نبياً ليس مستحقاً لعدم النبوة بالذات وكذا الرسالة فافهم ولا تقلد من قال بغير ذلك ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ أى ما أمكن ﴿ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ بأمره وإقداره إيانا على الإتيان به وإلا فلا طاقة لنا به ﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ لا على غيره ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ﴾ الفاء صلة ولذلك لم تمنع تعليق ما قبلها بما بعدها ﴿ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فى دفع شرور أعدائهم وعنادهم أمر للمؤمنين كافة بالتوكل للإشعار بما يوجب التوكل وهو الإيمان وهم إما داخلون فى عموم كلامهم وإما غير داخلين لكن يدخلون فى وجوب التوكل بتلويح بوجود الإيمان فيهم وعلى كل حال فالمراد أولا وبالذات إغراء أنفسهم على التوكل والإخبار بأنهم

أحق به كأنهم قالوا ومن حقنا أن نتوكل على الله فيما يجرى علينا منكم كما قال .

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ ﴾الاستفهام للإنكار ،أى لاعذر لنا فى ألا نتوكل وحذف الجار كما رأيت وهو متعلق بالاستقرار الذى تعلق به لنا وذلك هو المتبادر عندى وعليه الزمخشرى وابن هشام وقيل لازائدة والمصدر مفعول به الجار والمجرور نظراً إلى أن المعنى ما منعنا التوكل ويرده أنه لم يعهد عمل الجار والمجرور فى المفعول به الصريح وأنه لا وجه لتضمين لنا معنى منعنا وأن الأصل عدم الزيادة ،وقال الأخفش إن زائدة ناصبة ،وكان يجيز عمل أن الزائدة كما يعمل الجار الزائد ويرده أن الأصل عدم الزيادة وأنها لو كانت زائدة لم تعمل لعدم اختصاصها كما يختص حرف الجر الزائد بالاسم فقد دخلت على الحرف فى قوله :

فأمهله حتى إذا إن كأنه معاطى يدى فى لجة الماء غامر

وعلى الاسم فى قوله :

كان ظبية تعطوا إلى ورق السلم

فى رواية جر ظبية وكذا البحث فى وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله ،وعلى قول الأخفش تكون جملة لا نتوكل على الله حالا من مجرور اللام﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ حالا من المستتر فى نتوكل والمعنى ما لنا ألا

نتوكل على الله والحال أنه قدهدانا سبلنا التى يجب علينا سلوكها فى الدين ووفقنا إليها التى بها نعرفه ونعلم أن الأَمر كله بيده وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه بسكون الباء هنا وفى العنكبوت ، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أى على إيذائكم فما مصدرية أو على أما آذيتمونا به فما اسم موصول حذف رابطه شذوذاً لأَنه مجرور بغير ما جر به لموصول ومتعلق بمالم يتعلق به أكدوا توكلهم بالقسم على الصبر على الأذى الجارى منهم كقولهم أنتم سحرة أو كهنة أو كاذبون ،﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون ﴾ أعادوا الأَمر بالتوكل لأَن الأَول مقيد بالمؤمنين والثانى مطلق فى كل أحد كأَنهم قالوا من أراد التوكل فليتوكل على الله لا على غيره إذ هو المتأَهل للتوكل عليه فالمتوكلون بمعنى من بدى التوكل هذا ما ظهر لى ، وقال الزمخشرى المعنى فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم أى من توكلهم المسبب عن إيمانهم كما قال القاضى فالأول استحداث توكل والثانى استثبات عليه ومن كان به وجع اليدين أو الرجلين أو النظرة ، كتب وما لنا ألا نتوكل الآية وعلقها يبرأ بإذن الله ومن به نظرة من الإنس أو الجن قرأها على جرة مملوءة ماء من بئر ويخرج ليلا إلى مفرق الطرق ويغتسل به ثلاث ليال تزول إن شاء الله ومن قرأها للبراغيث على ماء سبع مرات ويقول إن كنتم آمنتم بالله فكفوا شركم عنا أيتها البراغيث ورشه حول مرقده لم تضره بإذن الله ،

قيل أخذ الله على الكلب أن لا يضر من قرأ: وكلبهم باسط، وعلى العقرب أن لا تضر من قرأ: سلام على نوح فى العالمين، وعلى البرغوث أن لا يضر من قرأ: وما لنا ألا نتوكل على الله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾ مجازاة ولئلا يتبعهم الناس ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أى لابد من أحد الأمرين إما الإخراج من الأرض، وإما العود فى ملة الكفرة وهى دينهم وأخروه لأنه ليس مما يفعلونه بالرسل قهراً بخلاف الإخراج فقدموه ليفسدوا أنفسهم منه بالعود فى ملتهم وإنما قالوا أو لتعودن مع أنهم لم يكونوا قط فى دين الكفر، لأن العود هنا بمعنى الصيرورة أى لا تصيرن فى ملتنا وذلك كثير أو لأنهم خاطبوا به الرسل ومن آمن بهم فغلبوا من آمن فصح التعبير بالعود على ظاهره لأن من آمن كان فى الكفر وإذا كفر بعد إيمانه فقد عاد فى الكفر، وإنما غلبوا من آمن لأنه جماعة أو عبروا بالعود لأنهم ظنوا أن الرسل قبل البعثة كانوا فى ملتهم إذ لم يظهروا قبلها مخالفتهم وإن قلت كيف أجزت أن يكون الخطاب للرسل ومن آمن بهم ولم يذكروا الله سبحانه إلا الرسل، قلت ذكر الرسل لا بطريق الحصر فجاز أن يكون المراد: وقال الذين كفروا لرسلهم وللمؤمنين بهم، حذف المؤمنين بقرينة ذكر العود فى الملة إذ هم الذين كانوا فيها ثم انتقلوا واقتصر على ذكر الرسل لأنهم الأصل فى الإيمان

والمعتبر كما يقتصر على ذكر الملك والمراد هو ورعيته،قيل عدى بفى لتضمن معنى المدخول وإلا تعدى بإلى والله أعلم . ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِم ﴾ إلى الرسل ﴿ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِين ﴾لأنفسهم وغيرهم بالشرك والمعاصى والاعتداء وهم الذين كفروا القائلون لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا وجملة لنهلكن والقسم مقدر لمقول لأوحى لأنه بمعنى القول أو مقول القول بمحذوف أى فقال لنهلكن الظالمين .

﴿ ولَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ ﴾ أرضهم وديارهم﴿ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ بعد هلاكهم فلا تخافوا من عاقبة الهلاك وصيرورة ملكه إليكم ولا تهتموا به قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ من آذى جاره أورثه الله داره.وقرأ أبو حيوة ليهلكن وليسكننكم بالمثناة التحتية فيهما نظر إلى لفظ أوحى وعليه فذلك التفات سكاكى ، ﴿ ذَلِكَ ﴾المذكور من إهلاك الظالمين وإسكان الرسل أرضهم فأفرد بتأويل المذكور كما رأيت ويجوز أن يكون الإفراد للتأويل بالوحى أى ذلك الموحى من الإهلاك والإمكان ، ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾اسم مكان أى الموقف الذى هو ملك لله يقيم فيه العباد للحساب يوم القيامة فإنما أُضيف إليه تعالى لأنه ملكه كما تقول دارى دار الله وكما تقول بيت الله ولست تريد أنه يسكنهما تعالى عن ذلك وقيل المقام زائد فهو من زيادة المضاف كقوله ثم اسم السلام عليكم والأصل لمن خافنى بنصب محل الياء على المفعولية ولما أُضيف

إليها مقام كان المحل جرا، ويجوز أن يكون مقامى مصدراً ميمياً أى خاف قيامى أى قيامه بين يدى للحساب فأضاف القيام لنفسه لأنه يكون من العبد بين يديه تعالى .وقال مجاهد خاف قيامى عليه بحفظى لأعماله كقوله تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت .

﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾أى إخبارى بالعذاب على الكفر أوموعودىبالكفار وهو العذاب وهو مصدر بمعنى الإخبار بالشر وفعيل بمعنى مفعول وهو نفس الشر الموعود وإثبات الياء بعد الدال فى الوصل قراءة ورش وحذفها فى الوقف وحذفها غيره وصلاً ووقفاً،وتضمن الذكر بخوف المقام والوعيد المستلزم للاستعداد أن لهم الجنة فى الآخرة وقد ذهبوا بخير الدنيا من إهلاك الأعداء وإرث أموالهم وخير الآخرة ، قال الربيع ابن خيثم : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ومن طال أمله ساء عمله.

﴿ واسْتَفْتَحُوا ﴾أى الكفار بمعنى طلبوا الفتاحة بالضم وهو الحكومة ظنوا أنهم على الحق وأن الرسل على الباطل فقالوا : اللهم أهلك المبطل مما كذا ظهر لى فى مرجع الضمير،ثم رأيت عن ابن عباس أن الأمم قالوا اللهم إن كان هؤلاء صادقين فعذبنا وإن كانوا كاذبين فعذبهم وكذا قال ابن يزيد ، وذلك كقول قريش اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الخ فآتنا بما تعدنا الخ . فأسقط علينا كسفاً وعجل لنا قطنا،وقول أبى جهل يوم بدر اللهم اقطع عنا الرحم وآتانا بما لا نعرف

فاحنه الغداة قال الكلبي لما دعا عليهم الرسل قال قومهم اللهم إن كانوا صادقين فأهلكنا أو كاذبين فأهلكهم ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي وخابوا يعني هؤلاء الكفار المستفتحون وعبر عنهم بالظاهر في موضع المضمر تشنيعاً عليهم باسم جبار عنيداً وإيذاناً بأن موجب خيلتهم كونهم جبارين معاندين وإن الخيبة جزء من اتصف بالجبارية والعنيدية والخيبة عدم فوزهم بما ظنوا من بطلان الرسل وهلاكهم وخسارتهم إذ كانوا هم الخاسرين الهالكين لبطلانهم دون الرسل وهنا حذف ففتح لهم وخاب كل جبار عنيد وأفلح الرسل والمؤمنون والجبار العاتي المتكبر عن طاعة الله وقيل الذي يجبر نقصه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهذا في الإنسان وهو صفة ذم فيه وقيل من لا يرى فوقه أحداً وقيل المتعظم في نفسه المتكبر ء أقرانه والمعاند من ينكر الحق ولا ينقاد له ويعرض عنه وقيل المعجب بما عنده وقيل ا تكبر وقيل الضمير في استفتحوا عائد إلى الرسل أي طلبوا من الله أن يفتح لهم على أعدائهم من الفتح ويحكم بينهم وبين أعدائهم من الفتاحة وهي الحكومة كما مر وذلك أنهم لما أيسوا من إيمان أممهم دعوا عليها بالعذاب والهلاك وذلك قول مجاهد وقتادة وقيل الضمير للرسل وأممهم لأن الرسل استفتحوا على الأمم والأمم استفتحوا على الرسل وقوله استفتحوا معطوف على أوحى ،وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن واستفتحوا بكسر التاء الأخيرة على الأمر

فيكون معطوفا على لنهلكن والقسم المقدر وذلك بإرادة اللفظ كأنه قيل قال لهم ربهم لنهلكن الخ وقال لهم استفتحوا بكسر التاء واستفتحوا بفتحها ففتح وخاب كل جبار عنيد .

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أى من خلفه لأن جهنم لما لم تكن حاضرة بل غائبة كانت كالشيء الذى كان خلف الإنسان، وحقيقة الوراء ما توارى عنك وأنها تأتى بعد الدنيا وبعد موتهم كما قيل إن المعنى من وراء موته وما تأخر فهو وراء ما تقدم أو لأنه إذا بعث ووقف للحساب كانت خلفه أو لأنه قد أعرض عن الآخرة وتركها فكانت خلفه والتوجيه بذلك وهو الذى يظهر لى لا ما قال أبو عبيدة والطبرى أن (ورائه) بمعنى أمامه من الأضداد وأنا متعجب ممن يثبت هذا ونحوه مع أن له مندوحة عنه، والجملة نعت لكل أو لجبار ﴿وَيُسْقَى﴾ عطف على الجملة الاسمية قبله أو على محذوف تقديره يلقى فيها ما يلقى ويسقى ﴿مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ وهذا الماء الصديد أشد عذابها لجمعه الحرارة والمرارة والنتن والاستقذار فخص بالذكر مع إتيان الموت من كل مكان بعد التعميم بذكر جهنم وبالمحذوف المقدر ويجوز أن يقدر يدخلها ويسقى والصديد القيح والدم يسيل من جلود أهل النار أو من اجوافهم وهو بدل من ماء أو بيان وهو أولى لأن كونه مفسر للماء أظهر والصحيح جواز عطف البيان بالنكرة عندى لأن البيان قد يحصل بها بنفسها أو

معقيد بإضافة أووصف أوتعليق ظرف بها ونحو ذلك وقد حصل البيان بها هنا .

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أى ينكف باعه مرة أخرى ويجبر على بلعه والجملة حال من الضمير فى يسقى أو نعت لماء ،﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ لا يقارب أن يبلعه بسهولة وقبول نفس فضلا عن أن يبلعه بل يغص به فيطول عذابه ولا يخفى ما فى ذلك من المبالغة فإن نفى مقاربة الوقوع الشيء أبلغ من معنى وقوعه ويجوز أن يراد بالسوغ مجرد البلع أى لا يقارب بلعه فضلا عن أن يقع البلع أو لا يبلعه إلا بعد بطء تقول العرب ما كدت أفعل أى فعلت بعد بطء ،وهذه الأَوجه هى التى تقبل فى الصناعة والمعنى لا ما قيل أن يكاد زائد والأَصل لا يسيغه ولا ما قيل أن الأَصل ويكاد لا يسيغه فقدمت لا وخرج أحمد واستغربه والترمذى والنسائى والحاكم وصححه وغيرهم عن أبى أمامة أن النبى - صلى الله عليه وسلم- قال فى قوله تعالى « ويسقى من ماء صديد يتجرعه » يقرب إليه فيستكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه أى جلدته فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم وقال : إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، ﴿ وَيَأْتِيهِ الموْتُ ﴾أى أسبابه من حيات وعقارب وأوجاع وجوع وعطش وغير ذلك ،﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾من كل جهة من الجهات الست

أو ما يأتيه ألم الموت من كل موضع من جسده حتى إبهام رجله. قال إبراهيم التيمى حتى أصل كل شعرة، ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ فيستريح ، ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ أى خلفه ، ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى يستقبله فى كل وقت عذاب أشد مما هو فيه والشىء المستقبل لما لم يكن غير حاضر صح وصفه بأنه خلف لأنه لم يشعر به ولم ير فهو كالشىء خلف الإنسان ، وفسر أيضاً بأمامه وقيل العذاب الغليظ الخلود فى النار ، وعن الفضيل ابن عياض: حبس الأنفاس فى الأجساد ، قال رجل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ابن آدم ضعيف إنما تكفيه لدغة من نار ، فأنزل الله كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ، وعن ابن مسعود غلظ جلد الكافر سبعون ذراعاً وضرسه مثل أحد وفخذه مسيرة يومين وتشتعل فيه مثل ما بينى وبين المدينة ،وعن بعضهم لولا ذلك للهبتهم كما تلهب الذباب ،وعنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخرج عنق من النار يكلم بلسان طليق له عينان يبصر بهما ولها لسان تكلم به وتقول إنى أمرت بمن جعل مع الله إلهاً آخر وبكل جبار عنيد وبمن قتل نفسا بغير نفس فينطلق بهم قبل سائر الناس بخمس مائة عام فبطوى سلبهم فيقذفهم فى جهنم. وانتهى كلام موسى فى قوله المتوكلون حكى لقومه ما قالت الرسل لأممهم وما قالت أممهم لهم ثم ذكر الله جل وعلا ما قالت أيضا الأمم لرسلهم وما أوحى إلى الرسل وذكر الاستفتاح وما يتصل به إلى

غليظ .ويجوز أن ينتهى كلام موسى إلى غليظ ،قيل ويجوز أن يكون قوله واستفتحوا مستأنفا فى أهل مكة بمعنى استمطروا والفتح المطر فى سنى القحط التى أُرسلت عليهم بدعوة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فلم يسقوا فذكر الله سبحانه ذلك وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى فى جهنم بدل سقياه ماء آخر وهو صديد أهل النار ومن فى زرعه دود أو جراد أو فأر فليكتب :وقال الذين كفروا لرسلهم إلى غليظ فى أربعة ألواح من خشب الزيتون صبح الأَربعاء قبل طلوع الشمس ويدفن فى كل ركن لوحا ويقرأ ذلك عند الدفن ثلاثا .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه أى مما نقص عليكم أو فى ما يتلى عليكم صفة الذين كفروا بربهم الشبيهة بما يضرب مثلا فى الغرابة وجملة قوله﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ مستأنف لبيان مثلهم كأنه جواب لمن قال ما مثلهم وهى الخبر ولم تحتج إلى رابط لأَنها نفس المبتدأ فى المعنى وإن لم تكن نفس المثل بالصفة– أتيناه على ظاهره وهو الكلام المشبه مضربه بمورده فمجموع أعمالهم كرماد إلخ مفرد المراد به اللفظ ويجوز كون أعمال بدل اشتمال من مثل وكرماد خبر ،وعن الفراء الأَصل مثل أعمال الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ، فحذف المضاف اكتفاء بذكر مثله بعد وفى إعرابه الأوجه غير الأَخير ﴿ اشْتَدَّتْ بِهِ ﴾ أى حملته وأسرعت به﴿ الرِّيحُ ﴾

وقرأ غير نافع الريح بالإفراد ﴿ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ شديد الهبوب وهذه من صفات الريح لكن أسندت لليوم على طريق المجاز العقلى لأنها تهب فيه كقولك نهاره صائم وليله قائم ويوم باردا أو حار وليلة ماطرة أو ساكنة أى لم يهب فيها ريح وذلك مبالغة كأن اليوم فى نفسه عاصف أو يقدر مضاف أى عاصف ريحه مشبه أعمالهم المستحسنة كالصدقة وعقر الإبل للأضياف وصلة الرحم وعتق الرقاب وفك الأسير وإغاثة الملهوف وبر الوالدين ونحو ذلك برماد أطارته الرياح الشديدة فى عدم الحصول على شىء من ثوابها كما لا يقدر على جمع ذلك الرماد المطار، كما قال تعالى بيانا لوجه الشبه ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى على ثواب شىء مما كسبوا من الأعمال أو على شىء من ثواب ما كسبوا ولا يرون لأعمالهم أثر ثواب لحبوطها بالشرك لعدم بنائها على أساس التوحيد والإخلاص ولأنهم جوزوا عليها فى الدنيا، وقيل المراد بالأعمال عبادة الأصنام تعبوا أبدانهم فى عبادتها أعمارهم راجين نفعها ولم يتحصلوا منها على شىء نافع بل عادت عليهم وبالا ومما متعلق بمحذوف حال من شىء على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور وعلى قلة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ضلال مع حسبانهم أنهم على صواب أو ضلال أعمالهم أى ذهابها كالرماد الذى اشتدت به الريح ﴿ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ عن الحق أو عن الثواب أى انتهى الغاية فى البعد .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم والمراد أُمته أو خطاب لكل من يصلح له من الكفرة على طريق التفات العرب من الغيبة للخطاب والاستفهام التقرير ﴿أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ لا باطلا ولا عبثا بل بالحكمة والوجه الذى يحق أن يخلق عليه متعلق بخلق أو حال من المستتر فيه وقرأ حمزة والكسائى خالق بألف وضم القاف وجر السماوات والأرض ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾أيها الناس أو يا قريش أى يعدمكم﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ . بدلا منكم وأطوع لله كما قدر على خلق السموات والارض وما يتوقف عليه خلقكم وتبديل صوركم وتغيير طبائعكم﴿ وَمَا ذَلِكَ ﴾المذكور من إذهابكم والإتيان بخلق جديد بدل منكم ﴿ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ ممتنع أو متعسر بل ممكن سهل لأنه قادر بالذات لا بعارض يحل فى الذات تعالى فلا تختص قدرته بشىء من الممكنات دون شىء ومن كان هكذا حقيق بأن يؤمن به ويعبد رجاء لثوابه وخوفا من عقابه .

﴿ وَبَرَزُوا ﴾أى ظهروا من قبورهم بالبعث﴿ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾أى إلى الله بالحساب، والبراز القضاء ويبرز حصل فيه وذلك أنهم يظهرون من القبور إلى الفضاء أو برزوا منها يوم القيامة لأمر الله وحسابه أو ظهروا لله يوم القيامة بعد أن خفوا عنه فى زعمهم وذلك أنهم كانوا يخفون ارتكاب الفواحش ويظنون بأنها تخفى عنه وأصل يبرزون يوم القيامة

وعبر بالماضى لأن يوم القيامة واقع قطعا فكأنه قد وقع ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ الأتباع وسماهم ضعفاء بالنسبة للرؤساء أو لضعف رأيهم والموجود فى خط المصاحف المغربية هكذا الضعفاء بألف حمراء وهمزة على الواو بعدها ألف،وقيل هو فى مصحف عثمان بهمزة بعد الواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو ومثل ذلك علماء بنى إسرائيل وسباتهم وغير ذلك. وقال أبو عمرو الدانى وغيره بأن الهمزة على الواو فى ذلك لا بعدها وأن ذلك تسهيل للهمزة فى النطق وتقوية لها فى الحنك وإنما وجد ذلك فى الهمزة المضمومة بعد ألف فى مواضع مذكورة فى فناها ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ الذين تناولوا الكبر وادعوه وهم سادتهم الذين صدوهم عن الإيمان ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ فى الكفر جمع تابع كغايب وغيب وخادم وخدم أو مصدر نعته مبالغة أو بتأويله بالوصف أى تابعين أو بتقدير مضاف أى ذوى تبع ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ دافعون ﴿ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ ﴾ من للبيان متعلقة بمحذوف حال من شىء فى قوله ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ ولو كان مجرورا لأن تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف زائد جائز فإن شيئا مفعول به،أى فهل أنتم دافعون عنا شيئا هو عذاب الله الواقع علينا وإنما زيدت من لتقدم الاستفهام هذا ما ظهر لى فى ولاية،وهو إن شاء الله خال من تكلف وقيل من الأولى كما ذكر والثانية للتبعيض غير زائدة اسما بمعنى بعض مفعول به مضاف لعذاب

أى دافعون بعض شىء هو عذاب الله أو كلتاهما للتبعيض أى بعض شىء هو بعض عذاب الله،ولزم عليهما تقديم الحال على صاحبه المجرور بغير زائد وإما حملا للآية على القليل غير المقيس وإما اعتقاد القياس ذلك وعلى حرفية من التبعيضية والإعراب كذلك تعلق بمحذوف نعت مفعول به محذوف أى شيئاً ثابتا من شىء هو عذاب الله، قيل ويجوز كونها للتبعيض والأُولى مفعول به والثانية مفعول مطلق أى فهل أنتم بعض العذاب بعض الاغناء على اسمية من البيانية وإما على حرفيتها أو الإعراب على هذا الطريق متعلق بمحذوف نعت لمفعول محذوف مثل ما مر والصحيح حرفية من التبعيضية والبيانية وإنما قال الضعفاء ذلك توبيخا وعتابا وتبكيتا لأَنهم علموا أنهم لا يغنون عنهم﴿ قَالُوا ﴾ أى الذين استكبروا جوابا لمعاتبة الضعفاء لهم وإعتذارا عن إغوائهم إياهم﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ ﴾ وفقنا للإيمان﴿ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ لدللناكم عليه ولكن ضللنا فاخترنا لكم ما اخترنا لأُنفسنا من الضلال وذلك إما على حمل ذنوبهم على الله بادعاء الجبر عليه ولا ذنب أعظم من ادعاء ذلك كما قالوا فى الدنيا لو شاء الله ما أشركنا وإما اعتراف بأَنه لا خير فيهم وأنه لو كان فينا خير وهو للطف الله بنا بالهداية لصدر منا لكم خير وهو الدلالة على الإيمان لا شر وهو الإضلال كما تقول لو كنت من أهل الخير لفعلت كذا ويجوز أن يكون المعنى لو دفعنا الله لطريق

النجاة من عذابه لدللناكم عليها فتنجون باتباعنا ولما كان عتاب الضعفاء لهم جزعا وندما لا ينفعان قالوا لهم قبل دخول النار كما أن العتاب قبله كما هو ظاهر الآية﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَا ﴾ أى معشر المستكبرين ومعشر الضعفاء لاجتماعهم فى عقاب المعصية والكفر﴿ أَجَزِعْنَا ﴾ الهمزة للتسوية والفعل بعدها يؤول بالمصدر بلا حرف مصدر وقيل همزة التسوية حرف مصدر لكن الجزع أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه﴿ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ أى الجزع والصبر مستويان فى شأننا فى عدم الفائدة أولما قالوا لو وفقنا الله لطريق النجاة من عذابه لدللناكم عليها اتبعوه الأقباط مما ينجيهم من صبر أوجزع كما رأيت وغيرهما كما قال عنهم﴿ مَا لَنَا ﴾ أى معشر المستكبرين والضعفاء ﴿ مِن ﴾صلة فى المبتدأ أو فى فاعل الظرف اعتماده على النفى﴿ مَّحِيصٍ ﴾ مصدر ميمى أى هروب ونجاة أو اسم مكان أى موضع نلتجىء إليه ويجوز أن يكون سواء علينا أجزعنا الخ من كلام الضعفاء والمستكبرين تكلموا به قبل دخول النار وبعد دخولها ويدل على أنه منهم جميعا بعد دخولها ما خرجه ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن كعب ابن مالك رفعه إلى النبى –صلى الله عليه وسلم– وذكره ابن زيد ومحمد ابن كعب ومقاتل أن أهل النار يقولون هلموا فلنصبر فيصبرون خمس مائة عام ،فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا هلموا فلنجزع فيبكون

ويصيحون خمس مائة عام فلما راوا ذلك لاينفعهم قالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص .زاد ابن زيد ومحمد بن كعب أنهم يقولون: إنما نال أهل الجنة الرحمة بالصبر على الطاعة ،ذكرا ذلك قبل أن يذكرا قولهم هلموا وذكر محمد بن كعب أنهم يسألون خازن النار الموت كما قال الله تعالى عنهم ليقض علينا ربك فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلاث مائة وستون يوما واليوم كألف سنة ثم يجيبهم إنكم ماكثون ولما يئسوا مما عنده قالوا تعالوا نصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا فطال صبرهم فلم ينفعهم فقالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾إبليس خطيبا فى أشقياء الإنس والجن قيل يسمع خطبته كل أحد﴿ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ فرغ منه بأن دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة وقد اجتمع بالأشقياء فى النار روى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه يقوم بهذه الألفاظ التى ذكر الله سبحانه عنه خطيبا فى النار على أهلها عدد قولهم ما لنا محيص ،وظاهر رواية عقبة بن عامر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –أنه قال يقوم يوم القيامة خطيبان أحدهما إبليس يقوم فى الكفرة بهذه الألفاظ والثانى عيسى ابن مريم–عليه السلام– يقوم بقوله ما قلت لهم إلا ماأمرتنى به الآية إنه يقول تلك الألفاظ قبل دخول النار ويجمع بينهما بأن

المراد بيوم القيامة ما يعم ما قبل الدخول وما بعده وزعم مقاتل أنه يوضع منبر فيجتمع له أهل النار فيقول ما ذكر الله جل وعلا عنه بقوله ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ وعدا صادقا حقيقا بالوفاء وهو الوعد بالبعث والجزاء فيوفى به ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ وعدا باطلا كاذبا وهو أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار وإن كانا شفعت لكم الأصنام ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ سمى ظهور خلاف ما وعدهم اختلافا منه على طريق التجوز أو أرهم فى هذا الوقت أنه فى وقت الوعد فمعتقد للوفاء وقادر عليه لكنه أخلفهم وهذا على طريق الكذب فإنه فى وقت الوعد عالم بأنه لا طاقة له بالوفاء ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ ﴾ وفتح الياء حفص ﴿ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ قوة قهرتكم بها على الكفر والمعاصى كالعصى والسيف والإحراق و السجن فالاستثناء فى قوله ﴿ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ منقطع وإن مصدرية أى الادعاء فى إياكم أو الكفر والمعاصى بالوسوسة والتزيين ويجوز أن يكون متصلا بطريق الادعاء وإن دعاءك إياه جملة فى مكان السلطان وكأنه من جنسه أى إن كان الدعاء من جنس السلطان فقد اقتصرت عليه كقولك قرى الكافر رمح وتحيته ضرب عنقه بالسيف والأول أظهر فكأنه قال لكن دعوتكم إلى الكفر والمعاصى ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ﴾ أجبتم ﴿ لِي ﴾ دعائى قبل أن تنظروا فى دلائل الرسل بلا مهلة ﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ على دعائى إياكم فإن من أظهر العداوة لا يلام على مثل ذلك

وقرىء فلا يلوموني بالتحتية على طريق الالتفات من الخطاب للغيبة ﴿ وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾إذا اتبعتموني تقليدا أو عصيتم ربكم مع دلائله وبراهينه والحق عندنا معشر الأباضية والشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى مكسوبة لنا فمن حيث أنها مكسوبة لنا قال إبليس ــ لعنه الله تعالى ــ للأشقياء لوموا أنفسكم أى إذ كسبتم باختياركم ما يوجب الشقاوة فبكل قول المعتزلة أن الآية دليل على أن العبد مستقل بأفعاله وليس قولنا بأنها مخلوقة لله تعالى قولا بالجبر ،بل هى كسب لنا وليس كلام الزمخشرى نصا فى الاستقلال فإن حاصله أن الإنسان يختار الشقاوة والسعادة ويحصلها لنفسه أى يختار موجبها ويحصله وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين وأنه لو كان مجتبرا لقال فلا تلوموني ولأنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه وأنه لو كان قول الشيطان فى ذلك باطلا لبينه الله تعالى وأنكره بل لا طائل له فى النطق بالباطل فى ذلك المقام ألا تروا أنه حذف فى قوله أن الله وعدكم وعد الحق الخ انتهى بل يحتمل مذهبنا ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾مغيثكم من العذاب ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾قال أبو عمرو الدانى قول حمزة بكسر الباء وهو لغة حكاها الفراء وقطرب وأجاز عمرو والباقون بفتحها انتهى وكذا قال أبوحيان : أنه لغة وبها قرأ يحيي بن وثاب والأعمش ،ووجه

الكسر أنه قدر أن باء الإضافة ساكنة وقبلها ياء الجمع ساكنة فكسر ياء الإضافة على أصل التخلص من التقاء الساكنين وذلك ضعيف لأن حركة ياء الإضافة الفتح ولو بعد الألف على الأفصح فكيف بعد الياء والاجتماع ياءين وثلاث كسرات وليس الساكن الذى هو حرف صحيح واقع قبل ياء الإضافة بأولى من ياء ساكنة قبلها فى ذلك فضلا عما قد يقال إن الياء الأولى جارية مجرى الجر والصحيح الساكن لإدغامها فساغ كسر الياء بعدها على الأصل ،ويجوز أن يكون ذلك على لغة من يزيد ياء بعد ياء الإضافة فحذفت لئلا تجتمع ثلاث ياءات ودلت عليها الكسر كما تزاد ياء بعد كاف المؤنث وتاء وألف بعد كاف المذكر فى لغة﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ ما مصدرية ومن متعلقة بأشرك أى كفرت بإشراككم إياى بالله فى الطاعة من قبل هذا اليوم فى الدنيا ومعنى الكفر بإشراكهم التبرؤ منه واستنكاره أو ما اسم موصول مستعمل للعالم كما قيل فى والسماء وما بناها ومن متعلقه بكفر أى كفرت بالله الذى أشركتمونيه بطاعتكم إياى فيما أدعوكم إليه من عبادة غير الله من قبل إشراككم حين أمرنى بالسجود لآدم فامتنعت ،وعليه فالرابط محذوف هو هاء كما رأيت وتعدى أشرك لاثنين بإدخال همزة التعدية ،تقول شرك زيد خالدا وأشركته إياى أى جعلته شريكا له وأثبت أبو عمرو الياء فى أشركتمونى فى الوصل

﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾المشركين والمنافقين﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾هذا من كلام الله جل جلاله ويحتمل أن يكون تتمة لكلام اللعين إبليس وإنما حكى الله سبحانه وتعالى كلامه الذى سيقوله لتقشعر عنه قلوب الناس فيستعدوا لذلك الوقت ويحاسبوا أنفسهم. روى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق قال المؤمنون قد قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا إلى ربنا قالوا انطلقوا إلى آدم فذكر أن كل من آتوه من الأنبياء ردهم للآخر قال ويأتون عيسى فيقول أدلكم على النبى الأُمى فيأتونى فيأذن الله لى أفأثنى عليه فأَقوم فيفور من مجلسى أطيب ريح شمها أحد وأسأَل ربى الشفاعة فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظهر قدمى ويقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ما هو إلا إبليس هو الذى أضلنا فيأَتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من شفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فانك أنت أضللتنا،فيقوم فيفور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك إن الله وعدكم وعد الحق الآية ذكره الشيخ هود -رحمه الله- مبسوطا بلا مسند وذكره البغوى بسند عن عقبة بن عامر ويأتى كلام فى ذلك إن شاء الله فى تفسير المقام المحمود .

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾أى أدخلهم الملائكة أو أدخلهم الله كما قرأ الحسن وعمرو بن عبيد وأدخل بهمزة التكلم

والرفع وهو دليل على أن هذا من كلام الله تعالى ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ ﴾ حال مقدرة ﴿ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بأمره متعلق بادخل وإما على قراءة الحسن وعمر وفقيل متعلق بما بعده من الجملة أى بنسبة الخبر إلى المبتدأ، قلت هذا عندى ضعيف لأن نسبة الخبر إلى المبتدأ عامل معنوى فلا يتقدم معمولها عليهما بل يتعلق بادخل والأصل أدخلهم بإذنى أى بمشيئتى وإرادتى ووضع الظاهر وهو اسم الرب موضع المضمر وهو ياء إذنى بكسر الهمزة فلزم من ذلك الالتفات من التكلم للغيبة لأن الظاهر من قبيل الغيبة ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ من الله ومن الملائكة وفيما بينهم ﴿ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ أى تهنئة بالسلامة من الآفات ويحتمل أن يكون المعنى أن تحيتهم فيها السلامة منها، وليس بكلام من غيرهم لهم ولا من بعض لبعض، كما تقول لحبيبك تحيتك لحم وسمن تريدان له ذلك والأول أظهر وأشهر ويدل له ما روى أنه بينما هم فى ظل شجرة طوبى يتحدثون تحتها إذ أتتهم الملائكة بنوق مزمومة بسلاسل الذهب كأن وجوهها المصابيح من حسنها منقادة عليها رحائل الذهب المكسوة بسندس وإستبرق وتدفع إليهم ثم يسلمون عليهم ويقولون إن ربكم بعث إليكم بهذه الرواحل لتركبوها وتتفسحون فى الجنة وتنظرون إلى ما وعد لكم فيها مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد فيركبونها ويسيرون صفا لا تجاوز ناقة

أُخرى بإذنها ويمرون بالشجرة فتتأخر عن مكانها فيرسل إليهم ربهم السلام فيقولون ربنا أنت السلام ومن عندك السلام ولك حق الجلال والإكرام فيقول لهم وعليكم السلام منى وعليكم رحمتى ومحبتى مرحبا بعبادى الذين أطاعونى بالغيب وحفظوا وصيتى ويقولون لا وعزتك ما قدرناك حق قدرك وما أدينا إليك كل حقك ائذن لنا يا ربنا أن نسجد لك فيقول إنى وضعت عنكم مؤنة العبادة وقد أفضيتم إلى كرامتى وبلغ الوعد الذى وعدتكم تمنوا فإن لكل إنسان منكم ما تمنى .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾وقرىء بإسكان الراء وهو ضعيف لأَن جزمه بالحذف لا بالإسكان ولعله أجرى للوصل مجرى الوقف والمعنى ألم تعلم يامحمد أو يا أيها الإنسان﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا ﴾ كيف وضعه ،﴿ كَلِمَةً ﴾ بدل من مثلا ،﴿ طَيِّبَةً ﴾ قال ابن عباس والجمهور هى قول لا إله إلا الله ، وقيل لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقيل دعوة الإسلام والقرآن عموماً ، وقيل كل كلمة حسنة وأوامر المعروف أو نهياً عن منكر وتسبيحه كشجرة نعت ثانى لكلمة أو خبر لمحذوف والجملة مستأْنفة أى هى كشجرة ويجوز أن يجعل كلمة مفعولا أولا مؤخراً ومثلا مفعولا ثانياً مقدماً تنزيلاً لضرف منزلة جعل، كما قال ابن مالك ان ضرب فى المثل يتعدى لاثنين ويجوز كون كلمة مفعولا لمحذوف وكشجرة مفعولا ثانيا أى جعل كلمة طيبة﴿ كَشَجَرَةٍ ﴾ الخ ، فيكون

ذلك تفسيراً لضرب الله مثلا كقولك اكرم الله جل جلاله فلاناً أعطاه المال وعلمه العلم ويدل له قراءة بعضهم برفع كلمة طيبة فيكون كشجرة خبراً لكلمة ، ﴿ طَيِّبَةٍ ﴾هى النخلة أخرج الترمذى موقوفاً مرفوعاً وصحح الموقوف والنسائى والحاكم وابن حبان وصححه وغيرهم عن أنس بن مالك عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن الشجرة الطيبة هى النخلة وكذا أخرج أحمد وابن مردويه بسند جيد عن ابن عمر عنه – صلى الله عليه وسلم – أنها لا ينقص ورقها وأنها النخلة وكذا قال ابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وذكروا عن ابن عمرانه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن من الشجرة شجرة لا يسقط ورقها وانها مثل المؤمن وأى شجرة هى؟فوقع الناس فى شجر البوادى فوقع فى نفسى أنها النخلة ،وكنت غلاماً أصغر القوم نحن عشرة فسكتنا حياء ثم قالوا : حدثنا يارسول الله ما هى ؟ قال : هى النخلة . وفى رواية لما قال : ما هى . قالوا : الله ورسوله أعلم . وفى رواية منعتنى مكانة أبى واستحييت فذكرت ذلك لأَبى بعد ما قمت فقال يابنى لو كنت قلتها لكانت أحب إلَىَّ من حمر النعم . وفى رواية رأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ولما لم يقولوا شيئاً ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهى النخلة،وعن ابن عباس شجرة فى الجنة ، وعنه أنها المؤمن ، وقيل كل شجرة مثمرة

طيبة الثمار كالنخلة وشجر التين والعنب والرمان . ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ راسخ فى الأَرض بعروقه ، كذلك الكلمة الطيبة راسخة فى قلب المؤمن وقرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابت أصلها بتقديم ثابت وجرد على أنه نعت ورفع أصل على الفاعلية وقرأ الجمهور أقوى وأن المسند لم يعرف به صفة فى اللفظ لغير المسند إليه بخلافه على قراءة أنس وكلتاهما بليغة لإفادتها بعض المعنى المراد من التشبيه فان وجه الشبه الرسوخ كما علمت وان النخلة شبيهة بالإنسان من حيث أنها خلقت من فضلة طينة آدم وأنها تموت بقطع رأسها بخلاف سائر الشجر وإنها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر وإن الكلمة الطيبة ترفع عمل المؤمن إلى السماء وترفع فى نفسها أيضاً كما أن فرع النخلة مرتفع فى جهة السماء كما قال الله جل جلاله ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أغصانها والإضافة للجنس بالفرع بمعنى الفروع واعتبرها فرعاً واحداً من حيث هو ناشىء عن أصل واحد . ﴿ فِى السَّمَاءِ ﴾ أى عال فى جهة السماء وأن ثواب ما يتولد عن تلك الكلمة الطيبة من الأَعمال الصالحات يوجد فى كل حين كلما عمل عملا صالحاً ثبت له ثوابه كما أن النخلة يوجد أُكلها كل حين كما قال جل جلاله ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا ﴾ أى تعطى صاحبها مأْكولها وهو ثمارها ، ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ كل وقت لأَنه يؤكل جمراً وطلعاً وبلحاً وبسرا ورطباً وتمراً

ويدخر إلى حين الثمرة الأُخرى ،وكما قال الربيع ابن أنس الحين هنا بكرة وعشى لأن الثمرة تؤكل بكرة وعشياً فى أوانه وغير أوانه ، وقال مجاهد وعكرمة الحين هنا سنة لأَنها تثمر فى كل سنة فالسنة فى حقها وكل وقت فى حق العمل الصالح سواء فكأَنه قيل كل حين وقته الله لإثمارها ومثل ذلك يقال فى قول سعيد بن جبير وقتادة والحسن : الحين هاهنا ستة أشهر من وقت طلعها إلى حين صرامها والروايتان عن ابن عباس رضى الله عنهما وفى قول على ثمانية أشهر وهى مدة حملها ظاهراً وباطناً وفى بعض أربعة من حين ظهور حملها إلى إدراكها . وفى قول سعيد بن المسيب شهران من وقت يؤكل منها إلى صرامها وأن الشجرة مطلقاً لا تسمى شجرة إلا بعرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الإيمان لا يتم إلا بتصديق وقول وعمل ،وعن ابن عمر وعنه – صلى الله عليه وسلم – مثل المؤمن كشجرة لا يسقط لها أنملة أتدرون ما هى ؟ قالوا : لا . قال : هى النخلة لا يسقط لها أنملة كما لا تسقط لمؤمن دعوة فوجه الشبه غير ما ذكر قبل هذا وقيل هو أن أصل دين المسلم ثابت وإنما يصدر عنه من العلوم والخير قوت للأَرواح مُسطاب وأنه لا يزال مستوراً بدينه ينتفع بكل ما يصدر منه حياً وميتاً قيل وإما كون الشبه موتها بقطع رأسها وموتها بحرقها وأنها لا تحمل حتى تلقح وأن رائحة طلعها كرائحة المنى وأنها تعشق وإنها

تشرب من أعلاها فضعيف والضعف منه ما قيل أنه هو خلقها من فضلة طين آدم عليه السلام فإن الحديث فى ذلك لم يثبت. وفى رواية عن ابن عمران من الشجر لما بركته كبركة المسلم وذلك أنها تؤكل من حين طلع إلى أن تيبس وينتفع بأجزائها كالنوى فى العلف والليف فى الحبال والجمار فى الأكل ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادته وتكوينه ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون فيؤمنون لأن ضرب المثل زيادة فى الإفهام وتصوير للمعانى وإدناء لها من الأشياء المحسة فتدرك كما يدرك ما تحسه العين واليد .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ كلمة الشرك وقيل كل كلمة خبيثة كلمة شرك أو نفاق معصية وقرىء بنصب مثل عطفاً على كلمة طيبة ، ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ أخرج الترمذى موقوفاً ومرفوعاً وصحح الموقوف النسائى والحاكم وابن حبان وصححاه وغيرهم عن أنس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنها الحنظل وبذلك قال أكثر المفسرين ومجاهد وعن ابن عباس أنها الكشوث بشين معجمة وثاء مثلثة وهو نبت يتعلق باغصان الشجر من غير أن يضرب بعروق فى الأرض .

قال الشاعر :

هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

وفى رواية أخرى عنه أنها الثوح وقيل إن ذلك كله تمثيل وأن المراد مايعم كل شجرة لايكون ثمرها طيباً حلواً ، وعن ابن عباس أنها الكافر لا يقبل الله عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد عمله إلى السماء ، ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾قطعت جثتها من أصلها ،﴿ مِن فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ فإن عروقها وإن كانت تحت الأرض لكنها قريبة من فوقها وأيضاً قطعها من أصل ذهاب لها من فوق كما هو إذهاب لها من تحتها ،﴿ مَالَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ . ثبوت أو موضع ثبوت كذلك كلمة الكفر لإثبات ولا فرع ولا بركة لها فهو فى غاية الضعف كهذه الشجرة يقلبها أدنى ريح ويرى أن بيده شيئاً وهو لا يستقر ولا يغنى كهذه الشجرة يظن بها البعد أو بالجهل أنها نافعة وهى خبيثة الثمار غير ما فيه ، قال قتادة : قيل لبعض العلماء ما تقول فى كلمة خبيثة ؟ فقال : ما أعلم لها فى الأرض مستقراً ولا فى السماء مصعداً إلا أن تازم عنق صاحبها حتى يوافى بها القيامة .

وفى الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترنجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأه مثل الثمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأه مثل الريحان ريحه طيب وطعمه مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ، رواه أبو موسى الأشعرى وفى الحديث عن على وغيره الجليس الصالح

كحامل المسك يوجد منه ريحه ، والجليس السوء كالكيران لا يحرق ثوبك ويؤذيك دخانه ، وقال من أراد خراب بيوت الظالمين واحنتهم وزروعهم وفساد كلما يتقبلون فيه وإسقام العدو والانتقام منه وهلاكه وإن كان الظالم مستحقاً لذلك فليعمل من طين الفاخورة لوحاً مربعاً قبل طلوع الشمس يوم الأربعاء ويجففه فى الظل ثم يكتب عليه فى يوم الأربعاء الثانى : ومثل كلمة خبيثة كشجرة ـ الآية – بقلم زيتون بماء نيل ثم يدق اللوح دقا ناعماً ثم يرش فى بيت الظالم أو حيث ينقلب فإنه يرى عجباً وإن كتبت يوم السبت فى جلد ثعلب مدبوغ مذكى فى نقصان الهلال وجعل الجلد فى الماء الذى يشرب منه فإنه يهلك ولا يجوز هذا ونحوه من المضرات إلا لمن أباح الشرع قتله أو مضرته .

﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ كلمة التوحيد وسائر الحق تمكنت فى قلوبهم بالحجج ، ﴿ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فلا يتحولون عنها ولو أكرهوا بأنواع القتل كيحيي والمحرقين فى الأخدود أو يتحولون عنها فى النطق إذا كرهوا وقد اطمأنت قلوبهم بها كعمار بن ياسر ، ﴿ وَفِى الآخِرَةِ ﴾ أى عند السؤال فى قبره فينطق فيه بما يسأل عنه من جملة القول الثابت ،وإنما يسأل عن كلمة الشهادة ومن ثبت فيه ثبت يوم القيامة عند البعث والحساب وذلك هو ما ظهر لى فى تفسير

الآية به ثم رأيته منسوباً للجمهور وقيل المراد بالحياة الدنيا حال موته وسؤاله فى قبره والآخرة يوم القيامة لا يدهشهم فى ذلك هول ، وبه قال البراء بن عازب،والأول أصح وبه قال مجاهد وطاووس وصححه الطبرى وقيل إن مذهب الجمهور ما عليه البراء بن عازب وأنه روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سئل المسلم فى قبره قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قولهُ تعالى : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . ويجاب بأنه ـ صلى الله عليهِ وسلم ـ وقف فى حديثه على قولهِ بالقول الثابت ، فى رواية . وقرأ فى رواية أُخرى إلى وفى الآخرة،فاحتمل أن سؤال القبر فسر بهِ قولهُ وفى الآخرة،وإنما يتعين ما قال البراء لو وقف على قوله فى الحياة الدنيا ولم يزد ولكنه وأمثاله بتفسير الحديث أدرى وأعلم ، وقد روى ذلك أيضاً ابن مسعود ، وأبو هريرة ، وابن عباس ، وأبو سعيد ، وروى أبو سعيد : يا أيها الناس إن هذه الأُمة تبلى فى قبورها فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابهُ جاءه ملك بيده مطراق وقد رجعت فيه روحه أى فى جملته على الصحيح وهو مذهب الجمهور ويدل له ظاهر الحديث أو من رأسه إلى صدره فأقعده . فقال له : ما تقول فى هذا الرجل : يعنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال بعض الصحابة ما أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هبل . فقال

ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ـ الآية ـ وذكر أبو عمرو بن عبد البر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف بك يا عمر إذا جاءك منكر ونكير إذا مت وانطلق بك قومك فقاسوا ثلاثة أذرع وشبراً فى ذراع وشبر ثم غسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك فوضعوك فيهِ ثم أهالوا عليك التراب وانصرفوا وجاءك منكر ونكير فتانا القبر أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران شعورهما معهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل الأَرض لم يقلبوها ، فقال : يارسول الله إن فرقنا أى خفنا بحق أن نعرف أنبعث على مانحن عليه . قال : نعم إن شاء الله . قال : إذا أكفيكهما ، وروى أن الملكين يقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ، فيقول المسلم : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبيى محمد ،فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى . رواه البراء أيضاً وغيره . وروى أنه يفتح لهُ باب إلى النار فيقال لهُ : انظر إلى النار التى لو كذبت صرت إليها وقد أعاذك الله منها ، ثم يفتح لهُ باب إلى الجنة ويقال لهُ : هذه الجنة ويرى منزله فيها فلا يزال يأْتيه من ريح الجنة وبردها حتى تأْتيه الساعة ، وذكر جابر بن عبد الله أنهما يسأَلان الميت بانتهار وأن المؤمن إذا رأى منزله يقول دعونى أبشر أهلى . فيقال لهُ : اسكن وأن المؤمن يبعث على إيمانه ، والمنافق على نفاقه . وروى البراء بن عازب

أن المؤمن إذا احتضر جاءتهُ ملائكة وجوههم كالشمس بحنوط وكفن
وجلسوا حيث يراهم فإذا خرجت روحه صلى عليهِ كل ملك بين السماء
والأرض وكل ملك فى السماوات فتحت له أبواب السماء كل يعجبه
أن تصعد روحه منه ،فينتهى بها الملك إلى ربه فيقول: يارب هذه روح
عبدك فيصلى الله عليه وملائكته ، ويقول : ارجعوا بعبدى فأروه
ماذا أعددت له من الكرامة فإنى عهدت إلى عبادى أنى أعيدهم فى
الأرض وأخرجهم منها ، فيردوا روحه إليه فى قبره فحينئذ يسأل
وإنه ليسمع قرع نعالهم حين ينصرفون ويأتيه عمله فى صورة حسنة
وريح طيبة ويبشره بالجنة وفيها نعيم مقيم وقد كنت سريعاً فى الطاعة
بطيئا عن المعصية ، فيقول : من أنت بشرك الله بخير فيقول :
أنا عملك الحسن ، وإذا رأى منزله قال : يارب متى تقوم الساعة
كى أرجع إلى أهلى ومالى، فيوسع له فى قبره فيرقد . وروى أنس أنه
إذا انصرف الناس عن القبر جاءه ملكان للسؤال وأنه يفسح للمؤمن فى
قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون ، وروى أبو هريرة
إنه إذا جاء بهما المؤمن بالله ورسوله قالا : قد كنا نعلم أنك تقول
هذا وينور له قبره ويقال له نم ، فيقول :أرجع إلى أهلى فأخبرهم
فيقال له نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب الناس إليه ،
وروى أنهما إذا قالا له : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ قال : هو

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيقولان ما يدريك ؟ قال : قرأت كتاب الله وصدقت به فينادى أفرشوا له فى الجنة فيفسح فى قبر مد بصره . وروى عثمان بن عفان أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا أفرغ من دفن الميت وقف عليه . وقال استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبت فإنه الآن يسأل ، ولما احتضر عمرو بن العاص بكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار وقال : إن أفضل ما يعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – وإذا مت فلا تصحبنى نادبة ولا نائحة وإذا دفنتمونى فشنوا على التراب شناً ، ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزورنا ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى. وذكروا أن سبب التثبيت فى القبر كثرة المواظبة على الشهادة والحق وحبهما فينبغى الإكثار من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله فى قيامه وقعوده ويقظته ونومه وحركته وسكونه ، وروى أنه إذا جاء بهما المؤمن، قالا على هذا حييت وعليه مت وعليه تبعث فانظر على يسارك فيفتح له باب إلى النار، فيقال له هذا منزلك لو عصيت الله ، فأما إذا أطعته فانظر عن يمينك فيفتح له باب إلى الجنة فيدخل عليه برد منزله ولذته فيريد أن ينهض إليه، فيقال له لم يأت أوان ذلك نم سعيدا نومة العروس وما شىء أحب إليه من قيام الساعة حتى يصير إلى أهل ومال وإلى جنة النعيم ، وقيل إنما ينتهران الكافر

والمنافق ،﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ المشركين والمنافقين والظلم يشمل ظلم النفس وظلم غيرها ومعنى اضلالهم هنا عدم تثبيتهم بالقول الثابت فى الدنيا وفى الآخرة . روى أنهم يسألهم الملكان باقعاد وانتهار : مادينكم وما تقولون فى هذا الرجل ؟ فيقولون : لا ندرى ، وروى أنه يقال للمشرك والمنافق ما كنت تعبد ؟ فيقول : لا أدرى . فيقال : لا دريت ولا تليت . فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : كنت أقول ما يقول الناس فيه . فيقال : لا دريت ولا تليت ، فيضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه ضربة يسمعها من يليه غير الثقلين . وفى رواية يسمعها الخلق غير الثقلين ويشعل عليه قبره ناراً من منزله فى النار . وفى رواية سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثله لا أدرى فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فتؤمر الأرض بالالتئام عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعث وفى رواية يقال له : من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، ويقول له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى ، ويقال : ماهذا الرجل المبعوث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى . فينادى مناد من السماء كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويقيض به ملك أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبلا من حديد لصار تراباً

فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابًا ثم يعاد وتعاد فيه الروح وفى رواية يضرب به ضربة فيصيح صيحة يسمعها من بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابًا ويعود ويضرب بين عينيه فيصيح صيحة يسمعها غير الثقلين فينادى مناد افرشوا له لوحين من نار فيفرشان، وروى البراء بن عازب عنه - صلى الله عليه وسلم - أن روح الكافر تنزع كنزع العود الكثير الشعب من الصوف المبتل،وإن ذا خرجت لعنها كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماوات وغلقت أبواب السماء وكره كل باب أن تدخل منه فيقول الملك : يارب هذا عبدك فلان لا تقبله أرض ولا سماء فيلعنه جل جلاله وتلعنه الملائكة فيقول : اردده إلى الأرض فإنى عهدت أن أرد عبادى إليها وأبعثهم وأروه ماأعددت له من الهوان فيسأله الملكان إذا وصلت روحه قبره ويأتيه عمله فى صورة قبيحة وريح منتنة فيقول له : أبشر بعذاب مقيم فيقول : من أنت بشرك الله بشر . فيقول : أنا عملك فيفتح له باب إلى الجنة عن يمين قبره . فيقال له : هذا منزلك لو أطعت الله،فيفتح له باب إلى النار عن يساره فيقال له : هذا منزلك إذا عصيته ويدخل عليه من حرها ونتنها وما شىء أبغض إليه من قيام الساعة ، وروى أنه إذا احتضر أتته الملائكة بسراويل من قطران ومقطعات من نار فيجلسون حيث يراهم

وسبب عدم جواب الكافر بالحق أنه لا تثبت قدمه فى حياته على كلمة الشهادة ومقتضاها بل تزل بأدنى وسوسة وعارض ، قال بعض العلماء إن سؤال القبر مختص بهذه الأُمة وعليه الترمذى وابن عبد البر وقيل تسأَل كل أُمة عن توحيد الله ودين الإِسلام ونبيها كهذه الأُمة وقيل بالوقف عن غير هذه الأُمة ولا يسأَل الأَنبياء والصديقون والمخلصون ظاهراً وباطناً والمرابطون وهم الملازمون ثغراً من ثغور الإِسلام للحفظ والصيانة لا لأَهل أو كسب وإلا كانوا حامين لا مرابطين ولا الشهداء ولا من لازم قراءة تبارك الذى بيده الملك كل ليلة قبل النوم وبعده من حين البلوغ ، قال بعض مع سورة السجدة فيما ذكر ولا من قرأ قل هو الله أحد فى مرض موته ،ولا مريض البطن وميت ليلة الجمعة أو يومها وميت بالطاعون وبزمنه صابراً محتسباً والمجنون والأَبْله وهو من له عقل لا يصل به إلى حد التدبير ولا أهل الفترة على الصحيح . وبه قال النسفى والنووى وابن الصلاح والزركشى وقيل الضحاك والقرطبى والبزار والفاكهانى وابن يونس يسأَل الطفل ويكمل عقله ويلهم الجواب وعليه فيلقن الجواب كالبالغ ، وقد روى أنه – صلى الله عليه وسلم لقن ابنه إبراهيم وأمر بتلقين الموتى ، الجواب بعد الدفن وقيل قبله وعليه الضحاك واستحسنوا التلقين ثلاثاً ، والوقف فى سؤال طفل المشرك ،وحكى عن أبى حنيفة وقيل يسأَل الطفل ولا تسأَل الجن كالإِنس

ولا تسأَل الملائكة ،وأحوال المسئولين مختلفة فمنهم من يسأَله الملكان جميعاً تغليظاً عليه ومنهم من يسأَله أحدهما فقط تخفيفاً ومنهم من يسأَل عن بعض اعتقاداته ومنهم من يسأَل عنها كلها واشتهر أنه لا يسأَل عن جملة التوحيد ، وقال القرطبى وإذ ماتت جماعة بأَقاليم مختلفة جاز أن يعظم الله سبحانه جثتهما ويخاطبان كلا ويخاطبان أيضاً الجماعة فى الجهة الواحدة خطاباً واحداً يخيل لكل منهم أنه المقصود به ،ويمنعه الله من سماع جواب بقية الموتى كما يسأَل بحضرة الأَحياء فلا يسمعون إلا من شاء الله ، وقيل إن ملائكة السؤال كثيرة فريق منهم يسمى كل واحد منه منكرا وفريق يسمى كل واحد منه نكيراً فيبعث إلى الميت اثنان منهم وعليه الحلمى والسيوطى ، وقال ابن يونس إن اللذين يأْتيان المؤمن البشير والمبشر بكسر الشين ، وروى أن ملائكة السؤال أربعة منكر ونكير وناكور ورمان وهى ضعيفة وكاف منكر مفتوحة .وقيل إن الذى يسأَل الميت هئات الشىء فمثل له وهو ضعيف وأنكر بعضهم السؤال فى القبر وهو خطأ ويسأَل الغريق والحريق ونحوهما ممن لم يقبر وأكيل السبع ويسأَلانه وهما معه داخل بطن السبع كما يسأَلانه فى القبر وهما فيه ومن تمزق رد الله الروح فى أعضائه ويسأَل كأَنه مجتمع وقال بعض نظماً :

ويخلق الله الحياة فى الذى تفرقت أجزاؤه أوبعض ذى
ثم يوجه السؤال دون مين نص على ذاك إمام الحرمين
وقد حكى فى شرحه الجزولى فى ذاك خلفاً عن ذوى المنقول
فقيل إن كل جزء يجمع وقيل يحيي منه جزء يسمع
أو جزء قلب أو دماغ حلا وقيل بل فى كل عضو حلا
روح له حينئذ على حدة فهذه مذاهب معـــددة
من تـأْكل السباع والأَطيار يسأْل حين يحصل القرار
فى جوفها من غير ما مجاز والنص فى ذاك عن البزاز
ومن بتابوت وشبه جعلا مدة أيام لكيم ينقـــلا
فذاك لا يسأَل ما لم يدفن كذاك أرويه بنص بين
ويسأَل الغريق فى البحار حين مغيبه عن الأَبصـــار

وقال ابن عبد البر إن الكافر الصريح لا يسأَل ورجح ، وقال القرطبى وابن القيم : يسأَل والمشهور أى السؤال مرة ، وقال أحمد ابن حنبل والزهرى وطاووس وأبو نعيم سبعة أيام ولذلك كان الصحابة يستحبون الطعام عنه فى سبعة الأَيام معونة له ، وكذا قال مجاهد ، قال : تمكث الروح فى القبر سبعة أيام ، وعن ابن جريج يسأَل المؤمن سبعة أيام والمنا ق أربعين يوماً والصحيح أنه يسأَل كل أحد بلغته وقيل بالسريانية ونظمه بعض :

ومن غريب ما ترى العينان أن سؤال القبر بالسريان
أفتى بهذا شيخنا البلقينى ولا يرى لغيره بعين

وأما كلام أهل الجنة فبالعربية وهو الصحيح وكلام أهل النار بالعربى أيضاً فيما قالوا ، وقال التلاتى رحمه الله :

كلام أهل النار والجنان بالعربى الواضح الإتقان
وقيل أهل النار بالتركى كلامهم وليس بالمرضى

وإنما الحجة ثبتت فى كلام أهل الجنة فقط لقوله ـ صلى الله عليه وسلم أحب العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، وكلام أهل الجنة عربى ، ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ من توفيق وتثبيت وخذلان وترك تثبيت وغير ذلك .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يامحمد وكل من يصلح للرواية ، ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا ﴾ أى بدلوا نعمة الله فحذف المضاف أى سيروا شكرها كفرا أى جعلوا الكفر فى موضع الشكر فكفرا مفعول ثان لبدل لتضمنه معنى الجعل أو على تقدير حرف الجر بكفر وهم فى نعمة الله بلا شكر حتى هلكوا ويجوز أن لا يقدر مضاف والمعنى بدلوا نفس النعمة كفراً أى كفروها فسلبت عنهم فاختيارهم للكفر السالب لها تبديل لها به وهم أهل مكة خلقهم الله وأسكنهم حرمه وجعلهم قوام بيته ووسع عليهم

أبواب رزقه وشرفهم بمحمد – صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وأسروا وقتلوا يوم بدر وصاروا أذلاء مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر، وذلك قول ابن عباس وفى رواية عنه هم كفار قريش ونعمة الله محمد – صلى الله عليه وسلم – وعن عمر وعلى هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية فأما بنو المغيرة فكفيتموه يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين ، وروى الحسن وبعض الكوفيين أن علياً كان يخطب على منبر الكوفة فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين من هؤلاء القوم الذين قال الله سبحانه فيهم « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً » قال : هم الأفجران الأخبثان كفيناهما يوم بدر بنو أمية وبنو المغيرة . ا . هـ ، وقيل هم من تنصر من العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه ، ﴿ وَأَحَلُّوا ﴾ أنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ الذين اتبعوهم فى الكفر ﴿ دَارَ البَوَارِ ﴾ أى الهلاك بحملهم على الكفر دار مفعول ثان لأحل أو ظرف مكان وهو مبهم من حيث أن المراد بدار البوار مقام الهلاك وليس بمحدود لأن مقامات الكفرة فى جهنم لا تحد فاعتبر ذلك ، ولو كانت جهنم فى نفسها محدودة فلا يكون عطف قوله ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ بعطف بيان على دار البوار تعيننا لكونها محدودة مع أن جهنم لا يلزم كونها عطف بيان بل يجوز أيضاً كونه منصوباً على الاشتغال بمحذوف يفسره قوله ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أى يدخلونها ويقاسون حرها وعلى عطف

البيان تكون هذه الجملة حالا من جهنم أو من القوم وعلى وجه الاشتغال يصح أن يراد بدار البوار جهنم كما فى وجه العطف ويجوز أن يراد مطلق مقام الهلاك بلا حد فيشتمل قتل بدر وجهنم وكل سوء وأن يراد مطلق السوء فى الدين من سائر الكفر والمعاصى ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ بئس موضع الاستقرار جهنم . قال عطاء بن يسار : نزلت الآية فى قتلى بدر وأن دار البوار مصارعهم وعليه فالدار محدودة وكذا إذا جعلناها جهنم ولم نعتبر مواضع تقلبهم فيها غير المحدودة وحينئذ تمنع الظرفية .

﴿ وَجَعَلُوا لله أَنْدَاداً ﴾ شركاء وهى الأَصنام سميت أندادًا لأَنها أمثال لله فى زعمهم والند المثل ﴿ لِّيُضِلُّوا ﴾ غيرهم ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ دين الله، وقرأ ابن كثير وأبو عمر وليضلوا هنا وليضل فى الحج ولقمان والزمر بفتح الياء أى ليكونوا ضالين فى أنفسهم وكذا قراءة يس عن يعقوب بفتح الياء هنا واللام للصيرورة فى كلتا القراءتين لأَن الإِضلال أو الضلال ليس علة لجعل الأَنداد لكن لما كانت نتيجة جعل الأَنداد إضلالا أو ضلالا جعل الإِضلال أو الضلال علة لجعل الأَنداد بإدخال اللام على سبيل المجاز، وقيل إن اللام فى قراءة الضم للتعليل حقيقة وفى قراءة الفتح للصيرورة ،﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ انتفعوا فى الدنيا أياماً قليلة بشهواتكم أو بعبادة الأَوثان فإن عبادتها ليست ديانة مفروضة عليهم بل شهوة تمتعوا بها والأَمر بالتمتع تهديد

وهو مشعر بأن ما هددهم عليه وهو التمتع بما لا يحل كالمطلوب لإفضائه لى ما هددهم به وهو المصير إلى النار المذكور فى قوله ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ ﴾ أى صيرورتكم فهو مصدر ميمى ﴿ إِلَى النَّارِ ﴾ والفاء للتعليل إذ المعنى لا مبالاة بتمتعكم لأن مصيركم إلى النار أو رابطة لجواب شرط مقدر أى إن أصررتم على التمتع بما لا يحل فإن مصيركم إلى النار لو للاستئناف فيكون المراد بالكلام مجرد الخذلان والتخلية والتهديد فى ذلك كله مستفاد .

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ﴾ وأسكن الباء حمزة والكسائى وابن عامر قيل العباد عرف فى التكرمة دون العبيد ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خص المؤمنين بالذكر لأنهم المقيمون بحق الله وحقوق العباد وأضافهم لنفسه رفعاً لشأنهم وتشريفاً ويقيموا مجزوم فى جواب الأمر الذى هو قل محذوف وها هنا وكذا ينفقون بواسطة العطف وهما دليلان على المحذوفين والمحذوفان مفعولان لقل بواسطة العطف فى المحذوف الثانى أى قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة ، ﴿ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ وفى الجزم فى جواب قل إيذان بأن إقامتهم وإنفاقهم مترتب بسرعة على مجرد قوله لهم أقيموا وأنفقوا لفرط مطاوعتهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجازم ما جزم فى جواب الطلب أداة شرط مقدرة بعد الطلب عند الجمهور أى قل لهم أقيموا

الصلاة وأنفقوا إن قلت لهم ذلك يقيموا الصلاة وينفقوا واعترض عليهم ابن مالك فى الآية بأنه يستلزم أن لا يتخلف أحد من المقول له ذلك عن الامتثال ولكن التخلف واقع قلت هذا مبنى على أن المراد بالذين آمنوا مطلق الموحدين وليس متعيناً لجواز أن يراد بهم الموحدون الذين يوفون بما أُمروا وقد أجاب ابنه بأن المراد المخلصون وكل مخلص، قال له الرسول : أقم الصلاة وأنفق ، أقام وأنفق وهو قريب بما ذكرت ويدل لذا كما ذكرنا من أنه أضافهم لنفسه رفعاً وتشريفاً ولا رفع ولا تشريف لمن لم يخلص ومن أنه خصهم بالذكر لأنهم المقيمون وما ذكروا أن الشىء إذا أطلق انصرف لفرده الأكمل بحسب المتبادر ويستفاد خطاب غيره من دليل آخر لهذا المقام وأجاب ابنه أيضاً باحتمال أن الحكم على المجموع لا على كل فرد فرد،وباحتمال أن الأصل يقيم أكثرهم وينفق أكثرهم فحذف المضاف وناب عنه المضاف إليه فارتفع واتصل بالفعل،وأجيب أيضاً بأن الاستلزام الذى ذكره ابن مالك مبنى على أن التلازم بين الشرط والجزاء عقلى،وهو ممنوع بل يكفى مجرد توقف الجزاء عليه وإن توقف على شىء آخر كالتوفيق هنا،وكما يقال إن توضأت صحت صلاتك،بل للشرط مدخلية فى الجزاء بالعلية فقط ولا يلزم أن يكون علة تامة للجزاء،قاله ابن الحاجب والسعد واعترضه السيد بأن الموجود فى الكتب المعتبرة فى الأُصول أن الكلمة إن غلبت

فى السببية تدل على ترتب الثانى على الأول ووقوعه إثره قطعاً كما يتبادر أن الضرب الثانى مترتب على الأول فى قولك إن ضربتنى ضربتك وأما قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ففيه إشارة إلى أن الذى ينبغى لكل من آمن أن يبادر بالإقامة والإنفاق إثر قوله – صلى الله عليه وسلم – وكذا إن توضأت صحت صلاتك،مشعر بالمبالغة فى اعتبار الوضوء فى صحة الصلاة حتى كأنه المحصل وحده لها ، وقال الخليل وسيبويه : إن الجازم أداة الطلب كالآمن هنا لتضمن معنى أن الشرطية كما أن أسماء الشرط جزمت لذلك وحيث جزم الاسم لتضمنه معنى الحرف وفعلين،لم يبعد أن يجزم الفعل لتضمنه معنى حرف فعلا واحداً واعترض بأن التضمين تغير معنى الأصل وهو خلاف على الأصل ، والحذف اللازم مذهب الجمهور ولو كان أيضاً خلاف لكنه سالم من تغير معنى الأصل،وأجيب بأن التغيير للأصل إنما هو فى التضمين الذى هو إشراب الكلمة معنى كلمة أخرى هذا وليس مراداً هنا بل المراد أن العرب لا يستعملون فعل الطلب وبعده مضارع مجزوم إلا فى مقام يكون القصد ترتب مضمون المضارع على مضمون فعل الطلب أعنى المطلوب كالقول واعترض أيضاً بأن تضمين الفعل معنى الحرف غير واقع أو غير كثير،وأجيب بكثرته كنعم وبئس وصيغ التعجب فإنها مضمنة معنى الحرف الذى حقه أن

يوجد لأن كل معنى كالمدح والذم والمقاربة والتعجب حقه أن يؤدى بالحرف،رده الشمنى بأن المراد بالحرف الموجود وهو ضعيف،قلت : لا يخفى أن هذه الأفعال تدل على الزمان والفاعل وكذا ليس ولو تضمنت معنى حرف النفى والحرف لا يدل على ذلك ، وأيضاً التضمين هنا ليس بمعنى إشراب الكلمة معنى أخرى ، وقال السيرافى والفارسى : الجازم أداة الطلب لنيابتها مناب إن الشرطية واعترضه ابن مالك بما اعترض به قول الجمهور ويعترض أيضاً بأن نائب الشيء يؤدى معناه والطلب لا يؤدى معنى الشرط ويضعف الجواب بأن الكلام فى النيابة فى العمل،لأن الأصل فى النيابة فيه النيابة فى المعنى معه ، وقال ابن مالك : الجازم لام الأمر محذوفة أى ليقيموا الصلاة وهو قول الكسائى لكن اشترط الحذف لام الأمر تقدم قل أو قُولوا أو نحوهما،لأن ابن مالك أجاز حذفها بعد القول الخبرى أيضاً على قلة فى السعة،ووجه قولهما أن الأمر الذى هو قل أو نحوه من لفظ القول الطلبى عوض عنها فلا يحسن فى غير ذلك،وعلى قولهما يكون ليقيموا مفعول القول ولا يقدر له بشيء ويكون فيهِ التفات سكاكى لأن مقتضى الظاهر قل أقيموا وأنفقوا فعدل عن الخطاب للغيبة،وقال المبرد: الجزم فى جواب مفعول القول المقدر، أى قل لهم أقيموا وأنفقوا يقيموا وينفقوا فالجزم فى جواب أقيموا وأنفقوا لا فى جواب قل، قال ابن هشام : ويرده

أن الجواب لابد أن يخالف المجاب فى الفعل والفاعل نحو آتنِى أكرمك أو فى الفعل نحو أسلم تدخل الجنة أو فى الفاعل نحو قم أقم ولا يجوز أن يتوافقا فيهما وبأَن الأَمر للمواجهة ويقيموا للغيبة يعنى وأمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة إذا كان الفاعل واحداً كما قال البيضاوى وأبو حيان ، وقيل يقيموا مبنى لحلولهِ محل أقيموا . ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾تقدم الكلام عليهما لفظاً ومعنى وعلى المراد بالصلاة وإقامتها فى سورة الرعد﴿ مِّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ يَوْمٌ ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ ﴾فضلا عن أن يبتاع فيه المقصر فى الإنفاق فى الدنيا ما ينفق فيه أو يفدى به نفسه ولزم من نفى البيع نفى الشراء أو أراد بالبيع المبايعة الشاملة لهما ،كما قال مقاتل لا بيع فيه ولا شراء ، وعن أبى عبيدة البيع هنا الفداء﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ مصدر خاله بتشديد اللام وخال له بالفك أى اتخذه خليلا وصافاه وتودد معه والمعنى ليست فى ذلك اليوم مخالة فضلا عن أن يشفع خليل لخليله ويجوز أن يكون المعنى من قبل أن يأْتى يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ومخالة واقعتين فى الدنيا بل بإنفاق واقع فيها لوجه الله سبحانه وتعالى، فليأْخذ الإنسان حظه فى الدنيا ابتغاء وجه الله من الإنفاق ،قبل وقت لا يمكنه ذلك وإن قلت قد أثبتت الخلة للمتقين فى قوله جل جلاله الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، قلت : ثبتت من حيث المحققة فى الله سبحانه لا من حيث

انتفاع المقصر فى الدنيا باجتهاد خليله فيها،ونفيت فى هذه الآية من هذه الحيثية الآخرة ومن حيث ميل الطبع فإنه لا محبة يومئذ بميل الطبع والنفس بل بالتقوى،ويجوز أن يكون المعنى أن الخليل يشتغل عن خليله فى بعض مواطن يوم القيامة ولو كانت خلتهما فى الله ويتعاطفان فى بعض إذا كانت فى الله ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب لا بيع فيه ولا خلال بفتحهما نفياً للجنس بالنص .

﴿ اللهُ ﴾مبتدأ ﴿ الَّذِي ﴾خبر . ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ بيان لقوله﴿ رِزْقًا ﴾ ولو كان مقدماً عنه لأنه فى نية التأخر عنه ،فإنه متعلق بمحذوف حال من رزقاً ورزقاً مفعول أخرج بمعنى ما ينتفع به مطعوماً وملبوساً ويجوز أن يكون من الثمرات متعلقاً بمحذوف نعت لمفعول أخرج أو رزقاً حالا من ذلك المفعول ،أى أخرج به شيئاً ثابتاً من الثمرات حال كونه رزقاً ويقدر الحذف كذلك لكن يجعل رزقاً حال من الثمرات ويجوز أن يقدر الحذف كذلك لكن يجعل له رزقاً فى معنى مصدر وهو الرزق فيفتح الراء فيكون مفعولا لأجله أو مفعولا مطلقاً لأخرج كقولك قعدت جلوساً لأن إخراج الثمرات رزق بفتح الراء ،﴿ لَّكُمْ ﴾ نعت لرزقاً على أنه بمعنى ما ينتفع به أو مفعول به على أنه بمعنى المصدر وعليه فاللام تقوية

أو هو متعلق بأخرج وذكر الله ذلك وما يأتى تنبيهاً على قدرته وإحسانه فيؤمن به ويطاع وخص ذكر السماوات والأرض فى الخلق لعظمهما والعرش ولو كان أعظم وكذا الكرسى لكن إنما نشاهد الأرض وسماءها ونشاهد سائر السماوات بالقياس على هذه وبرؤية الشمس ونحوها مما يجرى فيهن وهذه الآية إلى الكفار للسلامة من الآفات فى البر والبحر والمال والولد والزرع والدواب وكل ما يتقلب فيه الإنسان ،والسلامة من آفات الليل والنهار ،من أدمن على قراءتها فى كل يوم صباحاً ومساء وعند النوم وعند دخوله إلى أهله وجيرانه وتقلبه لماله وزرعه كفى كل ما يخافه من ذلك ويرى البركة والسعادة ،﴿ وَسَخَّرَ ﴾ سهل وذلك ، ﴿ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾السفن ،﴿ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ ﴾ حاملة لكم ولأموالكم ، ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾بمشيئته إلى حيث شئتم تَجلب ثماراً وغيرها من بلد إلى آخر . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾بأن فجرها لكم وجعلها بحال تنتفعون بها وتجرونها حيث أردتم، وقيل تسخير الفلك تعليم كيفية بحارتها وتركيبها على وجه يسهل به مشيها وتسخير الأنهار تعليم كيفية إجرائها والحفر عليها إن لم تظهر .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دآئِبَيْنِ ﴾جادين فى سيرهما وإنارتهما وإصلاح النبات والحيوان وغير ذلك من المنافع إلى يوم القيامة والشمس

سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة ، والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور من دأب فى السير أوغيره بمعنى دام عليه أو من دأب بمعنى اعتاد ، والدأب العادة أو من دأب بمعنى تعب ،شبههما بما يوصف بالتعب المكثرة دورا بهما ، وقيل الأصل دائمين قلبت الميم باء، وعن ابن عباس دائمين فى طاعة الله وليس مغايراً لما تقدم لأن انقيادهما فى السير طاعة لله تعالى ،﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ ﴾ متعاقبين الليل للنوم والراحة والسكون ، والنهار للكسب ومتوالحين بالزيادة من أحدهما فى الآخر .

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أى شيئا ثابتاً من كل ما طلبتموه منى فإن الموجود من كل صنف بعض ما فى قدرة الله،ويجوز أن يكون المراد به سألتموه ما من شأنه أن تطلبوه ولو لم تطلبوه وهذا عندى أولى لأنه تعالى بدأ بالنعم قبل أن يسأل ، وقيل هناك حذف أى من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، ومااسم موصول أو نكرة موصوفة وهكذا فى غالب المواضع ولو اقتصرت فيها على ذكر الموصولة ، وإما أن تكون هنا مصدرية،والمصدر بمعنى اسم مفعول فلا حاجة إن جعل ما اسماً موصولا أو نكرة موصوفة يغنى عنه مع سلامة من تأويل المصدر باسم مفعول،وقرأ ابن عباس وغيره من كل بالتنوين وهو رواية عن نافع غير مشهورة،وعليه فما اسم موصول أو نكرة موصوفة مفعول

لأتى أو حرف نفى والجملة حال من كاف آتاكم أى آتاكم شيئاً من كل صنف وأنتم لم تسألوه أى غير سائليه أو نعت لكل أو المضاف إليه المقدر أو للمفعول المقدر ، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا ﴾ أى وإن أردتم حصرها والاطلاع على عددها ﴿ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ بمعنى الإنعام على المعنى المصدرى والإشكال أو بمعنى الشىء المنعم به فهو بمعنى الجمع ، فإنه قيل كأنه وإن تعدوا نعم الله فالإضافة للاستغراق ﴿ لَاتُحْصُوهَا ﴾ لا تبلغوا لها آخر أو لا عدد فى الأنواع فضلا عن الأفراد فإن نعمه تعالى لا تتناهى ، قال طلق بن حبيب : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين ، وفى كتاب أظنه لابن عطاء الله أو لعبد الحق فى الوعظ والأدب والنصح مسجعاً ما نصه أيها الحريص على نيل عاجل حظه ومراده ، الغافل عن الاستعداد لميعاده تنبه لعظمته من جودك وبقائك بإرفاده ودوامك بإمداده أنت طفل فى حجر لطفه ومهد عطفه وحضانة حفظه ، يغذيك بلبن بره ويقلبك بأيدى أياديه وفضله وأنت غافل عن تعظيم أمره جاهل بما أولاك من لطف سره وفضلك به على كثير من خلقه ، اذكر عهد الإيجاد ودوام الإمداد والإرفاد وحالتى الإصدار والإيراد وفاتحة المبدأ أو خاتمة المعاد ، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ ﴾ ال للجنس أى كل إنسان

ولو بلغ ما بلغ فى العبادة ،﴿ لَظَلُومٌ ﴾شديد الظلم للنعمة بإغفال شكرها لقوتها وكثرتها أو شديد الظلم لنفسهِ بتعرضه للحرمان وذلك على عمومه إذ لا يقوم أحد بحق الله ولا شيء يعتمد عليه السعداء المجتهدون سوى فضل الله ومسامحته أنبياءه أو غيرهم﴿ كَفَّارٌ ﴾ شديد الكفران بالنعمة أى بعيد عن شكرها على التمام ولا يطلق فى حق المتولى أنه ظلوم كفار إلا بهذا البيان وذكره وقيل ال فى الإنسان للجنس الصادق بأصحاب الكبائر فقط وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع ،كفار فى النعمة ويجمع وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر فى غير موضعه والكفار الجحود لنعم الله . وعن ابن عباس المراد أبو جهل وعلى الوجه الأول الذى به والمراد الإنسان مطلقاً . قال ابن زيد هذه منسوخة بقوله إن الله لغفور رحيم بعد قوله وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها فى سورة أخرى ووجهه أن وصفه بكونه ظلوماً كفاراً يقتضى عذابه فنسخ بذلك هذا ما ظهر لى فى التوجيه والحق أن الإنسان موصوف بذلك فى السورتين لمجرد بيان حاله وبيان أنه لا يقوم قائم بحق الله تعالى على التمام وذكر الغفران والرحمة تبشيراً وإخراجاً عن القنوط يفيد التوبة فى سائر الآية ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ﴾بلد مكة ، ﴿آمِناً ﴾ ذا أمن لمن فيه فاعل للنسب أو يقدر مضاف

أى آمناً ساكنه والمراد هنا طلب إخراج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأَمن وفى قوله اجعل هذا بلداً آمنا طلب اجعله من البلاد التى يأْمن أهلها ،﴿ واجْنُبْنِى ﴾ أبعدنى واجعلنى على جانب من عبادة الأَصنام كما ذكره بعد،وجنبه الشىء منعه إياه وبقطع الهمزة مفتوحة وكسر النون الأُولى من اجنبه بمعنى جنبه بالتخفيف وهما لغة نجد وجنبه بالتشديد لغة الحجاز ولم يقر بها هنا . ﴿ وَبَنِىَّ ﴾ أولادى من صلبى فلا يرد أن من نسله من عبد الأَصنام وإن أراد أولاد صلبه ونسله قلنا لم يجب له فى نسله ،وليس كل دعاء نبى يجاب كما قيل ويحتمل أن يريد أولاده ونسله الموجودين حالة الدعاء أو فى حياته فإنهم لم يعبدوا صنما قط ويحتمل أن يريد وبنى الذى أذنت لى فى الدعاء لهم ويحتمل أن يريد وبنى المؤمنين وأما غير المؤمنين فكأنه ليس ابنا له كما هو مفهوم مخالفة من قوله فمن تبعنى فإنه منى ،وزعم سفيان بن عيينه أنه لم يعبد صنما أحد من نسله محتجاً بهذا الدعاء ، قال وإنما كانت لهم حجارة يدورون أشواط بها كما يدورون بالكعبة يسمون تلك الحجارة الدوار بضم الدال وفتحها ويقولون البيت حجر فحيث ما يصيبنا حجر فهو بمنزلة البيت ويستحب أن يقال

طاف بالبيت ولا يقال دار به لتلك التسمية ،وقد قيل صنم هنا الدينار والدراهم وعبادته الحرص عليه وجمعه من الحلال والحرام أو منع حقوقه ، ﴿ أن نَّعْبُدَ ٱلأَصْنَامَ﴾ أى من أن نعبد الأصنام وقد أجاب الله دعاءه فى جعل البلد آمناً فجعله لا يسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يقطع شجره ونباته وأُبيح الإذخر ، وذكر بعض أن الوحوش إذا كانت خارج الحرم توحشت وإذا دخلت الحرم آمنت ،ولايرد على ذلك أن جماعة من الجبابرة أغاروا عليها وأخافوا أهلها لأَن ذلك نادر ولأَن الفرد آمن إذا دخلها ولو خاف خارج الحرم وترى الناس متخطفة من حولهم،ويحترم من فيه ولا يقصد بسوء وهذا كاف فى الأَمن وقيل المراد اجعل هذا البلد آمناً من الخراب وهو تفسير ضعيف ولا يرد عليه أنه ستهدم الحبشة البيت وتنقل حجارته إلى البحر لأَنه لم يرد منعه من الخراب أبداً بل قرب قيام الساعة أو ذلك عام مخصوص بهدم الحبشة وأجاب دعاءه فى ألا يعبد صنماً وفى بنيه من صلبه ومر البحث فى غيرهم أو دعاءه أن يجنبه الله سبحانه عبادة الأَصنام دليل على أن عصمة الأَنبياء بتوفيق وحفظ من الله الرحمن الرحيم ودعاؤه مع علمه بالعصمة طلب لزيادة

العصمة والتثبيت وهضم لنفسه وإظهار لعجزه وافتقاره إلى الله جل جلاله .

﴿ رَبِّ ﴾ عائد إلى قوله اجنبنى كأنه قيل يارب اجعل هذا البلد آمنا ويارب اجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام أو عائد إلى قوله﴿ إِنَّهُنَّ ﴾ أى الأصنام رد إليها ضمير جماعة الإناث نظراً إلى كونه جمع قلة لغير عاقل ولو كان المراد الكثرة ، ﴿ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾إسناد الإضلال إليهن من الإسناد إلى التسبب، أى لكونهن سبباً للإضلال سألت منك العصمة منهن والأنسب بهذا المعنى أن يعود قوله رب إلى اجنبنى فيكون قوله إنهن الخ ، تعليلا لقوله اجنبنى . قال الطبرى عن مجاهد : الصنم ما نحت على خلقة البشر والوثن ما نحت على غير خلقته . ا هـ ، والمشهور ترادفهما ، وقيل المراد هنا بالأصنام الدنانير والدراهم وعبادتها شدة الحرص عليها وجمعها من حلال وحرام أو منع الحقوق منها ﴿ فَمَن تَبِعَنِي ﴾على دين الإسلام﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى كبعض من جسدى لشدة شفقتى عليه وحبى له وتوجعى بما يوجعه وفرحى بما يفرحه كما هو حق الأخوة فى الله تعالى ، أو أراد أن حكمه حكمى فى أمر الدين وغيره وذلك أولى من قول بعضهم فإنه من أهل

دينى ،﴿ وَمَنْ عَصَانِى ﴾ لم يتبعنى على دين الإسلام﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قادر أن تغفر له وترحمه بأن توفقه للتوبة ودين الإسلام والطاعة هذا ما ظهر لى ثم رأيته للسدى ، وقال المحلى : أراد أنك قادر أن تغفر له وترحمه ولو لم يتب عن شركه ،وإن هذا قبل أن يعلم إبراهيم أن الله جل جلاله لا يغفر الشرك،وسبقه إلى ذلك ابن الأنبارى ويناسب ذلك استغفاره لأبيه غير أنه يحتمل أنه استغفر له على شريطة التوبة وفى ولاية الشريطة فى هذه الأمة بحث ، وأما من تقدم قبلها ففى شرائعهم خفاء عنا ، وقال مقاتل : من عصانى فيما دون الشرك ، وأجازه ابن الأنبارى والواضح أنه لا يغفر ما دون الشرك بلا توبة كما لا يغفر الشرك بدونها ولا يخفى ما فى قوله فإنك غفور رحيم من الأخذ بالقول الجميل والأدب ، قال قتادة : اسمعوا قول الخليل- صلى الله عليه وسلم.- والله ما كانوا طعانين ولا لعانين ، وكذلك قال نبى الله عيسى-عليه السلام-: وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

﴿ رَبَّنَا إِنِّى ﴾وسكن الباء غير نافع وابن كثير وأبى عمرو ،﴿ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أى أسكنت شيئا ثابتاً من ذريتى وهو إسماعيل أو ذرية ثابتة من ذريتى وهى اسماعيل ومن ولد منه فإن إسكان إسماعيل متضمن لإسكان من ولد منه والمفعول محذوف كما رأيت ومن قال باسمية

من التبعيضية وإضافتها لما بعدها جهلها المفعول، ﴿ بِوَادٍ ﴾ أى فى واد، ﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ وهو وادى مكة فإن أرضها حجرية قليلة النبت ولا شيء فيها من الزرع يومئذ ﴿ عِندَ ﴾ متعلق بمحذوف نعت ثان لواد أو حال منه أو هو بدل من مجموع الجر والمجرور لا من المجرور وحده ،ولذلك لم يخفض مع أن عند لا يجر بغير من ،فلو جعل بدلا من المجرور وحده وهو واد وجر لزم أنه مجرور بالياء . ﴿ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ أى الذى منع عنده ما لم يمنع عند غيره ومنع المحرم إليه نفسه من أشياء ومنع من أن يتعرض له أحد بسوء وأن يتهاون به وأن تستصغره الجبابرة ،أو منع من الطوفان فإنهُ لم يستول عليه ولذلك سمى عتيقاً أى عتيقاً أى أعتق من الطوفان والجبابرة ،وكل من التحريم المقابل للتحليل ومن التحريم بمعنى إثبات الحرمة بمعنى العظمة تصرف فى الاستعمال عن الأَصل الواحد وهو المنع ،ألا ترى أنما لم يكن جلالا ممنوع من فعله وإن المعظم المحترم من ممنوع من التهاون به ،وهذا الكلام من سيدنا إبراهيم –صلى الله عليه وسلم – بعد بناء الكعبة ، لقوله عند بيتك المحرم ،ويجوز أن يكون قبله باعتبار ما كان عليه قبل الطوفان فإنه كان مبنياً ولما جاء الطوفان رفع سالماً أو باعتبار ما يكون بعد من بناء إبراهيم له بأن علم بالوحى أنه سيبنيه وأنه سبق فى علم

الله أنه سيحدث فى موضعه .﴿ رَبَّنَا ﴾ كرر النداء كما تقول ياربى يارب اغفر لى، فهو تكرير للنداء قبله وإنما كرره وفصل به بين قوله أسكنت وقوله﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ بلام التعليل المتعلقة بأسكنت للإشعار بأن المقصود بالذات من إسكانهم هنالك إنما هو إقامة الصلاة عند بيت الله المحرم، كأنه قيل ما أسكنتهم بهذا الوادى الخالى من الزرع والضرع والإنس إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم، ويجوز أن يكون النداء غير مكرر بل داخل على محذوف ،أى ياربنا أسكنتهم ثم ليقيموا الصلاة والمراد من الدعاء توفيقهم لإقامة الصلاة ، وقيل اللام لام الأمر والمراد الدعاء لهم بإقامتها كأنه طلب منهم أن يقيموها ومن الله عز وجل أن يوفقهم إليها فالنداء أيضاً تكرار ومستأنف لما بعده، كأنه قال ربنا اجعلهم مقيمين الصلاة﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً ﴾ قلوباً . وقال ابن الأنبارى : الفؤاد غير القلب ولكن عبر به عن القلب لقربه منه ،قيل سمى فؤاد لأنه يفتئد ، أى يتقد عند الغضب أو الشدة والمفتاد المستوقد حيث يشوى اللحم ﴿ مِّنَ النَّاسِ ﴾من للتبعيض متعلقة بمحذوف نعت لأفئدة ويقدر مضاف أى أفئدة ثابتة من أفئدة الناس والمراد جعل أفئدة المؤمنين وهى بعض أفئدة الناس . قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير : لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم على

حج الكعبة فارس والروم والترك والهند والنصارى واليهود والمجوس والناس كلهم ويجوز أن تكون من للابتداء أى أفئدة ناشئة من الناس وتنكيرها لأَن المراد أَفئدة مخصوصة وهى أفئدة المؤمنين . وقرأ هشام فى رواية أبى الفتح أفيدة من الناس بياء بعد الهمزة وبه أخذ الحلوانى ونص عليه وقرأ هشام فى غير تلك الرواية كالجمهور وهى ياء إشباع وقرأ أفيدة بهمزة فألف ففاء مكسورة بدال بوزن ناصرة إما على أنه مقلوب أفيدة بأَن قدمت الهمزة على الفاء بعد نقل كسرتها إلى الفاء فقلبت الفاء أو قدمت متحركة فقلبت الفاء بعد حرف كسرتها فكسرت الفاء لئلا يلتقى ساكنان كما يقلب أدور بواو أو همزة جمع دار إلى أدر بهمزة فألف بدل من الواو أو الهمزة التى كانت بعد الدال بعد نقل ضمها إلى الدال ،وإما على أنه اسم فاعل أفيدة الرحلة إذا عجلت أى فاجعل جماعة أفئدة أى عاجلة إليهم بالرحلة من الناس والمراد جنس مخصوص من الجماعات وهو جماعات المؤمنين ،وقرأ فدة بحذف الهمزة بعد نقل حركتها للفاء قبلها للتخفيف ، والوجه إثباتها بين بين، ويجوز على هذه القراءة أن يكون من أفد بمعنى عجل على أنه صفة مشبهة أو صفة مبالغة فلا حذف ولا نقل ، ﴿تَهْوِى إِلَيْهِمْ﴾ تسرع أو تنحط وتنحدر وقرأ بالبناء للمفعول من أهوى فلان فلاناً

إلى كذا بمعنى أسرعه إليه أو حطه إليه والمراد تحن إليهم شوقاً ووداً دالا لذاتهم بل لحج البيت ولا مانع أن يكون دعا لهم أن يحبهم المؤمنون لذاتهم،وقرأ تهوى بفتح الواو وبمعنى تحب وعليه فإنما عدى مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى تميل . وقال ابن مالك : يجوز أن يكون الأصل تهوى بالكسر قلبت الكسرة فتحة والياء ألفاً فيكون معناه مامن فى قراءة الجمهور كما يقال فى رضى رضى ، وفى ناصية ناصاه . قال ابن هشام وفيه نظر لأن شرط هذه اللغة تحرك الياء فى الأصل ، وأجاب بعضهم بأن الياء متحركة بالضم وإنما سكنت استثقالا ، ورده الشمنى بأن الإعراب عارض،وشرط التحريك هنا الأصالة كما فى الخلاصة ، قلت: التحقيق أن الإعراب بالرفع لازم للمضارع أول وجوده مجرداً عن ناصب وجازم لا عارض ، وقال الفراء إن إلى زائدة فى المفعول به والأصل تهواهم أى تحبهم ﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ شيئا ثابتاً من الثمرات كما ترزق من سكن وادياً ذا زرع منبتاً . وقد أجاب الله دعاءهُ فعمر قرى بقرب مكة ذوات زرع ونبات يجلب منها ومن غيرها إلى مكة وتجى إليها ثمرات كل شيء حتى أنه لتوجد فيها الفواكه الصيفية والخريفية والشتوية بيوم واحد قيل فعل الله ذلك بنقل الطائف إليه من فلسطين ، ونسب هذا لابن عباس رضى الله

عنهما ، جمع لهم إبراهيم أمر الدنيا والآخرة فى دعائه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ النعم بتوحيدك وطاعتك وتعظيمك وإنما النعم مخلوقة لذلك .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي ﴾ أى مانخفى بعضنا عن بعض أو ما أضمرناه فى قلوبنا . ﴿ وَمَا نُعْلِنُ ﴾ مايظهر بعضنا لبعض أو ما ننطق به فأنت عالم بحوائجنا ومصالحنا وأرحم بنا منا وإنما ندعوك إظهارا للعبودية والعجز واستعجالا لنيل ما عندك وولها إلى رحمتك ، كما روى أن بعضاً رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه قضاءها ، فقال له تلويحاً بقضائها :مثلك لايذكر استقصاراً ولا توهما للغفلة عن حوائج السائلين ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته إلا أن يتكلم فيها،وقيل ما نخفى من الحزن لما وقع بينى وبين هاجر مع إسماعيل من الفرقة وما نعلن من الدعاء والبكاء ، قالت له هاجر عند الوداع إلى من تكلنا . قال : إلى الله أكلكم . قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا تخشى تركنا إلى كاف ، وذكروا عن ابن عباس أن إبراهيم جاء بهاجر وإسماعيل حتى وضعهما بمكة ثم رجع فنادته يا إبراهيم أسألك : فالتفت . فقالت : من أمرك أن تضعنى وابنى بأرض ليس فيها زرع ولا ضرع ولا أنيس . قال : ربى . قالت إذن لا يضيعنى ، ولما ولى دعا بذلك الدعاء كله ، قال فى عرائس القرآن : لما نجى الله تعالى خليله

إبراهيم من نار نمرود وآمن به من آمن خرج مع لوط وتزوج سارة بنت عمه ونزل بحران فمكث ما شاء الله ثم هاجر إلى مصر وكانت سارة أحسن النساء وكانت لا تعصى إبراهيم فى شىء وبذلك أكرمها الله تعالى فأتى رجل فرعون مصر وقال إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن النساء ووصف حسنها وجمالها ،فأرسل الجبار إلى إبراهيم رسولا ،فقال له ما هذه المرأة منك . قال : هى أختى ، قيل خاف أن يقتله إن قال هى امرأتى . فقال له : زينها وأرسلها معى حتى ينظر إليها الملك فمضى إليها إبراهيم فقال : إن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده ،فإنك أختى فى كتاب الله فإنه ليس فى هذه الأرض مسلم غيرى وغيرك ثم أقبلت سارة إلى الجبار ، وقام إبراهيم يصلى فلما دخلت عليه ورآها هوى بيده إليها ،فيبست إلى صدره فعظم أمره وقال اسئلى إلهك أن يطلق يدى فوالله لا أوذيك . فقالت : اللهم إن كان صادقاً فأطلق يده ، قيل فعل ذلك ثلاث مرات كلما أهوى بيده يبست فردها إلى إبراهيم فلما أحس بها انفلت من صلاته قال : ما الخبر . قالت : كفى الله كيد الفاجر ووهب لى هاجر ، وروى أنه رفع الحجاب بين إبراهيم وسارة ينظر إليها من وقت خروجها إلى رجوعها إليه كرامة لهاوتطييباً لقلبه وكانت هاجرذات هيئة فوهبتها سارة إبراهيم فقالت إنى أراها امرأة

وضيئة فخذها فلعل الله يرزقك منها ولداً وكانت سارة قد منعت الولادة حتى آيست فوقع إبراهيم على هاجر فولدت له إسماعيل . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً . قال ابن اسحاق : سألت الزهرى ما الرحم الذى ذكره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : كانت هاجر أم إسماعيل منهم ثم خرج من مصر ونزل السبع من فلسطين واحتفر بئراً واتخذ مسجداً وكان ماء العين ظاهراً على وجه الأرض وكانت غنمه تردها وأقام مدة،ثم أذاه أهل تلك الأرض فخرج حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وايلة ببلدة يقال لها بضا فنضب ماء العين لما خرج فندم أهل السبع على ما صنعوه به،وقالوا أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحاً فاتبعوه حتى أدركوه فسألوه أن يرجع إليهم ، فقال ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منها . فقالوا : إن الماء الذى كنت تشرب منه ونشرب معك قد نضب ، فأعطاهم سبع أعنز من غنمه وقال : اذهبوا بها معكم فإنكم إذا أوردتموها إلى ظهر الماء جرى حتى يكون على وجه الأرض كما كان ولا يقربه امرأة حائض ، ففعلوا فكانوا يشربون منه حتى غرفت منه حائض فنضب،وأقام إبراهيم يضيف من يأتيه وقد وسع الله الرحمن الرحيم عليه فى الرزق والخدم إلى أن

أمر الله جل جلاله الملائكة المرسلين إلى إهلاك قوم لوط أن يبشروه بإسحاق ومن ورائه يعقوب . قال السدى وابن بشار حملت سارة بإسحاق وقد حملت هاجر بإسماعيل فوضعتا معاً وشب الغلامان فبينما هما يتناضلان ذات يوم وقد كان إبراهيم يسابق بينهما فسبق إسماعيل فأخذه واجلسه فى حجره وأجلس إسحاق إلى جنبه وسارة تنظر إليه فغضبت وقالت : عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته فى حجرك وعمدت إلى بنى فأجلسته إلى جنبك وقد جعلت لى أن لا تغيرنى وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة،فحلفت لتقطعن منها قطعة ولتغيرن خلقتها ثم ثاب إليها عقلها فبقيت متحيرة فى ذلك ، فقال لها إبراهيم : اخفضيها أى اختنيها واثقبى أذنيها ، ففعلت فكان الخفاض وثقب الأُذنين سنة فى النساء ثم إن اسماعيل وإسحاق اقتتلا ذات يوم كما يفعل الصبيان فغضبت سارة على هاجر ، وقالت : لاتساكنينى فى بلد واحد وطلبت من إبراهيم أن يعزلها عنها فأوحى الله إلى إبراهيم أن يأْتى بهاجر وابنها إلى مكة فذهب بهما حتى قدم مكة وهى إذ ذاك عضاة وسلم وسمر وحواليها خارج مكة ناس يقال لهم العماليق وموضع البيت يومئذ ربوة حمرا ، فقال إبراهيم لجبريل : ها هنا أُمرت أن أضعها . قال : نعم . فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أن تتخذ عريشاً ،

ثم قال : ربنا إنى أسكنت من ذريتى .. الخ . ثم انصرف فاتبعته هاجر فقالت : إلى من تكلنى فجعل لا يرد عليها شيئاً ولا يلتفت ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا ، ثم انصرفت راجعة وكانت مع هاجر شنة فيها ماء فنفد الماء وانقطع لبنها فعطشت وعطش الصبى فنظرت أى الجبال أدنى إليها فإذا هو الصفا فصعدت عليه فتسمعت هل تسمع صوتاً أو ترى شخصاً فلم تسمع شيئاً ولم تر أحدا ثم سمعت أصوات السباع فى الوادى نحو إسماعيل فأقبلت مسرعة ثم سمعت صوتاً نحو المروة فسعت وما تريد السعى كالإنسان المجهود فهى أول من سعى بين الصفا والمروة ثم صعدت المروة فسمعت صوتاً فقالت كالإنسان الذى يكذب سمعه صه حتى استيقنت وجعلت تدعو أسمع أيل ومعنى أيل الله ، وقالت قد أسمعتنى كلامك فأغثنى فقد هلكت وهلك من معى ،فإذا هى بجبريل عليه السلام ، فقال لها : من أنت . فقالت : سرية إبراهيم عليه السلام ، تركنى وابنى ها هنا ، قال : إلى من وكلكما . قالت : إلى الله تعالى . قال : قد وكلكما إلى كف ثم جاء بها وقد نفد طعامها وشرابها حتى انتهى بها إلى موضع زمزم فضرب بقدمه الأرض فصارت عيناً فلذلك يقال لزمزم ركضة جبريل ، فلما نبع الماء أخذت هاجر شنة وجعلت تستقى فيها لتدخره ، فقال

جبريل عليه السلام : انها روى وجعلت حولها جسراً ، قال رسول الله
ـ صلى الله عليه وسلم ـ لولا أنها أعجلت لكانت زمزم عيناً معيناً ،
وقال لها جبريل : لا تخافى على هذه العين فإنها عين يشرب منها
ضيفان الله ، وقال لها : إن أبا هذا الغلام شيخى ويبنى لله بيتاً هذا
موضعه ومرت رفقة من جرهم يريدون الشام فرأوا الطير على الجبل ،
فقالوا : لا يكون الطير حائما إلا على الماء ، فأتوا فقالوا لهاجر : إن
شئت كنا عندك وآنسناك والماء ماؤك ، فأذنت لهم فنزلوا معها فهم أول
سكان مكة ولذلك كانت العرب تقول فى تلبيتها اللهم إن جرهم عبادك
والناس طرف وبهم قديماً عمرت بلادك فكانوا هنالك حتى شب
إسماعيل وماتت هاجر ودفنت فى الحجر وماتت بعدها سارة بالشام
ولها مائة وتسع وعشرون سنة فى جيرون من أرض كنعان ودفنت فى
مزرعة اشتراها إبراهيم عليه السلام من الكنعانيين .

تسميه قطور بنت يقطر وولدت له يفتان وزمران ومداين وشنق
وشرخ ومدين ثم تزوج امرأة تسمى عجوز بنت أهيب من جرهم
وولدت له كيسان وشورخ ولهيم ولوطان ويافس وجملة أولاده مع
اسماعيل وإسحاق ثلاثة عشر ذكراً أكبرهم إسماعيل وأنزله بمكة
وأنزل اسحاق بالشام وفرق سائر أولاده ، فقالوا : مالك فرقتنا بأرض

الغربة . فقال : بذلك أُمرت . وعلمهم أسماء الله تعالى يستسقون بها وينتصرون ، ثم تزوج إسماعيل امرأة من جرهم وأخذ لسانهم فتعرب بهم ثم إن إبراهيم استأذن سارة أن يزور هاجر وابنها فأُذنت له وشرطت أن لا ينزل فقدم مكة وقد ماتت هاجر ، ويقال : إنه قدمها على البراق وذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ليس هنا ذهب يتصيد ، وكان إسماعيل يخرج من الحرم يتصيد ثم يرجع وكان مولعاً بالصيد وكان مخصوصاً بالقنص والفروسية والرمى والصرع ، فقال لها إبراهيم : هل عندك ضيافة ، وهل أجد عندك طعاماً أو شراباً ؟ قالت : ليس عندى شيء . قال : فإذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما قدم إسماعيل أخبرته بما قاله إبراهيم فطلقها وتزوج أُخرى ، فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثم استأْذن سارة أن يزور إسماعيل فأَذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى بيت إسماعيل ، فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد وهو يجىء إن شاء الله ، انزل رحمك الله ، قال لها : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم . فجاءت بالتين واللحم فدعا لهما بالبركة ولو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر الأَرض براً وشعيراً أوتمراً ،فقالت : انزل حتى أغسل

رأسك فلم ينزل فجاءت بالمقام فوضعته عند شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فبقى أثر قدمه عليه فلما فرغ قال لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه منى السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك،فلما جاء اسماعيل عليه السلام وجد ريح أبيه فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ قالت : نعم . جاء شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً فقال لى كذا وقلت له كذا وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه على المقام ، فقال لها : ذلك أبى إبراهيم . قال أنس : رأيت فى المقام أثر أصابع إبراهيم وعقبه واخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم وإنما عنى إبراهيم بتغيير العتبة وإثباتها تطليق الزوجة وإمساكها وكان جائزا أن يأمره بالتطليق، قال على بن أبى طالب ، قال عبد المطلب : بين أنا قائم فى الحجر إذا أتانى آت فقال : احفر طيبة . قلت : فما طيبة . قال : فذهب عنى ولم يجئنى فلما كانت الليلة الثانية جاءنى فقال احفر برة ، قال : فما برة ، فذهب عنى فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فقال : احفر زمزم . قلت : وما زمزم ، وكان قد درس وغار ماؤها فقال : بئر تسقى الحجيج عند منحر قريش عند نقرات الغراب الأعصم وقرية النمل فلما بيَّنَ له قام فقصد الموضع فوجد غراباً ينقر وبيت النمل فحفر بينهما بمعول ومعه ابنه الحارث ليس له غيره فقالت

قريش : ياعبد المطلب إنها من آبار اسماعيل أبينا وإن لنا فيها حقاً فأشركنا فيها ، فقال : ما أنا بفاعل إن هذا شيء خصصت به من دونكم وأعطيته من بينكم ، قالوا له : فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك ، قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم . قالوا : كاهنة بني سعد بن هذيل . قال : نعم . وكانت من أشرف بيت في الشام فركع عبد المطلب ومعه نفر من بني أمية بن عبد مناف ونفر من كل قبيلة من قريش والأرض مفاوز ولما كانوا ببعض المفاوز نفد ما كان معه هو وأصحابه من الماء حتى أيقنوا بالهلاك فاستقوا ممن معهم من قبائل قريش فأتوا عليهم فقالوا : إنا في مفازة وإنا لنخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم قال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : إنا لرأيك تبع فمرنا بما شئت . قال : إني أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة بقدر ما يجد من القوة فكل من مات منا دفناه في حفرته فاحتفروا وجلسوا ينتظرون الموت ، ثم قال : هلا إذا جلسنا منتظرين الموت نضرب يمينا وشمالا ونبغي لأنفسنا ماء فعسى الله أن يرزقنا ماء فارتحل هو ومن معه وقريش ينظرون إليهم وما هم فاعلون فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما ركبها انبعثت به فانفجرت عين ماء من تحت اخفافها فكبر عبد المطلب

وأصحابه ثم نزل وشرب وشرب أصحابه حتى رووا وملأوا فسقيتهم ، ثم قالوا يا عبد المطلب إن الله قد فضلك علينا والله لا نخاصمك أبداً فى زمزم إن الذى سقاك هذا الماء فى هذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم فارجع فرجع ورجعوا وخلوا بينه وبين زمزم ، وروى أنه قيل لعبد المطلب يا أيها المذبح احفر زمزم إنك إن حفرتها لم تندم وهى تراث من أبيك الأَعظم وتسقى الحجيج ، فقال : أى موضع زمزم . قيل له : عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأَعصم فغدا بالمعول ومعه ابنه الحارث ، فقالت قريش : والله لا نتركك تحفرها ومنحرنا وأوثاننا عندها وحسدوه وكانوا قد أخبروا أن جرهما لما سكنوا مكة أودعوا فى زمزم أموالا وأسلحة للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - وأخبروا أن الله تعالى باعث فى تلك القرية نبياً صفته كذا ، ثم قال بعضهم لبعض دعوه يحفر فربما يخطىء الموضع فحفر غير بعيد فظهرت العلامة فكبروا وعرفوا أنه لم يخطىء فتمادى حتى بلغ تمثالين من ذهب وهما غزالان دفنتهما جرهم ثم وجد سيوفاً ودروعاً فقالت له قريش ياعبد المطلب إنا معك فى هذا شركاء . قال : لا . ولكن نضرب بالقداح قالوا : كيف تصنع . قال : نجعل للكعبة قدحين ولى قدحين فمن خرجت قدحاه على شىء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شىء له . قالوا :

أنصفت . فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب
وقدحين أبيضين لقريش وضربوا القِدَاح عند صنم يقال له هبل ،
وقام عبد المطلب يدعو فخرج القدحان الأَصفران على الغزالين للكعبة
وخرج الأسودان على السيوف والدروع لعبد المطلب وتخلف قدحا
قريش فعلق عبد المطلب السيوف والدروع بباب الكعبة وكانت الرئاسة
والتقدمة لعبد المطلب قبل حفر زمزم ولما حفرها وخرج منها ماء ازداد
بذلك فى قريش عظمة وجاهاً ومنزلة وعاف الحجيج المياه التى كانت
بمكة ونواحيها وأقبلوا على زمزم العذوبة ماؤها ولكونها من أثر إسماعيل
فافتخرت بذلك بنو عبد مناف على قريش وسائر العرب . انتهى
كلام عرائس القرآن .

وفى رواية أنه بلغ إبراهيم من الشام وإلى مكة راكبا هو وابنه
إسماعيل وهاجر فى يوم واحد وركب منصرفا وتركهما من يومه
وترك عندها جراب تمر وسقاء ماء ولما كان عند الثنية كر راجعاً حيث
لا يريانه ،استقبل موضع البيت ودعا بذلك الدعاء إلى قوله يشكرون .
وعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ماء زمزم لما شرب له ، ذكره
ابن العربى قال : ولقد كنت مقيماً بمكة سنة سبع وثمانين وأربعمائة
وأكثرت شرب ماءه ناوياً به العلم والإيمان ففتح لى فى ذلك ونسيت أن

أنويه للعمل مع ذلك . اهـ . وذكروا أن أول ما اتخذت النساء المنطقة من قبل أم إسماعيل اتخذتها لتعفى أثرها على سارة وأنها جعلت تشرب من السقاء وترضع صبيها حتى نفد فعطشت وعطش وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت كراهة أن تنظر إليه وابتغاء الماء فوجدت الصفا أقرب جبل يليها فقامت عليه واستقبلت الوادى تنظر أحداً فلم تر فهبطت حتى بلغت الوادى فرفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فلم تر أحدا فعلت ذلك سبعاً وإن موضع البيت كان مرتفعاً تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله وأن جماعة من جرهم أقبلت من طريق كدى ونزلوا أسفل مكة وقصدوا الموضع الذى هى فيه لرؤيتهم الطير حائماً عليه قائلين إن الطير إنما يحوم على الماء بعد ما أرسلوا رجلا أو رجلين فرجع أو رجعا إليهم بخبر الماء وقالوا : تأذنين أن ننزل عندك . قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء ، قالوا : نعم . وشب فيهم إسماعيل عليه السلام وكان أنفسهم ولما أدرك زوجوه بامرأة منهم ، وروى أنهم قالوا : أشركينا فى مائك نشركك فى ألباننا ، ففعلت . وروى أن الماء نبع من تحت قدم إسماعيل لما جعل يبكى ويحكها بالأرض كالصبيان.

﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ ﴾ هذا من

كلام الله سبحانه وتعالى تصديق لإبراهيم عند الأكثر ، وقيل من كلام إبراهيم عليه السلام وإنما كان لا يخفى شيء على الله لأنه عالم بالذات فاستوى فى علمه كل شيء ومن صلة التأكيد لاستغراق المستفاد من النكرة فى سياق النفى وقيل من هو المقيد للاستغراق .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أى مع الكبر والاستعلاء مجازى ويتعلق الجار بمحذوف حال من الياء فى لى والمعنى وهب لى وأنا كبير آيس من الولد ، وقيل الهبة بحال الكبر استعظاماً لها وإظهاراً لما فيها من الآية فهى أجل نعمه وأجلها وأحلاها إذ كانت حيث وقع اليأس ، ﴿ إِسْمَاعِيلَ ﴾ قال ابن عباس : ولده وهو ابن تسع وتسعين سنة ، ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ قال : ولده وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة ، وقيل ولد إسماعيل وهو ابن أربع وستين ، وإسحاق وهو ابن تسعين ، وقال سعيد بن جبير : بشر بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة وقوله الحمد لله الذى وهب لى . الخ . من كلام إبراهيم قطعاً من حملت دعائه عند فراق هاجر فمعنى هبة اسماعيل أنه وهبه الله له وأوجده ، ومعنى هبة إسحاق أن الله جل جلاله قد بشره به ، ولفظ الهبة صالح للمعنى العالم لهما ويحتمل أن يكون تكلم بذلك بعد ولادة اسحاق ، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ قابله ومجيبه يقال سمع الملك كلامى

أى اعتد بكلامى وقبله ومنه قول المصلى سمع الله لمن حمده ، وحديث ما أذن الله لشىء أى ما سمع له أى ما قبله واعتد به كإذنه لنبى يتغنى بالقرآن والدعاء على عمومه بحيث يقبل،وهو متضمن لدعاء إبراهيم الذى دعا به عند فراق هاجر ولقوله رب هب لى من الصالحين . وقيل هذا هو المراد وسميع صفة مبالغة مضافة للمفعول وأشد مبالغة من ذلك أن تجعل الإضافة من الإضافة للفاعل على طريق المجاز العقلى بأمر اسند السمع العظيم للدعاء بنفسه وجعل الدعاء نفسه سميعاً كقولك صومه صوام .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾معدلا لها بأركانها ووظائفها محافظاً عليها فى أوقاتها مداوماً عليها والمراد طلب أن يبقيه الله على ذلك ما دام حياً لأنه مقيم لها فى حين دعائه وقبله .﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ متعلق بمحذوف نعت لمحذوف معطوف على الياء على حذف المفعول الثانى فى هذا العطف الذى هو عطف معمولين على معمولى عامل واحد أى واجعل طائفة ثابتة من ذريتى مقيمة للصلاة وإنما عبر بمن التبعيضية لعلمه بالوحى أو باستقراء فى الأمم الماضية أنه يكون فى ذريته كفار ويناسب أنه بالوحى قوله تعالى لا ينال عهدى الظالمين ﴿ رَبَّنَا ﴾تكرير للنداء قبله لشدة الرغبة أو عائد إلى اجعل المقدر المغنى فى قوله ومن ذريتى ﴿ وَتَقَبَّلْ

دُعَاءِ ﴾ أجب دعائى هذا أو تقبل عبادتى والعطف على اجعلنى مقيم الصلاة أو على محذوف يدخل عليه النداء الأخير فلا يكون تكريراً ، أى ربنا افعل لى ما سألتك وتقبل عبادتى .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ﴾ ماقصرت فيه إذ لا يخلو مخلوق من تقصير فى حق الخالق ولو بلغ ما بلغ أو اغفر لى ما كان منى مما الأولى تركه ولو كان غير معصية أو أراد إظهار العجز والالتجاء إلى الله فقط ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾أى وأمى هذا قبل أن يتبين له عداوتهما لله تعالى أو على شرط الإسلام كذا قيل،ويبحث فيه بأنه يأباه قوله تعالى إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاره صحيحاً لا كلام فيه ،وقد تقدم كلام فى ذلك وروى أن أمه أسلمت ودعا لها فالمراد مجموع والديه لا جميعهما ، وقيل أراد آدم وحواء وقيل آدم ونوحاً وعليه فلا تغليب بخلاف سائر الأقوال ففيها تغليب لفظ الوالد على لفظ الوالدة إذ ثناهما على والدى لا على والدتى ، وقرأ سعيد بن جبير ولوالدى بتخفيف الياء على الإفراد يعنى أباه على ما مر أو آدم أو نوحاً ،ولايخفى أن الراجح أراده والده على الحقيقة فى هذه القراءة ووالده ووالدته لى الحقيقة فى قراءة التشديد وقراءة الحسن ابن على والزهرى ولوالدى بفتح اللام وإسقاط الألف قبلها أى إسماعيل

وإسحاق وأنكرهاعاصم وقرىء ولولدى بضم الواو وإسكان اللام وتخفيف الياء جمع ولد كأسد وأسد وهم اسماعيل وإسحاق ويعقوب ابن إسحاق ونحوهم أو مفرد مراد به الجنس المتأهل للمغفرة من أولاده من صلب ونسل أو إسماعيل وفى بعض المصاحف ولذريتى وفى مصحف أبى بن كعب ولأبوى وهى موافقة لقراءة ولوالدى بألف وكسر اللام وتشديد الياء ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كلهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أى يوم يحضر الحساب ويثبت ويشتد ، قال الطيبى فى شرح الكشاف شبه الحساب فى الوقوع والثبوت بالإنسان إذا كان على أقوى حال وهو القيام ثم أثبت له مجازاً ما يلازم الإنسان فى هذه الحالة وهو القيام ثم شبه هذا المثبت لا الحقيقة بما أثبت تحقيقاً ثم أطلق المحقق على ذلك اثبت لا على التحقيق ثم اشتق منه يقوم ،فهى استعارة مكنية للتخييلية مستلزمة التبعية ا هـ . ومثل ذلك قولهم قامت الحرب على ساق وقولهم ترجلت الشمس إذا أشرقت وثبت ضوؤها ويجوز أن يكون ذلك من الإسناد للسبب فيكون الإسناد مجازاً عقلياً والأصل يوم يقوم الناس لأجل الحساب ويجوز أن يقدر مضاف فيكون الحساب مجازاً بالحذف أى يوم يقوم أهل الحساب للحساب أو إلى الحساب .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ يامحمد . ﴿ اللَّهَ غَافِلاً ﴾ أى دم على ما أنت عليه

من عدم حسبانك الله كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلهاً آخر ،أى دم على عدم كونك من المشركين وعدم كونك داعياً مع الله إلهاً آخر فى أحد أوجه وذلك أن الغفلة معنى مانع من الوقوف على حقيقة الأمر وإن شئت فقل سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ واليقظة والله تعالى منزه عن ذلك ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلم الخلق بالله وصفاته وبما تنزه عنه فلا يتوهم أن الله جل جلاله يغفل فضلا عن أن ينهى عن ذلك فظهر أن المراد كما مر دم على ما أنت عليه من عدم حسبانك الله غافلا . ﴿ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم وغيرهم بالشرك والقلق والمعاصى بل هو عالم بما يعملون وسيجازيهم أو أراد بالنهى عن ذلك الحسبان الإعلام بأنه تعالى عالم بمايعملون لايخفى عنه شىء وإنه يجازيهم على القليل والكثير أو أراد لا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل بل معاملة الرقيب المحاسب على النقير والقطمير والفتيل ويجوز أن يكون الخطاب فى لا تحسبن لكل من يصلح له فيشمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد علمت كيفية نهيه عن ذلك الحساب ويشمل غيره ممن عرف الله وصفاته والكلام فى كيفية نهيه كذلك ويشمل من لم يعرفه بصفاته أو عرفه وكان متزلزلاً فبالنهى على ظاهره أى اترك ذلك الحسبان الذى أنت فيه ، وقال سفيان عن

عيينة ذلك تسلية للمظلوم وتهديد للظالم على الإطلاق فقيل له من .
قال هذا فغضب . وقال : إنما قاله من علمه ، ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾
وقرأ أبو عمر وإنما تؤخرهم بالنون فى رواية غير مشهورة وفيها التفات
وعلى كل حال فالمعنى يؤخر أو نؤخر عذابهم أو جزاءهم فحذف المضاف .
﴿ لِيَوْمٍ ﴾أى إلى يوم أو لأجل يوم معدود لهم أو اللام مثلها فى قولك
صنعت السرج للدابة واشتريت الباب للدار﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾
أى أبصارهم أو الأبصار منهم أو مطلق الأبصار وهو الراجح وشخوص
البصر أن يبقى مفتوحاً ناظراً إلى جهة واحدة لا يعرض عنها وذلك
لفرط الحيرة والدهشة من هول ذلك اليوم ويجوز أن يراد بالشخوص
انتقال البصر من جهة إلى أخرى لإحاطة الهول من كل جهة .

﴿مُهْطِعِيْنَ ﴾ مسرعين من قبورهم إلى إسرافيل إذ يدعوهم من صخرة
بيت المقدس وهم مع ذلك فى ذل واستكانة كإسراع الأسير ونحوه
وذلك مخالف لحال الدنيا فإن الشاخص فيها يبقى واقفاً وذلك هو
الراجح ، وبه قال سعيد بن جبير وأبو عبيدة وقتادة وقيل المهطع
الخضيع ، وعن ابن عباس الإهطاع شدة النظر إلى جهة واحدة وعليه
فهو حال مؤكدة للشخوص وأصله الإقبال على الشىء ولذلك فسر
بالإسراع وأن الإسراع إقبال وفسر بشدة النظر لأنه إقبال بالعين

وأجازهما أبو عبيدة وقال ابن زيد المهطع الذى لا يرفع رأسه .
﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ رافعيها إلى جهة السماء . قال الحسن وجوه الناس
يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد قيل وذلك بخلاف العادة لأن
من يتوقع يطرق ببصره إلى الأرض ويحتمل أن يكون ذلك للهول الآتى
من جهة السماء كنزول الملائكة وتقطع السموات وعلى تفسير ابن زيد
يكون مقنعى حال مؤكدة للتى قبلها لأنه يفسر الإقناع بخفض الرأس
من الذل كما ذكر مكى عن المبرد ﴿ لَا يَرْتَدُّ ﴾ لايرجع والافتعال
هنا للمبالغة الراجعة إلى النفى أى انتفى الارتداد انتفاء بليغاً وللمطاوعة
رد بأن يهموا بالرد فلا يطاعون أو بأن من شأنهم أن يعملوا فى الرد
فكأنهم عملوا فلم يطاوعوا . ﴿ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ بصرهم هيبة وخوفاً
فهو شاخص لا يطرف ويجوز أن يكون المعنى لا يرجع إليهم نظرهم
فينظروا إلى أنفسهم لشدة الحال والجزع والحذر . ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾
خلاء وهو الفسحة التى بين السماء والأرض لم يشغلها جسم وإنما أخبر
به لتضمنه معنى الخالى كأنه قيل أفئدتهم خالية عن الفهم كما هو
شأن المتحير الدهش ، وقال ابن جريج أفئدتهم خالية من الخير
والحق . وقال ابن عبيدة خالية من العقل ، وقال قتادة : مواضع أفئدتهم
خالية بانتقال الأفئدة عنها إلى حناجرهم لا تخرج ولا تعود إلى

مواضعها ، وقال سعيد بن جبير : أفئدتهم ذات هواء بمعنى أنها مترددة تهوى فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ويحتمل أن يكون شبه الأفئدة بالهواء الذى هو الريح فى شدة الاضطراب لشدة الهول .

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ ﴾ يامحمد ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ ﴾يوم القيامة أو يوم الموت وهو مفعول ثان لأنذر لا ظرفه لأن يوم القيامة أو يوم الموت أعنى وقت اختصاره ليس وقتاً للإنذار ولايخفى مافى الأمر بالإنذار بذلك اليوم من التهويل . قال الغزالى فى الإحياء : إن أعلم العلماء وأعرف الحكماء ينكشف له عقبى الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم ولا غم إلا التفكر فى خطر تلك الأحوال وما ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أو سعادة دائمة لكان ذلك كافياً فى استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا . ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالشرك والمعاصى ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾أى أخر عذابنا أى العذاب الذى استوجبناه ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾بأن تردنا إلى الدنيا وتمهلنا فيها زماناً قليلا وأخر آجالنا بمدة قليلة مقدار ما نؤمن ونجيب دعوتك . ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أى دعاءك إيانا إلى التوحيد والعمل الصالح . ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ فيهما بأن نوحد كما وحدوا ونعمل كما عملوا أونتبع دعاءهم إيانا إليهما فيقال

لهم . ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ ﴾أى حين كنتم فى الدنيا. ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾جواب أقسمتم جاء بلفظ الخطاب على مطابقة أقسمتم ولو حكى كما قالوا حين أقسموا لقبل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لنا من زوال لأَنهم كانوا فى الدنيا يقولون والله ما لنا من زوال عن حال الموت إذا متنا إلى حال البعث كما قال جل جلاله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت أو يقولون بطرا وغروراً وسفها والله ما لنا من زوال عن الدنيا بالموت أنكروا الموت عناداً مع علمهم بأَنه لابد منهُ أو يقولون بلسان حالهم والله لا نموت حيث أملوا بعيدا أو بنوا مشيداً وفعلوا فعالا كأَنهم لا يجازون عليها .

﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالشرك والمعاصى من الأَمم السالفة كقوم هود وقوم صالح ، والخطاب لجملة الكفار ولا يخلون من سكون مساكن الأُمم السالفة ويجوز أن يريد خصوص كفار قريش ويريد بسكونهم مبيتهم ليلا فى نحو ديار ثمود إذا سافروا ويجوز أن يكون المراد بالسكون سكون النفوس واطمئنانها آخذة لمساكن الظالمين مساكن أو بايتين فيها وأخذوا لسير هؤلاء فى الكفر والمعاصى غير خائبين أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء ، أما سكن بمعنى اطمئنان فيتعدى بالحرف نحو سكن فى كذا وسكن بكذا وأما سكن بمعنى

أقام فأصله التعدى بفى كما فى الآية وقد تضمن معنى تبوءوا فيتعدى بنفسه تقول سكن الدار أى تبوأها أى اتخذها منزلا ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ الفاعل مستتر عائد إلى الفعل أى تبين لكل فعلنا بهم بسكون العين ويدل له ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وقيل عائد إلى مصدر تبين ، وقيل الفاعل جملة كيف فعلنا بهم وقد مر البحث فى مجىء الفاعل جملة وفعل الله بهم إهلاكه إياهم وانتقامه منهم وقرئ ونبين بالنون والرفع وعليه فالجملة مفعول به وعلق العامل بالاستفهام بمعنى أن أداة الاستفهام هى المنقلة له عن أصله الذى هو العمل فى المفرد إلى العمل فى الجملة وعلى هذه القراءة تكون جملة نبين لكم كيف فعلنا بهم معترضة أو حالا على تقدير المبتدأ أى ونحن نبين أو تقدير قد التحقيقية والمضارع فيها للحال . ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾صفات ما فعل الظالمون وما فعل بهم الجارية مجرى المثل فى الغرابة الملوح بها إلى أنكم مثلهم فى الظلم واستحقاق ما استحقوا من الهلاك .

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾احتال هؤلاء الظالمون احتيالهم العظيم المستفرغ فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل ومكركم يا كفار قريش يستحقر دونه ويقل ولم يتأثر مكرهم فكيف يتأثر مكركم وزعم بعض أن الضميرين لكفار قريش ومكرهم ما قال الله جل جلاله منهم

وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك،الآية والصحيح الأول ﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أى مكرهم الذى مكروا به ثابت مكتوب محفوظ عند الله معلوم له يجازيهم به أعظم منه فإضافة المكر للهاء إضافة مصدر للفاعل ويجوز أن يكون المعنى عند الله المكر الذى يمكرهم جزاء لمكرهم وإبطالا له فإضافته إضافة للمفعول،والوجه الأول أظهر لأنه المراد فى قوله وقد مكروا مكرهم فلتكن المعرفة الثانية عين الأول على الغالب ،

وَإن ﴾هذه إن الشرطية الوصلية﴿ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتزُولَ مِنْهُ ﴾ أى به ﴿ الْجِبَالُ ﴾ هذه لام الجر والتعليل متعلقة بخبر كان للمحذوف الذى هو كون خاص أى وإن كان مكرهم فى العظم والشدة معدى لإزالة ماهو عظيم راسخ كالجبال أى إن مكرهم محفوظ عند الله للجزاء والإبطال وإن عظم مكرهم عظيم كما تقول إنى مدركك وإن مررت وإنى غالبك ولو فعلت ما فعلت . قال ابن هشام : الذى يظهر أن اللام لام الجر والتعليل وأن إن شرطية أى وعند الله جزاء مكرهم وهو مكر اعظم منه وإن كان مكرهم لشدته معدى لأجل زوال الأمور العظام المشبهة فى عظمها الجبال كما تقول فلان أشجع من فلان وإن كان معدى للنوازل وقيل إن نافية واللام لتأكيد النفى وهى المشهورة بلام الجحود بناء على أنها لا تختص بالنافى الذى هو ما أو لم ،وقد رده ابن هشام

لأنها لا تكون بعد غيرهما من أدوات النفى وباختلاف فاعلى كان وتزول ويجاب بأن اختلاف الفاعل لا يفوت التأكيد المسوقة هى لأجله وعلى هذا القول يكون الجبال مثلا لأمر النبى – صلى الله عليه وسلم – ونحوه وهو الشرائع والنبوة إذ هى كالجبال فى القوة والرسوخ فيكون المراد تحقير مكرهم أى ما كان مكرهم مزيلا لذلك ،وبهذا قال الحسن وجماعة : ويدل له قراءة ابن مسعود وما كان مكرهم ،وقيل إن مخففة من الثقيلة أى وإنه كان مكرهم لأجل أن تزول منه الجبال أى ما هو فى العظم كالجبال وهو الآيات والشرائع وقرىء لتزول بفتح اللام الأُولى كالثانية وهو لغة من يفتح لام كى وقرأ على وعمر وإن كاد مكرهم بالدال أى قرب ونسب بعضهم هذه القراءة لابن مسعود والصحيح عنه ما مر وقرأ الكسائى لتزول بفتح اللام الأُولى وضم الثانية على أن إن مخففة واللام لام الفرق بين النفى والإثبات فيكون المراد تعظيم مكرهم أى إنه كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال ولكن الله أبطله ونصر أولياءه ، وبذلك قرأ ابن عباس أيضاً ويوافق هذه القراءة ما ذكره الشيخ هود عن الكلبى،أنها نزلت فى أمر نمرود الذى بنى الصرح ببابل أراد أن يعلم علم السماء فعمد إلى تابوت فجعل فيه غلاماً ثم عمد إلى نسور أربعة فأجاعهن ثم ربط كل نسر بقائمة

من قوائم التابوت ورفع لهم لحماً فى أعلى التابوت فجعل الغلام يفتح الباب الأعلى فينظر إلى السماء فيراها كهيئتها ثم يفتح الباب الأسفل فيراها كاللجة فلم يزل كذلك ينظر فلا يرى الأرض وإنما هو الهواء وينظر فوقه فيرى السماء كهيئتها فما رأى ذلك صوب اللحم فنصبت النسور فمن بحيل فخاف الجبل أن يكون أمر من السماء فكاد الجبل يزول من مكانه وذلك قوله تعالى:وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال وذكر بعضهم أن نمرود كان فى التابوت ومعه صاحبه فهو الذى جعل يأمره أن ينظر أو لما هاله ذلك ، أمره أن ينكس اللحم فانحدرت النسور فبعث الله أضعف خلقه باعوضة فدخلت فى منخره حتى وصلت إلى دماغه فمات انتهى كلام الشيخ هود.

وذكر فى عرائس القرآن أن أول جبار كان فى الأرض نمرود ابن كنعان وكان الناس يمتارون الطعام منه فخرج إبراهيم يمتار مع الناس وكان إذا مر به الناس قال : من ربكم . قالوا : أنت . ومر به إبراهيم عليه السلام فقال له النمرود:من ربك ؟ قال : الذى يحيي ويميت . قال : أنا أحيي وأميت . قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس – الآية – فرده بغير طعام فرجع فمر على كثيب من رمل أعفر فقال لآخذن من هذا فآتى أهلي فتطيب به نفسهم حتى أدخل عليهم ، فأخذ منه

فأتى به أهله فوضع متاعه ثم نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته فإذا هو أجود دقيق رآه أحد فأخذته وصنعت له منه طعاماً فقدمته إليه وكان عهده بأهله لا طعام لهم ، فقال : من أين هذا . فقالت : من الطعام الذى جئت به . فعلم إبراهيم أن الله رزقه له فحمد الله وشكره ثم إن نمرود قال إن كان ما يقول إبراهيم حقا فلا أنتهى حتى أعلم من فى السماء فبنى صرحا عظيما عاليا ببابل ورام منه الصعود إلى السماء لينظر إلى إله إبراهيم على زعمه. فقال ابن عباس ووهب كان طول الصرح فى السماء خمس مائة ذراع وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخين ثم عمد إلى أربعة أفراخ من النسور وأطعمها اللحم وسقاها الخمر ورباها حتى شبت واستعجلت وقعد فى تابوت وحمل معه رجلا آخر وحمل قوسه ونبله وجعل لذلك التابوت بابا من أعلاه وبابا من أسفله ثم ربط التابوت بأرجل النسور وعلق اللحم على عصى فوق التابوت ثم خلى عن النسور فنظرن وصعدن طمعا فى اللحم حتى أبعدن فى الهواء فقال النمرود لفتاه افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها؟فقال أرى الأرض مثل اللجة البيضاء والجبال مثل الدخان فطارت النسور وارتفعت حتى حالت الريح بينهما وبين الطيران فقال لفتاه افتح الباب الأعلى

ففتحه فإذا السماء كهيئتها والأرض سوداء مظلمة ونودى أيها الطاغى الباغى أعلى الله تتمرد ،قال عكرمة فأمر غلامه فرمى بسهم فعاد إليه السهم ملطخا بالدم ،فقال كفيت نفسك إله السماء واختلفوا فى ذلك السهم من أى شيء تلطخ ؟قال عكرمة من سمكة فى بحر بين السماء والأرض علقت هناك ،قربت نفسها إلى الله تعالى وقال بعضهم أصاب السهم طائرا ثم أمر غلامه أن يقلب العصى وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت ففزعت فظنت أنه قد حدث أمر من السماء وأن الساعة قد قامت فذلك قوله تعالى :ومكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ثم أرسل الله سبحانه ريحا على صرحه فألقت رأسه فى البحر وخر عليهم الباقى فتبلبلت ألسن الناس من الفزع وتكلموا بثلاث وسبعين لسانا فلذلك سميت ببابل وكان كلام الناس قبل ذلك بالسريانية كذا قال البغوى ،ويرده أن صالحا وقومه يتكلمون قبل ذلك بالعربية وكذا جرهم من عرب اليمن ومنهم من تعلم اسماعيل العربية وكذا طسم ودخيش وبعث إليه ملكا إن آمن تركته على ملكه فقال : هل رب غيرى فجاء ثانيا وثالثا وأبى وقال لا أعرف ماتقول ألربك جنود ؟قال : نعم .قال : فليقاتلنى إن كان ملكا فإن الملوك تتقاتل .قال الملك : نعم إ

شئت قال قد شئت قال فاجمع جنودك إلى ثلاثة أيام تأتيك جنود ربى فجمع ، فأوحى الله عز وجل إلى خازن البعوض أن افتح منها بابا فلما أصبحوا فى اليوم الثالث نظر نمرود إلى الشمس وقال ما بالها لم تطلع؟فظن أنها أبطأت،فقال الملك: حال دونها جنود ربى فأكلت البعوض لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق من الناس والدواب إلا العظام إلا النمرود فلم يصبه شيء،فقال له الملك:أفتؤمن؟قال :لا . فأمر الله بعوضة فقرصت شفته العليا فشرمت وعظمت ثم السفلى كذلك ودخلت فى منخره وصارت فى دماغه وأكلت منه حتى صارت مثل الفرخ فمكث أربعمائة سنة تضرب رأسه كما تجبر أربعمائة سنة فمات،انتهى . ويأتى كلام آخر فى بناء الصرح وقصة التابوت والنسور مروية عن على أيضا فى تفسير الآية واستبعدها بعض العلماء،وقال إن الخطر فيها عظيم ولا يكاد عاقل أن يقدر على مثله ولا خبر يكاد فيها صحيح يعتمد عليه،وقيل إن المكر فى الآية قولهم اتخذ الله ولدا كما قال الله سبحانه وتعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا،إلى قوله: وتخر الجبال هدا .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾بالنصر وإعلاء كلمة الدين ووعده مفعول ثان قدم وأضيف إليه مخلف ورسله مفعول أول وإنما

قدم الوعد اعتناء به من حيث أنه لا يخلف الوعد أصلا سواء كان رسله أم لا،وإذا كان لا يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم صفوة خلقه،والكلام فى النهى عن حسبان رسول الله–صلى الله عليه وسلم – مخلفا كالكلام فى النهى عن حسبانه غافلا وقد مر وقرىء بنصب وعد على أنه مفعول ثان،وجر رسل على إضافة مخلف إليه وفصل بينهما،قال ابن هشام يجوز الفصل فى السعة بين المضاف والمضاف إليه فى ثلاث مسائل إحداها أن يكون المضاف مصدرا والمضاف إليه فاعله والفاصل إما مفعوله وإما ظرفه،الثانية أن يكون المضاف وصفا والمضاف إليه إما مفعوله الأول والفاصل مفعوله الثانى كقراءة بعضهم فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله أو ظرفه،الثالثة أن يكون الفاصل قسماً ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾غالب لا يقدر أحد على المكر به ولا يرد ما أراد ﴿ ذُو انتِقَامٍ ﴾ لأَوليائه من أعدائه .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾متعلق بانتقام أو بدل من يوم يأتيهم أو مفعول لذاكر أو متعلق بمحذوف أى لا يخلف وعده،وأولى من هذا أن يتعلق بقوله مخلف فتكون جملة أن ومعموليها معترضة ولا مانع من ذلك وليس كما زعم بعض أن ما قبل إن يعمل فيما بعدها والمعنى يوم تبدل الأَرض التى تعرفونها بأَرض غير هذه الأَرض المعروفة

وقرىء نبدل بالنون والبناء للفاعل وتصب الأرض، وعلى كل حال فبغير منصوب على نزع الخافض، أي تبدل بغير الأرض أو على أنه مفعول ثان، لأن المعنى تصيير غير الأرض ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ بالرفع عطفا على الأرض المرفوع، والتقدير وتبدل السماوات غير السماوات وهو مبتدأ محذوف الخبر أى والسماوات كذلك ومن نصب الأرض قرأ بنصب السماوات بكسرة وذلك تبديل ذات، وهو الأصل والمتبادر كقولك بدلت الدراهم بالدنانير. قال على تبدل الأرض أرضا من فضة والسماوات سماوات من ذهب. وقال ابن مسعود أيضا تبدل الأرض بأرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك بها دم. وفى رواية محجمة من دم حرام ولم تعمل بها خطيئة زاد بعضهم وليس فيها معلم لأحد.

قال الضحاك تبدل أرضا من فضة بيضاء كالصحائف، وقال أيضا أبو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظى تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه، وقال أيضا أبو سعيد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكون الأرض خبزة يضيف الله بها أهل الجنة قال بعضهم وأكثر المفسرين على أن التبديل يكون بأرض بيضاء لم يعص الله فيها ولا سفك فيها دم وليس فيها معلم لأحد، وقيل تنشر لهم صخرة بيت المقدس وروى أنها تبدل أرضا من نار. قال أبى بن كعب

تبدل الأرض نيرانا والسماء جنانا وذكر بعضهم أن الأرض تبدل لكل فريق بما تقتضيه حاله، ففريق يكون على خبز يأكل منه بحسب حاجته وهم سائر المؤمنين وفريق يكون على فضة وهم المؤمنون الزهاد الذين لا يأكلون فى الدنيا إلا قوتا ولا رغبة لهم فى الطعام، يعصمهم الله فى ذلك اليوم عن الطعام وفريق على نار وهم الكفار، وأخرج الترمذى وابن ماجه ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت إن أول ناس سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض قال أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفك عليها دم حرام والتبديل فى ذلك كله تبديل ذات، ويدل له أيضا ما أخرجه مسلم عن ثوبان جاء حبر من اليهود إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض فقال فى الظلمة دون الحشر وذكره البغوى بلا سند. وأخرج مسلم عن عائشة أيضا قالت : يارسول الله أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ فقال : على الصراط وروى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤمنون وقت التبديل فى ظل العرش وعنه الناس يومئذ أضياف الله فلا يعجزهم ما لديه وأخرج الترمذى عن عائشة أين يكون المؤمنون يوم تكون الأرض جميعا قبضته والسماوات مطويات بيمينه قال على الصراط يا عائشة. قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح

لكن لم أره فى كتاب الترمذى بل فى تذكرة القرطبى ولا يلزم أن يكون الحاصل بالتبديل أرضا وسماء على الحقيقة وقيل إن التبديل فى الآية تبديل صفة كقولك بدلت الفضة خاتما إذا أذبتها وصنعتها خاتما،ونسبه بعض إلى الأكثر وقال به ابن عباس وذلك بأن تدك جبال الأرض وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارات وتسوى أوديتها فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وتنتثر كواكب السماوات وتكسف الشمس ويخسف القمر وتنشق السماوات وتكون أبوابا وتارة تكون كالمهل وتارة كالدهان،قال أبو هريرة فى رواية قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمد مد الأديم العكاظى لا ترى فيها عوجا ولاأمتا. وأما رواية سهل بن سعد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء أى مائلة إلى حمرة فى بياض وقيل شديدة البياض كقرصة النقى أى الخبز الأبيض الجيد ليس فيها علم لأحد، أى علامة فلا دليل فيه لاحتمال أن يكون لا علامة فيها لأحد لكونها غير ذات الأرض التى كانت فى الدنيا وأن يكون لا علامة فيها لتغيير جبالها وأوديتها وشجرها وعمارتها ولا يبعد أن تجعل الأرض هى جهنم بلا تبديل ذاتها والسماوات الجنة بلا تبديل ذاتها ولو بدلت صفاتهن وإن قلت فى بعض

الرواة إن الأرض تجعل من فضة وفى بعضها كفضة قلت تحمل رواية من فضة على رواية كفضة بل يبالغ فى التشبيه حتى تجعل من جنس الفضة ،وإن قلت كيف تبدل ذاتها مع قوله تعالى :يومئذ تحدث أخبارها قلت إنما تحدث قبل التبديل وقبل البعث وإن قلنا تحدث بعد البعث بأعمال أهلها فإنها تحدث بعده وقبل التبديل أو تبدل صفتها فتحدث ثم تبدل ذاتها ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ﴾أى خرج الناس من قبورهم أو كانوا تحت ما يسترهم فى الدنيا وبعد الموت وكانوا بعد ذلك بلا ساتر ،واللام بمعنى إلى أى برزوا إلى الله ولا يخفى على الله شىء وتقدم كلام فى مثل هذا﴿ الْوَاحِدِ ﴾ الذى لا شريك له فى شىء ﴿ الْقَهَّارِ ﴾القاهر لعباده على ما يريد وفى ذكر الوصفين دلالة على أن الأمر فى غاية الصعوبة لأن المعنى أنهم يبعثون للمحاسب المجازى الذى هو واحد غالب لا ملجأ لأحد عنه ولا مغيث .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ تبصر يامحمد أو يامن تمكن منه الرؤية بالعين الكافرين والمنافقين﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى يوم إذ خرج برزوا لله أو يوم إذ بدلت الأرض ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ أى مربوطين ربطا شديداً كما يدل التشديد على المبالغة بربط كل واحد منهم مع آخر بحسب اقترانهم فى الدنيا فى العقائد والأعمال مثل قوله تعالى وإذا النفوس زوجت

قاله قتيبة أو بربط كل واحد مع شيطانه المضل له المقيض له،قاله ابن عباس أو تربط أيديهم وأرجلهم إلى أعناقهم قاله ابن زيد،وربطوا مع أعمالهم واعتقاداتهم الفاسدة ويجوز أن يكون تمثيلا لمؤاخذتهم على ما عملوا واعتقدوا ﴿ فِي الْأَصْفَادِ ﴾القيود والأغلال والسلاسل أقوال متعلق بمقرنين أو بمحذوف حال من المستتر فى مقرنين .

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾قمصهم وهو الصحيح أو السربال كل ما يلبس قولان جمع سربال﴿ مِّن قَطِرَانٍ ﴾ ويقال له أيضا قطران بكسر القاف وإسكان الطاء وبفتحه مع إسكان الطاء وهو دهن يتحلب من شجر الأبهل بضم الهمزة والعرعر وغيرهما ويطبخ ويطلى به الإبل الجربى فينحرق الجرب بحره والجلد،وقد تبلغ حرارته الجوف وهو أسود منتن ولكن لا يكرهه من اعتاده وللنار فيه اشتعال شديد فيطلى به أهل النار فتشعل فيهم النار بسرعة،فيجتمع عليهم حرارة القطران ووحشة لونه ونتن ريحه مع شدة اشتعال النار فى جلودهم والتفاوت بين قطران الدنيا وقطران الآخرة مثل التفاوت بين نار الدنيا ونار الآخرة،ولو أراد الله المبالغة فى إحراقهم بغير القطران لفعل ولكن حذرهم بما يعرفون ويجوز أن يكون المراد التمثيل بما يحيط بالجسد مما يجلب أنواعا من الغم والألم وقرأ يعقوب فى رواية عنه ومجاهد

وعمر وعلى وأبو هريرة وابن عباس وعكرمة من قطران بكسر القاف وإسكان الطاء وكسر الراء يليها تنوين فهمزة فألف فنون وذلك كلمتان القطر النحاس المذاب وقيل القزدير. وعن عمر أنهم يسربلون بالنحاس وأن شديد الحر تناهى حره والجملة حال ثانية أو ثالثة من المجرمين أو من المستتر فى مقرنين أو من المستتر فى قوله فى الأصفاد إن علق بمحذوف حال﴿ وَتَغْشَى ﴾ تعلوا وتغطى﴿ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ خص الوجوه بالذكر مع أنها تغطى الكل لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق كما تطلع النار على الأفئدة إذ ملئت بالجهل والزيغ وخلت عن المعرفة ولأنها أعز موضع فى الظاهر كالفؤاد فى الباطن وإذا غشيت ذلك فأحرى أن تغشى سواه وعبر بالبعض عن الكل وقرىء وتغشى بضم التاء وفتح العين وكسر الشين مشددة بعدها ألف وهو مبالغة .

﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ﴾مجرمة﴿ مَا كَسَبَتْ ﴾ من شر وعقاب المجرم على إجرامه مشعر بإثابة المطيع على طاعته فكأنها مذكورة أيضا واللام متعلقة بمحذوف،أى فعل ذلك ليجزى كل نفس مجرمة أو بتغشى أو بمقرنين ويجوز أن يراد بكل نفس المؤمن والمجرم يجزى كلا بما يستحق فيتعلق ببرزوا أو بالمحذوف ووجه التعليل إذا علق به أنه يعلم من عقاب المجرم إثابة المؤمن ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ روى

أنه يحاسب الأولين والآخرين فى نصف يوم من أيام الدنيا وهو قادر أن يحاسبهم فى أقل من لحظة لأنه لا يشغله حساب عن حساب .

﴿ هَذَا ﴾أى القرآن أو ما فيه من العظة والتذكير أو المذكور الذى هو السورة أو ما فيها من ذلك أو ما وصفه بقوله ولا تحسبن الله إلى قوله الحساب﴿ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى تبليغ أى ذو تبليغ أو مبلغ بفتح اللام أو البلاغ الكفاية أى يكفيهم ذلك فى الوعظ والناس على العموم وقيل المراد المؤمنون﴿ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ أى بهذا البلاغ والعطف على محذوف متعلق بالبلاغ أى بلاغ لينصحوا أو لينذروا به أو ليتعلق بمحذوف هكذا أى ولينذروا به نزل أوتلى والإنذار تخويف وقرىء بفتح الياء والذال من نذر به بكسر الذال إذا علمه واستعدله﴿ وَلِيَعْلَمُوا ﴾ بما فيه من الحجج ﴿ أَنَّمَا هُوَ أ ﴾ى الله ﴿ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾وذلك أنهم إذا خافوا ما أُنذروا به نظروا لأنفسهم ما يلجمون به منه فيتوصوا إلى التوحيد والطاعة لأن الخشية أم الخير كله ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ ﴾يتذكر أُبدلت التاء دالا وسكنت وأُدغمت فى الذال ﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أصحاب العقول فيرتدعوا عما يهلكهم وأفاد قوله لينذروا به تكميل الرسل وبقوله وليعلموا أنما هو إله واحد استكمالهم القوة النظرية التى منتهى كمالها التوحيد وبقوله وليذكر إلى آخره استصلاح القوة العملية التى هى

التدرع بلباس التقوى فتلك ثلاث فوائد للبلاغ هن الغاية والحكمة فى إنزال الكتب جعلنا الله من الفائزين بهن – صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

سورة الحجر

مكية واستثنى بعضهم: ولقد آتيناك سبعا من المثانى-الآية. قال السيوطى ينبغى استثناء قوله: ولقد علمنا المستقدمين منكم- الآية لما أخرجه الترمذى وغيره فى سبب نزولها وأنها فى صفوف الصلاة وآيها تسع وتسعون وكلمها ستمائة وأربع وخمسون كلمة، وحروفها ألفان وسبعمائة وستون حرفا.

قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم - من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا إن كتبت بزعفران وسقيت امرأة كثر لبنها، ومن كتبها وجعلها فى جيبه كثر كسبه ولا يعدل عنه أحد فيما يبيع أو يشترى وتحب الناس معاملته.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر ﴾ تقدم الكلام فيه ﴿ تِلْكَ ﴾ الآيات الرفيعة الشأن التى هى آيات السورة ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أى آيات من الكتاب الذى هو القرآن والإضافة للتبعيض ﴿ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ عطف باعتبار الصفة التى هى مبين وإلا فالقرآن هو الكتاب أو هو عطف تفسير والتنكير للتعظيم كأنه قيل الكتاب الكامل فى جمع الحجج وما يحتاج إليه وبيان الرشد من الغى أو الكامل فى الجمع والوضوح وقيل المراد بالكتاب والقرآن المبين السورة . وقال مجاهد وقتادة الكتاب جنس الكتب المنزلة قيل كالتوراة والإنجيل والقرآن كتاب الله المنزل على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- واعترض بأنه لم يجر لغير القرآن ذكر ،ويجاب بأن نحو التوراة والإنجيل معهود الذكر فى الألسنة فأل للعهد ويسهل ذلك عطف القرآن عليه .

﴿ رُّبَمَا ﴾ وقرأ غير نافع وعاصم بتشديد الباء وقرى ربما بفتح الراء والتخفيف وبفتحها والتشديد . وذكر ابن هشام فى رب ست عشرة لغة ضم الراء وفتحها وكلاهما مع التشديد والتخفيف وذلك أربع مع تاء التأنيث ساكنة أو محركة ومع التجرد فذلك اثنتا عشرة والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الراء والباء مع التشديد والتخفيف فذلك ست

عشرة وفيها أكثر من ذلك، وذلك لأن الراء مثلثة والباء مثلثة وتسكن أيضاً وتزاد التاء تسكن وتثلث وإذا ضربت ذلك كله بعضا فى بعض بلغت نحو سبعين ،ولاوجه للإطالة فى ذلك وإنما الوجه بيان ما قرىءبه هنا ورب فى ذلك للتكثير لأن كل كافر يتمنى لو كان مسلماً ،والآية مسوقة للتخويف فلا يناسبها التقليل :ذكره ابن هشام وهو وجه صحيح خال عن التكلف وذكر أن الكثير فى رب التكثير وذكر عن ابن درستويه وجماعة أنها أبدا للتكثير ؛ وعن الجمهور أنها أبدا للتقليل وعليه الزجاج وقيل إن الكثير فيهاالتقليل واختار ابن مالك أنها للتكثير أكثر وتفيد التحقيق فى ذلك كله . وقيل هى للتحقيق وأما التكثير والتقليل فمن خارج . وقال الرضى وضعت للتقليل ثم استعملت فى التكثير حتى صارت فيه كالحقيقة وفى التقليل كالمجاز المحتاج لقرينة . وقيل هى فى الآية للتقليل لأن أهوال القيامة تدهشهم فتقل إفاقتهم وتمنيهم . وقيل هى فيها للتقليل على معنى قول النصوح ربما تندم إشارة إلى أن الحزم البعد عن مظنة الضرر ولو كان الضرر على سبيل الندور أو الشك فكيف الكثير المحقق ،فكأنه قيل لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة يوم القيامة لوجب أن يسارعوا إليه اليوم ولو كان ودادهم على شك فكيف وهم يودونه يومئذ فى كل ساعة

ولو كانوا فى دهش بلا شك . وما كافة ومعناها التوكيد وهى مهيئة للدخول على الفعل ويجوز أن تكون نكرة مجرورة المحل رب موصوفة بالجملة بعدها واقعة على الوداد أى رب واد ﴿ يَوَدُّ ﴾ يحب ويتمنى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ورابط الصفة محذوف أى رب وداد يوده الذين كفروا وهذه الهاء المقدرة رابطا مفعول مطلق لا مفعول به والمفعول به مذكور بعد وإن جعلت واقعة على شىء كانت الهاء المقدرة مفعولا به أى رب شىء يوده الذين كفروا ،فيكون المفعول به المذكور بعد بدلا منه هذه الهاء المحذوفة أو من ما ولو كان معرفة اغتفارا فى الثوانى لما لايغتفر فى الأوائل وذلك المفعول هو قوله ﴿ لَوْ ﴾مصدرية﴿ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ فى تأويل المصدر أى ربما يود الذين كفروا كونهم مسلمين وإذا جعلت ما نكرة موصوفة بالوجهين فهى مبتدأ محذوف الخبر تقديره موجود أو واقع أو نحو ذلك ويجوز كونها نكرة تامة مفعولا ليود فلا يقدر ضمير ،وعلى كل حال فلها محلان جر ورفع أو جر ونصب وكونها كافة أولى ،والغالب كما قال ابن هشام إذا كفت بما أن تدخل على فعل ماض لفظا ومعنى وقد تدخل على المستقبل كهذه الآية وقيل هو مؤول بالماضى لتحقق الوقوع فسهل تأويله بالماضى وهذا الماضى مردود بالتأويل للاستقبال ولا يخفى ما فيه من التكلف حيث عبر بالمضارع عن الماضى المستعمل

فى الاستقبال مع أنه يغنى عن ذلك كله إبقاء المضارع على حاله من الاستقبال كما استعمل للاستقبال بعدها فى قوله :

« فإن أهلك فرب فتى سيبكى »

ولا محوج لذلك التكلف إلا نكتة تنزيل المستقبل منزلة الواقع لتحقق الوقوع وهذه النكتة لا تفى بضعف ذلك التكلف وإلا تخريج على ما هو الغالب من وقوع الماضى بعدها حتى نزل المستقبل منزلة ما مضى من حيث أنه لابد واقع ولا حاجة إلى هذا التخريج لما فيه من التكلف فقد وقع الاستقبال بعدها فى البيت المذكور وفى قول هند زوج أبى سفيان : يارب قائلة غدا .

وإنما قيل لو كانوا مسلمين بلفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم ولو روعى ما يعتقدون من المتمنى ويقولون لقيل لو كنا مسلمين ، وإن قلت فى أى وقت يتمنون الإسلام ، قلت : يوم القيامة إذا رأوا المسلمين ناجين من النار فائزين بالجنة ، وهذا قول الزجاج أو عند معاينة الموت وهو قول الضحاك أو عند حلول النصر بالمؤمنين فى الدنيا ذكره القاضى ، وزعم بعض عن ابن عباس وأبى موسى الأشعرى وأنس وجابر بن عبد الله وعلى أنه عند خروج الموحدين من النار وأن المشركين

يعيرونهم ما أغنى عنكم توحيدكم وأن الله جل جلاله يغضب لهم فيخرجهم بشفاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويسمون الجهنميين عند أهل الجنة فيدعون الله فيمحو هذا الاسم عنهم فيسمون عتقاء رب العالمين ، ونسب ذلك لمجاهد وعطاء وأبي العالية والنخعي ورووا ذلك حديثاً ، قال الشيخ هود ذلك رواية كاذبة مفتراة على الله لا أصل لها فى كتابه .

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ اترك يامحمد هؤلاء الكفار ، ﴿ يَأْكُلُوا ﴾ مايشتهون، ﴿ وَيَتَمَتَّعُوا ﴾بما يريدون ،﴿ وَيُلْهِهِمُ ﴾ ويشغلهم عن الاستعداد للمعاد. ﴿ الْأَمَلُ ﴾ترجى طول الأعمار واستقامة الأحوال والتزيد من الدنيا وترجى الخير فى الآخرة إن صح أمرها فيما يقولون ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم وإن أمر الآخرة صحيح وأن الخير فيها لمن آمن وعمل صالحا لا لهم ، والآية تضمنت تهديدهم بمثال أمرهم فى الآخرة وذكر الطبرى عن بعض العلماء أن ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل وعيد فى الدنيا وأن فسوف يعلمون وعيد فى الآخرة فكيف تطيب حياة بين هذين الوعيدين وتضمنت إقناط رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من إسلامهم وإعلامه بأنهم مخذولون وأن الاشتغال بعد بنصحهم اشتغال بما لا فائدة فيه وتضمنت أن تخليته وإياهم وما هم فيه

لا يزيدهم إلا ندماً وتضمنت أن الحجة قد لزمت وتضمنت التحذير عن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأَمل وذلك عادة أكثر الناس وليس من أخلاق المؤمنين وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا من أخلاق الهالكين،وفى الحديث أن المؤمن يأْكل فى معى واحد أى لا يستغرق فى اللذائذ بل يتوسط فى أمره بلا قصد اللذة بذاتها ولا يقصد إلا ما لابد منه ، والكافر يأْكل فى سبعة أمعاء يستغرق فى ذلك، وخص عدد السبعة لأَنه منتهى العدد كما مر، وفى تفسير هذا الحديث وجوه أخرى فى شروح الحديث كحاشية الترتيب والذى يظهر لى بديهة ما ذكرت وفى الحديث: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، قال على : إنما أخشى عليكم اثنتين: طول الأَمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق. ذكر الأَوزاعى عن عروة بن رويم عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ شِرار أُمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به همتهم ألوان الطعام وألوان الثياب يتشدقون الكلام. قال عبد الحق : اعلم أن تقصير الأَمل مع حب الدنيا متعذر،وانتظار الموت مع الإكباب عليها غير متيسر وأن كثرة الميل للذائذ الدنيا تمنع حرارة ذكر الموت أن ترد القلب لأَنه إذا امتلأ بشىء لم يكن لغيره مدخل فيه،فمن أراد الاتعاظ فليفرغه من الدنيا ليجد الذكر فيه منزلا والموعظة فيه محلا قابلا.

قال ابن السماك لم يبك الموتى من الموت بل من حسرة الفوت فأتتهم دار لم يتزودوا منها ودخلوا داراً لم يتزودوا لها ، والظاهر أن الآية تضمنت المعانى السابقة بلا نهى عن القتال ولا أمر به فليست بمنسوخة هذا هو الذى يظهر لى فى أمثال ذلك واشتهر أنها نهى عن القتال وأنها منسوخة بآية السيف .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾بالاستئصال ومن للتأكيد فى المفعول ويقدر مضاف أى من أهل قرية ولما حذف المضاف اعتبر المضاف إليه فى الضمير بعد ويجوز أن يكون المراد بالقرية أهلها تسمية للحال باسم المحل ، وهكذا فى مثل ذلك وعلى الوجه الأخير اعتبر فى الضمير بعد ذلك لفظ القرية ولو كان المراد بها الأهل ولك رد الضمير إلى الأهل المحذوف فى الوجه الأول المعبر عنه بلفظ القرية فى الثانى .﴿ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أجل مقدر ومكتوب فى اللوح المحفوظ لإهلاكها لا يتقدم ولا يتأخر كما ذكره الله سبحانه وتعالى عقب هذا، والجملة نعت لقربة الجواز التفريغ فى الصفات والواو زائدة فى الصفة لتأكيد لصوقها بالموصوف ووجه التأكيد بها أن من معانيها مطلق الجمع والجمع إلصاق وضم،وذلك ما ذكره الزمخشرى والقاضى وغيرهما وحملوا على ذلك وعسى أن تكرهوا سبعة وثامنهم

أو كالذى مر على قرية-الآيات واعترضه ابن هشام بأن الواو فيهن للحال وسوغ مجىء الحال من النكرة فى آية السورة تقدم النفى وفيها وباقى الآى امتناع الصفة والحال متى امتنع كونها صفة جاز مجيئها من النكرة وامتناع الوصفية لاقتران الجملة بألا والتفريغ لا يجوز فى الصفات لا تقول مررت بأحد الأقايم،نص على ذلك أبو على وغيره وذلك فى آية السورة وللإقتران بالواو فيها وفى الباقى وقد اختار ابن مالك وغيره أن الصفة لا تقترن بالواو . والذى للسعد فى شرح لمفتاح جواز التفريغ فى الصفات وقد أجيب من جانب الزمخشرى ومن تبعه أن محل امتناع التفريغ فى الصفات وامتناع اقترانها بالواو وما إذا لم تشبه الحال وإذا شبهت الحال كما فى الآية جاز ذلك وفى كلام الزمخشرى إشارة إلى ذلك :

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ من للتأكيد داخلة على الفاعل وزعم بعض ما معناه أن من للتبعيض وأنها فاعل اسم مضاف وأمة للجنس بمعنى أمم أى ما تسبق بعض الأمم ،﴿ أَجَلَهَا ﴾ أنث الضمير باعتبار لفظ الأمة ، ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾عنه وذكر الضمير وجعله ضمير جمع باعتبار معنى الأمة وهو الرجال والنساء داخلة فيهم تغليباً لهم عليهن،تقدم الكلام فى مثل هذه السين والتاء .

﴿ وَقَالُوا ﴾أى مشركو مكة لرسول الله ،﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ﴾

وقرأ الأعمش ألقى إليه ﴿ الذِّكْرُ ﴾ القرآن أى فى زعمه لأنهم غير مقرين بأن القرآن نزل عليه من الله أو نادوه بذلك تهكماً كقول فرعون إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون ويدل لذلك قولهم: ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾نسبوه للجنون لأنه كان يعتريه شبه الغشاوة عند نزول الوحى عليه من رب العالمين وقيل على العادة فى نسبة الأشياء الغريبة إلى الجن وكان القرآن والوحى مستغربين عندهم أو لأنهما عندهم غير صحيحين من الله كما أن كلام المجنون غير معتبر. ﴿ لَوْ مَا ﴾حرف تحضيض. ﴿ تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ ﴾ تصدقك وتقويك أو تعاقبنا على تكذيبك كما أتت الأمم السالفة﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فى دعواك.

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ ﴾ ما تنزل الملائكة بتاء مفتوحة والأصل ما تتنزل بتاءين حذفت احداهما وقرأ أبو بكر بالبناء للمفعول وقرأ حفص وحمزة والكسائى بالنون مضمومة فنون مفتوحة وكسر الزاى مشددة ونصب الملائكة وقرئ ينزل بالمثناة تحت والتشديد ونصب الملائكة أى ما ينزل الله الملائكة ، ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾متعلق بتنزل أو بمحذوف نعت لمصدر محذوف أى تنزيلا ثابتاً بالحق ملابساً للحق وهو الوجه الذى قدره الله واقتضته حكمته لا على اقتراحكم ولا حكمة فى أن تأتيكم الملائكة عياناً تشاهدونها وتشهد بصدق رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم – فإن تصديقكم به حينئذ تصديق اضطرار كالتصديق عند معاينة أهوال القيامة ولا فضل فيه ولا حكمة فى أن تأتيكم بصور تشاهدونها فإنه لا يزيدكم إلا لبساً ولا فى معاجلتكم بالعقاب فإن له أجلا لا يتقدم عنه ولا يتأخر . ومنكم ومن ذريتكم من سبقت له كلمتنا بالإيمان ، وقال مجاهد : الحق العذاب ، وقيل الوحى ، وعن مجاهد الرسالة والعذاب وذلك جواب الله جل جلاله عن نبيه – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وَمَا كَانُوا ﴾ أى طالبو الإتيان بالملائكة ، ﴿ إذاً ﴾حرف جواب وجزاء لهم على طلبهم الإتيان بالملائكة أو هو ظرف أى وما كانوا حين تأتى الملائكة لو نزلناهم ، وعبارة الزمخشرى وغيره أن إذن جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره ولو نزلنا الملائكة ما كانوا ،﴿ مُنظَرِينَ ﴾ مؤخرين عن العذاب إن لم يؤمنوا بعد النزول على سنة الله سبحانه وتعالى فى الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقترحوها إلا والعذاب بأثرها إن لم يؤمنوا ، وما كانوا مؤخرين عن العذاب إن طلبوا مجىء الملائكة للعذاب فأمر الله سبحانه بمجيئها .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾القرآن رد لإنكارهم القرآن واستهزائهم إذ قالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر ولذلك أكد بالجملة الاسمية وإن ونحن أى إنزاله عليك من الله حق ثابت لا محيد عنه ولذلك أيضاً قرره بقوله ،﴿ وَإِنَّا لَهُ ﴾ أى للذكر ﴿ لَحَافِظُونَ ﴾عن أن يزاد فيه

أو ينقص منه أو يبدل أو يغير كما وقع ذلك فى بعض كتب الله كالتوراة والإنجيل إذ حرفتهما اليهود والنصارى ولو لم يكن إنزاله من الله حقاً ثابتاً لوقع فيه التحريف كما حرفت اليهود والنصارى التوراة والإنجيل مع أنهما من الله لكن لما استحفظهم إياهما الله لم يقدروا على حفظهما . أو ولو لم يكن من الله لتطرق إليه الخلل كما يتطرق إلى كلام البشر ، أو حفظناه عن ذلك وجعلناه معجزاً مغيراً لكلام البشر لا يطيقه الفصحاء على اختلاف الأزمان وتعاقبها وتوافر المعترضين له فلو زاد فيه أحد أو نقص لظهر كالشمس أو حفظناه عن أن يعارضه أحد بكلام مثله . أو حفظناه عن أن يتطرق فساد فى تفسيره ومن أفسد فى تفسيره ظهر فساده ولم يقبل عنه ، وعود الهاء للذكر هو قول الجمهور ومجاهد وهو الظاهر ، وقال ابن السائب ومقاتل عائدة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحتاج فى توجيه هذا القول إلى ما قيل من أنه لما ذكر التنزيل والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيكون إحضاره هنا أقرب من ذكره فى قوله يا أيها الذى الخ كذا أشار إليه بعض ، والظاهر فى ذلك القول أنه أعيدت إليه الهاء لذكره فى قوله يا أيها الذى الخ ، لأنه ذكر فيه بالكلام لا بالدلالة فهو أولى ولو كان أبعد . وما ذكره الجمهور من عود الهاء إلى الذكر أولى لأنه أقرب مذكور . ومن كتب إنا نحن

نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ـ الآية ، فى فضة ضربت ثم تلاها عليها ليلة الجمعة أربعين مرة ثم طواها وجعلها تحت فص خاتم وتختم به وكل الله به من يحفظه فى نفسه وماله وولده وجميع ما يتقلب فيه وأحواله كلها وإذا طبع بتلك الفضة على شمع وبخر به وجع ما من الأوجاع برئ بإذن الله .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ لامفعول لأرسلنا هنا لأن المراد مجرد الإخبار بالإرسال كأنه قيل ولقد أثبتنا الرسالة من قبلك ﴿ فِى شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴾ ويجوز أن يقدر له مفعول منعوت بقوله فى شيع أى ولقد أرسلنا من قبلك رسلا ثابتة فى شيع أو يقدر وتعلق فى بارسلنا كالوجه الأول والشيع جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريق ومذهب من شاعه إذا تبعه ، ولذا قال الفراء : الشيعة الاتباع للرئيس الذين يتقوى بهم كما قيل إن أصله الشياع وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار .قال وإضافة شيع للأولين إضافة موصوف لصفة وأوله البصريون بحذف الموصوف أى شيع الأمم الأولين أو بأن الإضافة للتبعيض .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كما يستهزىء بك قومك يامحمد فاصبر كما صبرت الرسل من قبلك فذلك تسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما لنفى الحال ولا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال أو على ماض قريب من الحال وقد تدخل على مضارع

للاستقبال لقرينة والمضارع هنا للحال المحكية تنزيلا للماضية منزلة الحاضرة .

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾أى كما أدخلنا الاستهزاء أو التكذيب فى قلوب شيع الأولين ندخله .﴿ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك ومعنى هذا الادخال الخذلان والقدر لا الجبر كما زعمت الجبرية والآية دليل لثبوت القدر رادة على نافية من المعتزلة وغيرهم ، وقرىء بضم النون وكسر اللام من اسلكه والإسلاك والسلك الإدخال . والهاء للاستهزاء أو التكذيب كما علمت . وقد كنت فيما مضى أرجع الهاء إلى الذكر وهو القرآن على أن المعنى كما نسلك ندخل الاستهزاء أو التكذيب فى شيع الأولين ندخل القرآن فى قلوب مجرمى قومك بمعنى نعلمهم به ونطلعهم عليه بدون أن يؤمنوا به وتدل له الهاء فى قومه .

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى بالذكر فإن الأصل فى الضمائر المتعاقبة التوافق فى المرجع إلا لمانع ولو كان ذلك غير متعين ولا مانع هنا فضعف تضعيف القاضى لهذا القول الذى قلته من عندى ووافقت عليه غيرى إذ ضعفه بأنه لا يلزم توافق الضمائر فى المرجع لأنا نقول بأصالة التوافق وترجيحه لا بلزومه والجملة حال من هنا، نسلكه على أنها ضمير الذكر أى نسلك الذكر فى قلوب المجرمين غير مؤمن به بفتح الميم الثانية ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان الجملة قبلها أو حالا من

المجرمين سواء رجعنا الهاء الأُولى للاستهزاء أو التكذيب أو رجعناها للذكر ولا ينافى فى كونها حالا من المجرمين كونها مبنية لإدخال الاستهزاء أو التكذيب فى قلوب المجرمين بل يقويه لأن عدم الإيمان بالقرآن من جملة التكذيب ومترتب عليه الاستهزاء ويجوز عود الهاءين معاً للاستهزاء أو التكذيب فتكون الياء سببية أى لا يؤمنون بسبب استهزائهم أو تكذيبهم وقيل الهاء الآخرة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ وَقَدْ خَلَتْ ﴾مضت ،﴿ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾أى عادتهم الواقعة عليهم أو سنة الله فيهم وهى تعذيبهم بتكذيب رسلهم وقومك يامحمد مثلهم فذلك وعيد لكفار مكة أو هى خذلانهم وسلك الكفر فى قلوبهم .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾أى على هؤلاء المكذبين لك القائلين لو ما تأتينا بالملائكة أو على الكفار مطلقاً كفار الأمة وكفار الأُمم الماضية . ﴿ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ ﴾فى الباب ،﴿ يَعْرُجُونَ ﴾يصعدون وفى بمعنى إلا وهى على أصلها لتضمين العروج الدخول وقرىء بكسر الراء ومعنى ظل يفعل كذا دام على فعله طول نهار وخص الظلول هنا ليؤذن بأن عروجهم بالنهار ليروا ما فى السماء عياناً ووضوحاً وذلك قول الحسن وقتادة وهو الواضح المتبادر ، وقال ابن عباس والضحاك الواوان فى ظلوا ويعرجون عائدان للملائكة لو فتحنا على الكفرة باباً من السماء فظلت الملائكة تصعد وهم يشاهدونها .

﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ سدت بالسحر أوحبست بماتخيل لها مما لا حقيقة له وذلك التشديد للمبالغة لا للتعدية لأن سكر بمعنى سد وحبس يتعدى بنفسه مخففاً ويدل لذلك قراءة ابن كثير بالتخفيف يقال سكرت الباب إذ غلقته وسكرت الكوة فى مجارى الماء أو البثق فى مجاريه إذا طمست ذلك وصرفت الماء عنه ويجوز أن يكون من سكر الشارب أى حيرت ابصارنا ووقع فساد فى نظرها كما يتغير نظر السكران فلا يتصل بحقيقة الشىء أو من سكرة الريح إذا سكنت أى سكنت ابصارنا عن حقيقة النظر بما خيل لها ،والتشديد على الوجهين للتعدية ويدل لهما قراءة بعضهم سكرت بالتخفيف والبناء للفاعل أى حارت أو سكنت والقصر فى الآية قصر موصوف على صفة أى ما أبصارنا إلا مسكرة ،﴿ بَلْ ﴾ للانتقال﴿ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾سحرنا محمد مثلا وخيل لنا ما لا حقيقة له كما قالوا بذلك عند ظهور الآيات.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً ﴾ اثنى عشر مختلفة الهيئة والخواص على ما دل عليه الرصد والتجربة مع بساطة السماء وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وقسمت على ثمان وعشرين منزلة لكل برج منزلتان وثلث وكل برج ثلاثون درجة والجملة ثلثمائة وستون درجة تقطع الشمس البروج كلها فى كل سنة مرة ، والقمر يقطعها فى كل شهر

مرة وعبارة بعض تقطعها فى ثمانية وعشرين يوماً وقسمت البروج على النجوم السبعة السيارة والحمل والعقرب للمريخ والثور والميزان للزهرة والجوزاء والسنبلة لعطارد والسرطان للقمر والأسد للشمس والقوس والحوت للمشترى والجدى والدلو لزحل ، وعن ابن عباس المراد فى الآية بروج الشمس والقمر يعنى منازلهما وعنه نجوم وعن الحسن ومجاهد وقتادة النجوم العظام بعنوان الدرارى السبعة المذكورة وقال ابن عطية المراد قصور فى السماء عليها الحرس وكل ذلك من معنى الظهور ، ويقال تبرجت المرأة أى ظهرت ،﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ زيناها بالأشكال والهيئة البهية لمن ينظر إليها نظر استدلال على خالقها ووحدانيته .

﴿ وَحَفِظْنَاهَا ﴾بالشهب﴿ مِن كُلِّ شَيْطَانٍ ﴾ من للابتداء أى منعناها من كل شيطان أو بمعنى عن﴿ رَّجِيمٍ ﴾ مرجُومٌ أى ملعون واللعن الإبعاد عن الرحمة مرجوم بالشهب أى حفظناها بالشهب من كل شيطان من شأنه أن يرجم بها وهو كل شيطان قصدها لاستراق السمع .

﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ ﴾ افتعل من السرق أى تكلف وعالج أى يسرق . ﴿ السَّمْعَ ﴾وفسر استراقه بالخطفة والاستثناء منقطع أى لكن من استرق السمع قد يجده ومتصل فيكون من بدلا من كل لأن الحفظ منع فكأنه حفظ أى إلا من استرق فلا تحفظ عنه إذ أقدره على الاستراق

﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾أى تبعه وتقدم كلام فى مثله﴿ شِهَابٌ ﴾ شعلة من نار ، ﴿ مُّبِينٌ ﴾ظاهر للمبصرين وقد يسمى الكوكب شهاباً لما فيه من البريق وكذا السنان كانت الجن تدخل السماوات ومنعت من ثلاث بعيسى ومن الكل بمحمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليهما بالشهب وكانت ترمى قبل ولادته – صلى الله عليه وسلم – واشتد بعدها وكانوا يسترقون ليلقوا على الكهنة فيرمون بالشهب لذلك ،ولما ولد رميت لذلك واشتد الرمى ليكون معجزة ودليلا ،وإذا رمى قتل أو ثقب أو حرق كله أو بعضه وكان غولا يضل الناس فى البرار أوخبل ، وعن ابن عباس إذا رأيتم الكوكب قد رمى به فتواروا فإنه يحرق ولايقتل ، وعن الكلبى إنهم سرية إبليس يرسلهم ليأتوه بخبر السماء ، قال الحسن تصيب الرمية أحدهم فيحترق فى أسرع من طرفة عين وقد علم أنه يحترق وإن له عذاب السعير ويسترقون السمع قبل بما بينهم وبين الملائكة من المناسبة بالجواهر أو بالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها واشتهر أنهم يتراكبون حتى يبلغوا السماء فيرمون بالشهب فلا تخطىء أبداً فيلقى الأعلى الكلمة لمن دونه وهكذا حتى تصل الأسفل وتلقى على الكاهن أو الساحر ويزيدون فيها مائة كذبة وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها لمن دونه ، وعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن الشياطين تقرب من السماء أفواجاً فينفرد المارد منها فيعلو ويسمع

فيرمى بالشهب فيقول لأصحابه وهو يلتهب إن الأمر كذا وكذا فتزيد الشياطين فى ذلك ، وروى أن الله سبحانه إذا أراد أمراً سبح حملة العرش فتستخبرهم الملائكة الذين يلونهم وهكذا حتى يصل الخبر ملائكة سماء الدنيا فتسترق الشياطين ، وروى أنه إذا قضى امراً ضربت الملائكة أجنحتها خضوعاً لأمره كسلسلة على صفوان فتسمعها الشياطين فترتكب للاسماع ويأتى كلام فى ذلك فى سورة الصافات وسورة الجن إن شاء الله ومن كتب :ولقد جعلنا- إلى قوله تعالى : رجيم،على فص أو جلد غزال وعلقها عليه رأى من القبول وسماع القول ما يسره من الملوك والسلاطين وغيرهم ولو حملتها امرأة أوصبى .

﴿ والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾بسطناها . ﴿ وَأَلْقَيْنا فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾أى جبالا رواسى أى ثوابت لتثبت وكانت على الماء تمد وقيل بعضها داخل فى الماء وبعضها طرف عليه﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أى أنبتنا الأَرض نوعاً ثابتًا من كل شيء يوزن فى المُعاملة وزنًا لعرتة من الثمار وغيرها كالزعفران والكيل داخل فى الوزن لأَن حقيقة الوزن التقدير والكيل تقدير هذا ما يظهر لى فى تفسير الآية ، وقال الجمهور موزون بميزان الحكمة مقدر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقص وعليه فإطلاق الوزن مجاز ووجهه أن الناس يعرفون مقادير الأشياء بالوزن وبه قال مجاهد وعكرمة ويقرب منه قول ابن عباس وابن جبير موزون

بمعنى معلوم ، وقال عكرمة فى رواية والحسن وابن زيد الضمير فى قوله وأنبتنا فيها للجبال والموزون ما يوزن من ذهب أو فضة ورصاص وحديد وكحل ونحو ذلك، ولامانع من أن يراد هذا مع عود الضمير للأرض لأن هذه المعادن لا تختص بالجبل ويجوز أن يراد بالضمير الأرض والجبال معاً وبالإنبات إنبات ما يصلح بالأرض ومايصلح بالجبل وإن قلت ما معنى إنبات الذهب والفضة ونحوهما قلت : معناه إظهار ذلك للناس فالمراد بالإنبات عموم الإظهار فصلح للشجرة والبقل والمعدن .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا ﴾ أى فى الأرض أو فى الجبال أو فيهما ، ﴿ مَعَايِشَ ﴾ بالياء لا بالهمزة لأن الياء فى مفرده أصل وقرئ بالهمزة شذوذاً وذلك تشبيه بما مدته زائدة كصحيفة والمعيشة ما لابد للإنسان به فى حياته من طعام وشراب ولباس ونحو ذلك وهو حاصل من الأرض والجبال كالثمار والنبات والماء والذهب والفضة ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ عطف على معايش كأنه قيل وجعلنا لكم فيها من لستم برازقين من خدم ومماليك وعيال والدواب والطير فإن لكم فيما ملكتم من ذلك نفعاً ولستم برازقيه كما تظنون والرازق هو الله ولو جرى الرزق على أيديكم وما واقعة على العاقل وغيره وقيل المراد العبيد والخدم والعيال فتكون واقعة على من يعقل وعن مجاهد المراد الأنعام

والدواب ، وعن الكلبى مالا تمونه ابن آدم من وحش وطير وغيرها مما لم يجر رزقه على يد ابن آدم ولا يصح العطف على الكاف خلافاً لابن مالك المجيز العطف على الضمير المجرور بلا إعادة الجار وخلافا لمجيزه بالفصل كما فى ضمير الرفع المتصل ولا على محل الكاف الذى هو النصب من حيث أنه معمول للجعل توصل إليه بالجار لأن هذا المحل لا يثبت فى الفصيح بأن يقال وجعلناكم فيها معايش خلافا لمجيز ذلك ولو كان لا يثبت فى الفصيح وتخصيص الكائنات بأزمان وأماكن وهيئات وكميات وخواص مع إمكان غيرها دليل على أن لها صانعا مختارا هو المستحق للعبادة لكمال قدرته وحكمته وبالغ فى ذلك بقوله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ إن نافية ومن صلة للتأكيد ﴿ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ جمع خزانة وهو الموضع الذى تخزن فيه الشىء للحفظ ،وقيل المراد مفاتيح الخزائن ،وقال ابن جريج المراد المطر لأنه سبب الطعام واللباس وعلى كل قول فالمراد فى الحقيقة الكناية والتمثيل المقدرة على إيجاد ما يحتاج إليه الخلق ولتشبيه مقدوراته بالأشياء المخزونة التى لا يحوج إخراجها إلى كلفة . وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده أن فى العرش تمثال ما خلق الله فى البر والبحر وإن ذلك هو تأويل وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ أى وما ننزل الشىء

مطرا أو غيره ﴿ إِلَّا بِقَدَرٍ ﴾ أى مقدار الكفاية ﴿ مَّعْلُومٍ ﴾ معلوم الكمية والهيئة لا يزيد فيهما ولا ينقص أو معلوم لنا أنه مصلحة وحكمة تعلقت به المشيئة كما يدل له الاختصاص بكمية وهيئة وزمان ومكان وخاصة مع إمكان غيرها ، وعن ابن عباس مامن عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه فى الأرض حيث يشاء ولا قطرة إلا ومعها ملك يسوقها حيث شاء الله .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ ﴾ وقرأ حمزة الريح بالإفراد على إرادة الجنس فهى فى المعنى كقراءة الجمهور والموجود فى القرآن جمع الريح حيث الرحمة وإفرادها حيث العذاب ألا ترى إلى هذه الآية وقوله ويرسل الرياح مبشرات ونحوهما وإلى قوله سبحانه : إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فأرسل عليهم الريح العقيم ونحو ذلك ولذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جاثيا على ركبتيه إذا هبت ريح اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ جمع لاقح بمعنى حامل ، فهو متعد شبه الريح التى جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر بنحو الناقة الحامل كما شبه ما ليس كذلك بالعقيم وفى كلام الزجاج إشارة لذلك ويدل له قوله تعالى حتى إذا أقلت سحابا ثقالا أى حملت ،روى أن اللواقح فى رياح الجنب وأنه ما هبت ريح الجنب إلا وانبعثت عين غدقة ، وعن ابن عباس لا تقطر قطرة إلا بعد

أن تعمل الرياح الأربع فيها فالصبا يهيج السحاب والشمال يجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وعن بعض يرسل الله جل جلاله الريح المبشرة فتعم الأرض ثم المثيرة فتثير السحاب ثم المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فيجعله ركاما ثم اللواقح فتكون ملقحة للسحاب أى محملة له الماء أى تجعل السحاب حاملا للماء وهذا الذى قاله هذا البعض يقضى إلى أن اللاقح بمعنى ملقح فهو متعد بالنظر إلى هذا المعنى ،والتحقيق فى هذا الوجه أن يقال أن فاعلا هنا للنسب أى ذات لقح بمعنى أن ألقح السحاب أى حمله للماء يكون بها فهو لازم وعلى هذا الوجه يقال شبه الريح بالفحل فكما تحمل الأنثى بالفحل تحمل السحاب الماء الريح ،وعن ابن مسعود يرسل الله الريح لتلقح السحاب فتحمل الماء ثم تمر به فتدره كما تدر اللقحة،وروى ذلك الوجه عن ابن عباس والحسن وقتادة وروى أن الريح تلقح السحاب والشجر،وعن ابن عمر الرياح ثمان أربع رحمة:المرسلات والمبشرات والناشرات والذاريات وأربع عذاب الصرصر والعقيم والعاصف والدبور وكان -صلى الله عليه وسلم- إذا عصفت الريح قال اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ جعلناه لكم سقيا وتشربون منه وتسقون به الشجر

والحرث والماشية يقال أسقى فلان فلانا عين كذا إذ جعلها له سقيا أو بمعنى سقيناكموه أى جعلناكم شاربيه ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ فى العيون والآبار والغدران بل نحن الفاعلون لذلك بعد إنزاله لكمال قدرتنا وحكمتنا فإن طبع الماء يقتضى الغور والذهاب فى التراب ومنعه الله من ذلك حتى أنه ليبقى فى الغدران أياما وشهورا أو فى الآبار والعيون سنين أو لستم بخازنين له ثم أنزلتموه حين شئتم بل نحن الخازنون له فى قدرتنا ونرسله متى شئنا .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ ﴾ ونوجد الحياة فى الجسم الذى لم تكن فيه ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ نزيلها مما هى فيه ويجوز أن يراد بالأحياء ما يعم حياة المبدأ وحياة المعاد ويجوز أن يراد ما يعم حياة الحيوان والنبات : وموتهما وليس قوله نحن مفيداً للحصر ولكن إمارة عليه هذا هو التحقيق خلافا لمن توهم ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ هذه الجملة تفيد الحصر والمعنى نحن لا غيرنا الباقون إذا ماتت الخلائق كلها فلا يبقى الملك بيد أحد سوانا وقيل المعنى نحن الوارثون للخلائق بتصييرنا إياهم إلينا بالإماتة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾ من تقدمت ولادته ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ أى من تأخرت ولادته وقيل من تقدمت ولادته أو موته ومن تأخرت ولادته أوموته . وعن ابن عباس من مات ومن

بقى وقال هو فى رواية عنه وقتادة من تقدم فى الخلق إلى اليوم ومن لم يخلق بعد وقال مجاهد المستقدمون من تقدم من الأمم والمستأخرون هذه الأمة والسين فى ذلك كله ليست للطلب ولا للتأكيد اللهم إلا تأكيدا عائدا للعلم وقال الحسن المستقدمين فى الطاعة والمستأخرون فيها وقال الأوزاعى المستقدمين للصلاة فى أول الوقت والمتأخرين لها إلى آخر الوقت،وقال مقاتل المستقدمين والمستأخرين فى صف القتال. وقال ابن عيينة من يسلم أولا ومن يسلم آخرا وقول الحسن يعمه ، وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حرض على الصف الأول فى الصلاة فازدحموا عليه وكانت بيوت قوم بعيدة عن المسجد فقالوا لنبيعن دورنا ونشترى دورا قريبة من المسجد لندرك الصف الأول، فنزلت الآية أى علمنا من تقدم للفضيلة ومن تأخر للعذر. وعن ابن عباس كانت امرأة حسناء تصلى خلف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا والله ما رأيت مثلها قط فكان بعض الناس يتقدم للصف الأول لئلا يراها وبعض يتأخر ليراها فإذا ركع أو سجد نظر إليها من تحت إبطه. قال ابن العربى رواه الترمذى وغيره وأراد بغيره النسائى ورواه ابن الجوزى ولم يذكر ابن عباس وذكر غير ابن العربى ذلك عن الترمذى والنسائى عن ابن عباس ولم يذكر قوله لا والله ما رأيت مثلها قط ،فإن صح ذلك فلعل

ذلك صدر من بعض المنافقين أو من الأَعراب الذين قرب عهدهم بالإسلام فإن كانت الآية مدنية فإن ابن عباس كان صغيرا أو مكية فإنه كان أصغر فلعل قوله ما رأيت مثلها تمييز منه ولو فى الصغر أو إخبار عما رواه منها بعد الكبر، وعن أبى هريرة أنه كان من الرجال فى قلبه ريبة فيتأخر لآخر صفوف الرجال ومن النساء من فى قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صف النساء لتقرب منهم فنزلت الآية فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وفيه خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ يجمعهم بعد البعث للجزاء وقوله هو إمارة للحصر المستفاد من خارج لا مفيد للحصر خلافا لما قيل وإن لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من دلائل كمال قدرته وعلمه دليل على صحة الحكم بحشره إياهم وإنه حكيم فى كل شىء على الإطلاق كما قال ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ أى متقن لما قال أو فعل وواضع للشىء فى موضعه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل شىء .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾ آدم وسمى من أنس الشىء بمعنى ظهر للبصر أو من أنس ضد الوحشة أو من نسى ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ طين يابس تسمع له صلصلة أى صوت إذا نقر كالذى يكون لأثر الماء المجتمع قال ابن عباس الطين الحر الطيب الذى إذا صب عليه الماء

تشقق وإذا تحرك تقعقع وعنه التراب الطيب الذى يقع عليه الماء ثم ينحسر فيتشقق ويصير مثل الخزف وقال الكسائى ومجاهد الطين المنتن من قولك صل اللحم إذا نتن، تضعيفه صلصل﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ طين تغير واسود من طول مجاورة الماء متعلق بمحذوف نعت لصلصال أو بدل من قوله من صلصال بدل كل﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ مصور من سنه الوجه بضم السين وتشديد النون مفتوحة بمعنى صورة الوجه، وقال أبو عبيدة مصبوب من السنن بمعنى الصب كأنه مصبوب فى قالب ليببس ويتصور كما هو كما يصب ما يذاب من الفضة فى قالب ليتصور وفسر ابن عباس ومعمر الحمأ بالتراب المنتن المستل والمسنون بالمتغير وفسر مجاهد وقتادة الحمأ بالمنتن المتغير ويجمع ذلك أنه قبضة من تراب بلت بالماء حتى أنتنت واسودت وتيبست حتى كان يتصلصل إذا نقر أو يتصلصل بدخول الريح فيه وكان أجوف. وعن ابن عباس خلق من طين لازب وهو اللازق الجيد ومن صلصال ومن حمأ مسنون وإذا لم نفسر الصلصال ولا الحمأ بالمنتن جاز تفسير المسنون بالمنتن من سنة الحجر بالحجر إذا حككته به فإن ما يسيل بينهما يكون مثلنا ويسمى السنين، وروى أنه خلق من جميع أنواع التراب الطيب والخبيث والأحمر والأسود والسهل والخشن .

﴿ وَالْجَانَّ ﴾ منصوب على الاشتغال بمحذوف يفسره الفعل بعده

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد والجان بالهمزة وهو أبو الجن مؤمنهم وشيطانهم كما أن آدم أبو البشر وإبليس من ذرية الجان أعاذنا الله منه. وقال قتادة وعياض الجان إبليس وقيل الجن أبو الجان وإبليس أبو الشياطين وفى الجن مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويموتون والشياطين ليس فيهم مسلم ولا يموتون إلا إذا مات إبليس. وسئل وهب بن منبه فقال هم أجناس شتى منهم ويولد له ويأكل ويشرب ومنهم من هو كالريح لا يلد ولا يأكل ولا يشرب وهم الشياطين والصحيح أن الجن اسم عام للجنى المؤمن والمنافق والجنى الشيطان المشرك وأبوهم واحد كلهم يشملهم الاجتنان وهو الاستتار كما أن البشر اسم عام لبنى آدم كلهم من البشرة وهى الظهور ويجوز أن يراد بالجان جنس الجن كما يجوز أن يراد بالإنسان جنس الإنسان، فإنه لما كان الجنس متفرعاً عما خلق منه الأصل الذى هو آدم والجان صح أن يطلق عليه أنه خلق مما خلق وأصل وهو الصلصال والنار ، والمؤمنون من الجن يدخلون الجنة ، ولو قلنا إن إباهم إبليس وقيل يدخلونها لأنهم ليسوا بأولاد إبليس وقيل لا لأنهم أولاده ولا شك أن للجن ذرية بنص القرآن ، ولما أراد الله أن يخلق لإبليس-أعاذنا الله منه-نسلاوزوجة ألقى عليه الغضب فطارت منه شظية من نار فخلق منها امرأته وتسمى طرطبة وقيل هذا اسم حاضنة أولاده وقيل خلق فى فخذه الأيمن

ذكراً وفى الأيسر فرجاً ويطأ هذا بهذا ويخرج له كل يوم عشر بيضات
وقيل باض ثلاثين بيضة عشرة فى المشرق وعشرة فى المغرب وعشرة
فى وسط الأرض فخرج من كل بيضة جنس مخالف للآخر كالحية
والعقرب وغيرهما بأسماء مختلفة وكلهم عدو لبنى آدم إلا من آمن،
وقيل باض خمس بيضات والصحيح أنهم يأكلون ويشربون بمضغ
وبلع لما ورد أنهم يأكلون ويشربون بشمائلهم وأنهم يأكلون ويشربون
مما يغط ويأكلون الفول وإن من أكل أو شرب بلا ذكر الله
أكلوا وشربوا معه ثم إن ذكر تقيأوا وإن العظم المذكور اسم الله عليه
أى عند الذبح يصير لهم لحماً وحمل ذلك على المجاز لا دليل عليه
بل من نفى أكلهم وشربهم جميعاً قوله باطل ، ومن نفى عن نوع
احتمل وقيل أكلهم وشربهم اشتهاء لا مضغ ولا بلع ، قال بعض المحققين
من نفى أكلهم وشربهم الحقيقيين حمار ،ومن زعم أنهما شم لم يشم
للعلم رائحة واتفقوا أن نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبعوث
إليهم واختلفوا فى رسلهم قبله. والصحيح أنهم من الإنس وممن بعث إليهم
يوسف عليه السلام ـ كما قال ابن عباس ، ومن بعث إليهم سليمان
وقيل رسلهم منهم ويختلطون بالإنس عند إرادة قيام الساعة وفى
المحشر وهم مرئيون ويحتمل أن لا نراهم كما فى الدنيا ، وجزم بعضهم
بأن الإنس يرون الجن فى الجنة ولا يراهم الجن عكس ما فى الدنيا

والصحيح أنهم مكلفون بأصول الشريعة وفروعها ويروون العلم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن المسلمين بحضور المجالس من غير أن يراهم الناس. وقيل يراهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمن رأى منهم النبي - صلى الله عليه وسلم - وآمن به صحابي على الراجح وقيل كلفوا بالتوحيد وأركان الإسلام فقط وزعمت الحشوية أنهم مضطرون فى أفعالهم لامكلفون، والصحيح إثابة المطيع منهم وهو مذهبنا ومذهب مالك والشافعي وأحمد ويوسف وأبي محمدصاحبي أبي حنيفة ،فقال أبو حنيفة ؛ لاثواب لهم ولكن يتلذذون فى الجنة بالتهليل والتسبيح ويكونون فى صحارى الجنة قيل هم أصحاب الأعراف،وقيل بالوقف ، وقيل إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قيل لهم كونوا تراباً. فيقول الكافر : ياليتنى كنت تراباً ، ولا خلاف فى عقل الكافر منهم ، قيل الجن ثلاثة : من له أجنحة يطير ، ومن كحيات وعقارب ، ومن عليه الحساب والعقاب ، وفى قول بدلا لثالث ومن يحل ويرحل ومساكن المؤمنين منهم القرى والجبال والصحارى والمشركين بين الجبال والبحور وقيل البياض الذى بين الزرع لنهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن البول والتغوط فيه لأنه مسكنهم وأكثر ما يوجدون فى مواضع النجس والحمام والمزبلة . والصحيح أنهم كلهم المؤمن والكافر يموتون فى الدنيا مثلنا وأعمارهم طويلة ويجوز سلوكهم فى جسد الآدمى

والحيوان عندنا ، وعند الأشعرى خلافاً للمعتزلة قائلين إنه لا يكون روحان فى جسد واحد ويرده أنه لا مانع من ذلك إذا كان كل روح منهم بجسم كما هنا وقوله-صلى الله عليه وسلم- إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن غفل التقم قلبه وإنه يجرى مجرى الدم وأنه جئ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمجنون فضرب ظهره ، وقال اخرج ياعدو الله فإنى رسول الله .

قال أحمد: من قال الجن لاتدخل فى جسد ابن آدم كاذب بل تدخل وتتكلم وعامة ما يقول أهل العزائم شرك فاحذره ، كما قال التلاتى : ويجوز جلبهم وزجرهم بما يجوز ويحل التزوج من مؤمنيهم وتزويجهم منا ، وقيل : لا ،قلت يكره لأنه ربما أدى ذلك إلى زنى للتخييل فى عقد النكاح بغير الزوج أو الزوجة وفى أمر الجماع ولما فى ذلك من خفاء يطلع فيه على الحقيقة إذا قال : تزوجت من الجن وهذا ولدى منهم ، أو قالت ذلك ، وربما تزنى وتقول : تزوجت جنياً لا ترونه وزعمت الملحدة أنهم لا يتلذذون بنكاح ولا بغيره بل لا يفعلون ذلك وهو خطأ وإن تزوج آدم جنية وتزوجها جنى فهى فى الجنة لأولهما أو لآخرهما أو تختار أو تقرع بينهما أقوال وهذا الخلاف أيضاً فى ذات الزوجين أو الأزواج من الجن أو الإنس ، وفى الجنية ذات الزوجين أو الأزواج من الإنس أوالجن . وروى أن المرأة لأحسن أزواجها خلقاً فى الدنيا

أى تختاره ، وقيل إنما تختار إن لم تمت فى عصمة واحد وإلا فلأولهم والتى ماتت فى عصمته أو مات عنها ولم تتزوج بعده للأخير وجمع بعض أنها لأولهم إن ماتوا ولم يرجح أحدهم الآخر فى حسن الخلق وللآخر إن طلقها ولم ترجح واحداً ولأحسنهم إن تفاوتوا ، وقيل محل الخلاف فيمن لم تمت فى عصمة وإنها لمن ماتت فى عصمته إجماعاً والخلاف فى غير أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنهن له إجماعاً . ﴿ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل آدم بألفى عام . ﴿ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ أى من نار الحر شديد النافذ فى منافذ البدن ، قيل نار الدنيا هذه جزء من سبعين جزءاً من النار التى خلق الله منها الجان فى الحرارة ونسب هذا لابن مسعود وقال أبو صالح نار السموم نار لا دخان لها تكون منها الصاعقة وهى بين السماء والحجاب فإذا أراد الله خرقت الحجاب فالهدة المسموعة هى من خرقه وهم أجسام شفافة مولفة وأجيز أن تكون كثيفة وقيل شفافة بسيطة ومن زعم أنه رآهم وليس نبياً بطل الشافعى شهادته أى إن لم يدع أنه رآهم على غير صفتهم لورود الخبر أنهم يتصورون على غير صفتهم وذلك بالتخييل،وإن قلت إذا قلنا إنها بسيطة فكيف تحلها الحياة ، قلت : لا يمتنع خلق الحياة فى البسيط ولكن إن الجن مركب الحق كان الإنسان فهى أقبل للحياة ولا سيا أن الجزء الغالب فيها النار والنار أنسب بالحياة ألا تراها كيف

تتحرك وتنخفض وتعلو ، وأما الإنسان فالغالب فيه التراب فذكر فى كل ما هو الغالب وإلا فكل من الجن والإنس مركب من التراب والماء والنار والهواء كذا قيل فإذا كان الله جل جلاله خلق الإنسان من تراب والجان من نار فكيف لا يقدر على بعثهم كما كانوا فى الدنيا ويجوز أن تكون السموم نوعاً من النار فتكون الإضافة عام لخاص وهى بيانية أو تكون كالإضافة فى مسجد الجامع على أوجهه ﴿ وَإِذْ ﴾ أى واذكر يامحمد وقت ، ﴿ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً ﴾ جسما كثيفاً ظاهرا ، ﴿مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾عدلت خلقه وهيئته لنفخ الروح فيه ،﴿ وَنَفَخْتُ ﴾ أجريت ،﴿ فِيهِ ﴾ شيئاً ﴿ مِن رُّوحِى ﴾أى من الروح الذى هو مخلوق ومملوكى وهذه الإضافة تشريف وإجراء الروح فيه إحياء له وأصل النفخ إجراء الريح فى جوف الجسم والمراد هنا تحصيل الحياة كما علمت ولكن عبر عنه بالنفخ لشبهه به إذ يتعلق الروح أولا بالنجا اللطيف المنبعث من القلب ثم يدخل سائر البدن﴿ فَقَعُوا ﴾ فعل أمر من الوقوع حذفت واوه كما حذفت من المضارع﴿ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾سجود تحية بانحناء وسجود الله إلى جهته تعظيماً له .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾تأكيد مانع للتخصيص ومصرح بالإحاطة وكذا قوله ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ وزعم بعضهم أن التأكيد بقوله أجمعون

للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعة ويريد أنه لو كان كذلك لكان حالا منصوباً وإن العرب تقول جاء القوم كلهم أجمعون ولو جاولوا واحداً بعد واحد لا بمرة ،وقول بعض إنه توكيد يفيد إفادة الحال تخليط لأن كونه توكيداً صناعياً ينافى معنى الحال وإنما يصح مثل ذلك فى الحال وهو أن ينصب الاسم على الحالية ويفيد معنى التوكيد لا العكس نحو جاءوا جميعاً .

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾استثناء منقطع لأن إبليس ليس من الملائكة ويجوز أن يكون متصلا تنزيلا له منزلة واحد منهم إذ كان فيهم وعابداً بعبادتهم ،وزعموا عن ابن عباس أن إبليس من حى من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن من مارج من نار والملائكة من نور وإن جماعة من الملائكة أمروا بالسجود فأبوا فأحرقهم الله بنار ثم قال لجماعة أخرى من الملائكة أحدهم إبليس اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس وهذا كذب . عن ابن عباس -رضى الله عنه- كيف يصف بعض الملائكة بالامتناع من السجود والله جل جلاله يقول فى غير آية سجد الملائكة كلهم أجمعون ، قال فى السؤال الرابع والعشرين من السؤالات ما معناه أن الجان هو إبليس وهو أبو الجن وأنه ليس من الملائكة وإنما استثنى من الملائكة لأن الأمر شمله معهم كما أمرنا مع الجن وليسوا منا ولسنا منهم ، وإن ذلك رواية أبى صالح عن ابن

عباس وإن الشيخ أبا يحيى إسماعيل بن يحيى قال : انظر إليهم أى إلى المخالفين أو إلى الطلبة مبتدئين وجدوا فى كتاب أن الجان أبو الجن رجل صالح فأخذوها بل أبوهم إبليس وإن من جعله من الملائكة أشرك .اهـ ، باختصار وتصرف وإذا جعلنا الاستثناء منقطعاً كما أن قوله ﴿ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾لآدم متصلا بقوله إلا إبليس كأنه قيل لكن إبليس أبى،وإذا جعلناه متصلا كانت الجملة جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل هلا سجد. فقال : أبى استكباراً والمراد بالساجدين الملائكة من حيث إنهم سجدوا .

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى:﴿ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى مالك فى أن لا تكون مع السَاجِدِين لآدم ، والمعنى ما غرضك فى عدم السجود فلا نافية ويجوز أن يكون المعنى ما منعك أن تسجد فهى زائدة .

﴿ قالَ ﴾ إبليس﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾هذه لام الجحود وهى مؤكدة للنفى قبلها كأنه قيل لايصح منى وينافى حالى أن أسجد﴿لِبَشَرٍ﴾جسم كثيف متباطىء لا يقدر على ما أقدر عليه من الطيران والسريان فى الأجسام وغيرها لأنى روحانى بخلافه . ﴿ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾وهو أخس العناصر الأربعة وخلقتنى من نار وهى أشرف فى نفسه لاعتبار النوع والأصل فى ضمن تنقيص آدم باعتبار وصرح التشريف زيادة

على التضمين كما حكى كلامه فى غير هذه الآية وقد مر الرد عليه فى الأعراف ولم يدر الخبيث أن المفضل من فضله الله. ﴿ قَالَ ﴾ الله جل جلاله.

﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ من الجنة أو من السماء أو من جماعة الملائكة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من رحمة الله وعبر بذلك لأن من يطرد يرجم بالحجارة ومرجوم بالشهب إذا قاربت السماء وهذا وعيد يتضمن أن شبهته فى تفضيل نفسه على آدم باطلة غير ملتفت إليها حيث أمر بالخروج وألزم الرجم.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ الطرد والإبعاد عن رحمة الله وإذا فسر رجيم بهذا فهذه الجملة زيادة تأكيد فى الطرد والإبعاد، وإذا فسر بالرجم بالشهب فلا إشكال، ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يوم الجزاء وهو يوم البعث فإنه آخر مدة يلعنه فيها أهل السماوات والأرض لعناً يناسب زمان التكليف ويلعن بعد ذلك لعنة أخرى تنسى هذه لعنة إبعاد أو لعنة عذاب فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين أو المراد أن عليك اللعنة مجردة عن العذاب إلى يوم الدين فإذا كان يوم الدين قرنت بعذاب ينسيها أو المراد بقوله إلى يوم الدين الكناية عن الدوام لا الحد بيوم الدين وكنى به لأنه أبعد غاية يضربها الناس فى كلامهم.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أخرنى أى إن أخرجتنى وألزمتنى الرجم والعنة

فانظرنى عن الموت ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ نعت اليوم والرابط محذوف أى يبعثون فيه طلب أن لا يموت إلى يوم البعث فتتسع له الفسحة فى الإغواء وينجو من الموت لأنه لا موت بعد البعث ، فأجابه الله جل جلاله إلى اتساع الفسحة ويموت عند قيام الساعة لا إلى أن لا يموت نا فى قوله .

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ عند الله أنه أجلك وهو وقت نفخة الموت وهى النفخة الأُولى والثانية نفخة البعث وذلك نفختان لا غير وقيل هى الثانية والأُولى نفخة الفزع فهن ثلاث والمعلوم عند الله بأنه وقت موت الخلق كلهم أو المعلوم عند الخلق بذلك ولو جهلوا متى هو والذى علمه الله وحده متى هو وإضافته اليوم للوقت أضافت عام لخاص وهى بيانية ويجوز أن يكون يوم غير الوقت بأن يجعل اليوم بمعنى اليوم الدنيوى الذى يقع فيه الموت ويجعل الوقت مابعده ، ويجوز أن يراد باليوم فى المواضع الثلاثة يوم القيامة فعبر أولا بيوم الدين تهديد لإبليس بأنه يوم يجازى فيه ، وثانياً بيوم البعث إذ به يحصل العلم بانقطاع التكليف والإياس من التضليل ، وثالثاً بالمعلوم لوقوعه فى الكلامين ، قاله القاضى وإن قلت قد ذكرت أن لا موت يوم البعث وإذ أنظر إلى يوم الوقت المعلوم الذى هو يوم البعث فلا موت ، قلت : يحتمل أن يكون يوم الوقت المعلوم وهو يوم القيامة ويوم البعث اسماً لوقت موت الناس إلى البعث وما بعد ذلك

فيموت أول ذلك مع الخلق ويبعث معهم فى خلال ذلك الوقت فيكون الإنظار إلى آخر أيام التكليف وهو آخر الوقت المتصل بقيام الساعة والغاية خارجة عن المغيبات وليس خطاباً لله إياه بلا واسطة منصباً له بل إهانة وإذلال كما يقول اخسئوا فيها ولا تكلمون وانتظاره إياه إلى يوم الوقت المعلوم زيادة فى بلائه وشقاوته لا إكرام له .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾قال أبو عبيدة : وغيره الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم هو قوله ،﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ المعاصى وحب الدنيا ، ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾أى فى الدنيا وذكرها لأنه حين الخطاب كان فى السماء أى أقسم بإغوائك إياى لأزينن وينعقد القسم باسم الله وصفته نحو والله لأقومن وبعزتك لأقعدن وفى انعقاد القسم بفعله خلاف فقيل ينعقد فتلزم الحانث كفارة مرسلة وقيل لا ينعقد فلا تلزم ويجوز أن تكون الباء سببية والقسم محذوف أى أقسم بسبب إغوائك إياى بك أو بعزتك لأزينن ويجوز أن يكون ذكر الأرض للتعميم فى التزيين أى لأضلن بتزييني كل من على وجه الأرض من الثقلين لكن لا يؤثر فى بعض ،أو ذكرها إشارة إلى أنها دار الغرور كقوله تعالى أخلده إلى الأرض أى يوقع بهم التزيين فى الأرض حتى يختاروها على الآخرة وإشارة إلى أنى قادر على التزيين لآدم فى الجنةوأنه على التزيين لهم فى الأرض أقدر ومعنى إغواء الله إياه خذلانه إياه ، ومن قال من المعتزلة :

لأَن العبد خالق لأَفعاله وموجد لما يؤول الإغواء بالنسبة إلى الغى أو بالتسمية غاوياً أى بما نسبتنى إلى الغى أو بما نسبتنى غاوياً كقولك أفسقته أى نسبته إلى الفسق أوسميته فاسقاً أو بالتسبب له فى الغواية بأَمره إياه بالسجود لآدم عليه السلام وتعتذر المعتزلة وبعض الناس عن إمهال الله إياه مع أنه سبب لزيادة غيه وإغواء بنى آدم بأَن الله تعالى قد علم منه وممن تبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار ولو لم يمهلهم وإن فى إمهاله تعريضاً بمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب ، قلنا خالق أفعال العبد هو الله جل جلاله ولا خالق لشيء سواه وله أن يفعل ما يشاء من إرشاد وإضلال وغيرهما من سائر الأَفعال وكل ما فعل حكمة ،وليس إضلاله جوراً لأَنه ليس جبراً بل من ضل فقد اختار لنفسه الضلالة ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ ألقيهم فى الغواية بالوسوسة . ﴿ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى الذين أخلصتهم أى اخترتهم لتوحيدك وعبادتك فلا أقدر على إغوائهم ولو تسببت فى إغوائهم جهدى ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بكسر اللام فى كل القرآن أى الذين أخلصوا أعمالهم لله أو نفوسهم له بأَن استعملوها فى العمل الصالح والاعتقاد الحسن . لا يسمى الفعل خالصاً إلا إذا كان تاماً لله وحده وأخطأَ من قال : إنه إن كان لله وغيره أثيب عليه أن ترجح جانبه الذى لله .

﴿ قَالَ ﴾ الله عز وجل ،﴿ هَذَا ﴾ الإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء

وهو نجاة المخلصين من إغوائه أو إلى الإخلاص ، ﴿ صِرَاطٌ ﴾ طريق ، ﴿ عَلَيَّ ﴾متعلق بمحذوف نعت لصراط كما قرىء على بكسر اللام وضم الياء منونة أى مرتفع عال علو شرف ، ﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾ لاعوج فيه نعت ثان لصراط ومعنى كون النجاة أو الإخلاص صراطاً على الله أنه حق يراعيه أو حق مسهله لمن يشاء كقوله عز وجل إن علينا للهدى. وقوله وعلى الله قصد السبيل ويجوز أن تكون الإشارة إلى المذكور من الإغواء والنجاة منه أى لا يجرى واحد منهما بغير إرادتى وأمرى وعلمى ويجوز أن تكون الإشارة الإغواء بمعنى أن إغواءك عبادى طريقه على أى أنا له نرصاد أجازيك عليه بدون اعوجاج بالجزاء .

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾قوة تجبرهم بها على الغواية ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾استثناء منقطع لأنه لا قوة له يجبر بها أحداً على الغواية أى لكن من اتبعك من الغاوين فقد تبعك باختياره اوسوستك له فيعذب كما تعذب فهذا تكذيب له فيا أوهمه أن له سلطانا على غير مخلصين ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا على أن يكون معنى السلطان القوة بتأثير الوسوسة فقط فيكون ذلك تصديقاً له فى قوله إلا عبادك منهم المخلصين وأصل هذا الكلام على هذا لا تأثير لإغوائك فى عبادى المخلصين وعدل عن هذا إلى قوله : إن عبادى ليس لك عليهم ... الخ لتعظيم المخلصين وإقناط الشيطان منهم ولا دليل فى

الآية على جواز استثناء الأكثر ولو كان الأكثر الغاوين وهم تسعمائة وتسعة وتسعون من كل ألف والأقل الناجون وهم الواحد من كل ألف لاحتمال كون الاستثناء منقطعاً على كيفية المذكورة أولا أو على كيفية أخرى مثل أن يراد بعبادى العباد المخلصين .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾لموضع الوعد للمتبعين لك الغاوين وقيل الضمير لإبليس والمتبعين له على طريق الالتفات﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيداً للهاء وهو بمعنى مجتمعين فيكون حالا وناصبها معنى الإضافة لأن موعداً اسم مكان وهو لا يعمل أو ناصبه موعد على أنه مصدر ميمى بتقدير مضاف أى ذات وعدهم .

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾يدخلون منها كلها الكثرتهم وهى سبع طبقات كل طبقة تحتها أخرى إلى الأخيرة ولكل طبقة باب من سقفها لا من جانب ، وكذا قال على وابن جريج ، ويجوز أن يراد بالأبواب الطبقات ، ﴿ لِّكُلِّ بَابٍ ﴾من الأبواب السبعة . ﴿ مِّنْهُمْ ﴾من المتبعين الغاوين متعلق بمحذوف حال من ضمير الاستقرار فى قوله لكل وأصلة أنه نعت لجزء لا حال لجزء لأن الصحيح أن الحال لا يجىء من المبتدأ ولا حال من الضمير فى مقسوم لأن النعت لا يعمل فيما قبل المنعوت ، ﴿ جُزْءٌ ﴾وقرأ أبو بكر بضم الزاى كالجيم وقرأ الزهرى وأبو جعفر جر بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الزاى ثم الوقف عليه بالتشديد

ثم إجراء الوصل مجرى الوقف . ﴿ مَّقْسُومٌ ﴾ أى لكل باب نوع منهم معدود لهم فى القسمة مهيأ له بحسب مراتبهم فى المتابعة فأعلاها جهنم لعصاة الموحدين والثانية لظى لليهود والثالثة الحطمة للنصارى والرابعة السعير للصابئين والخامسة سقر للمجوس والسادسة الجحيم لعبدة الأصنام ومن جحد الله سبحانه وتعالى والسابعة الهاوية للمنافقين الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الشرك هذا تقسيم حسن لا بأس به وأما الذين نسميهم منافقين بفعل كبائر غير الشرك فهم عصاة الموحدين المذكورون ولهم جهنم وربما أفاد كلام بعض الأصحاب أنهم فى الهاوية مع المنافقين الذين أسروا الشرك وأظهروا الإسلام لقوله تعالى : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » والظاهر عندى أن المنافقين فى هذه الآية من أسر الشرك وأظهر الإسلام ، وقال الضحاك : الثانية للنصارى ، والثالثة لليهود وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الدرك الأسفل للموحدين العاصين ، قال : جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للعاصين الموحدين قلت : وجهه أن الله سبحانه وتعالى أطلعهم على التوحيد فكانت نعمته عليهم أعظم فكان العقاب عليهم أغلظ إذا لم يوافوا بشكرها وقيل جهنم لمشرك العرب والهاوية وهى الدرك الأسفل للمنافقين المشركين أو موحدين وأخرج ابن مردويه عن أنس قال :

قال رسول الله : ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله تعالى : لكل باب منهم جزء مقسوم جزاء أشركوا وجزاء شكوا فى الله وجزاء غفلوا عن الله » يشير إلى أن انحصار العدد فى السبعة الانحصار المهلكات فيها بالركون إلى القوة الشهوية والقوة الغضبية ، وأخرج الترمذى واستغربه عن ابن عمر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجهنم سبعة أبواب ، بَابًا منها لمن سل السيف على أُمتى ، أو قال : على أُمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾أى الذين حذروا الشرك والمعاصى والإصرار عليها وإذا فعلوا ذلك تابوا عنه فإن الله يغفر لهم ولو ماتوا على صغائر غفلوا عن التوبة عنها أو نسوها أو جهلوها أو اعتقدوا التوبة عنها فماتوا قيل بلا إصرار ، وعن ابن عباس : اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب تكفرها الصلاة وغيرها ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾فى وسط بساتين وأنهار من ماء وخمر ولبن وعسل بيَان ذلك أن يكون منزل ولى الله داخل بستان ومن جوانبه بساتين وأن يكون الأَنهار من جوانبه وأمامه وخلفه ويحتمل أن تكون هذه العيون غير العيون الكبار التى فى الجنة يختص كل واحد من أهل الجنة بعيون ويحتمل الاشراك لأَنهم قد طهروا من الحقد والحسد وليس المراد كما قيل أن ذلك توزيع ، وأن لكل واحد جنة واحدة وعين واحدة بل لكل واحد جنات وعيون ، وقرأ

غير نافع وحفص وهشام وأبى عمرو بكسر عين عيون والعيون حيث وقعا فى القرآن . ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾مفعول لقول محذوف مستأنف أو حال أو نائب لذلك القول أى قيل لهم أو مقولا لهم أو قال الله لهم أو قال لهم بعض ملائكته ادخلوا الجنات والعيون والحال ماضية محكية وقرأ الحسن أدخلوها بقطع الهمزة مضمومة وكسر الخاء على البناء للمفعول فالجملة على هذه القراءة مستأنفة أو حال بنفسها بلا تقدير قول وعلى هذه القراءة لا بكسر لتنوين عيون ،﴿ بِسَلَامٍ ﴾ متعلق بمحذوف حال والباء بمعنى مع ،أى ثابتين مع سلامة من الموت والمرض والحزن والقروح وسائر الآفات أو أدخلوها ثابتين مع تسليم منهم يدخلون قائلين لمن يليهم من الملائكة وأزواج وخدم: سلام عليكم أو ثابتين مع تسليم الملائكة عليهم ،﴿ آمِنِينَ ﴾ حال مؤكدة أن فسر السلام بالسلامة وموسسة أن فسر بالتسليم وصاحب الحال الأولى أو صاحبها ضمير الاستقرار فى الأولى .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ حقد كان بينهم فى الدنيا، روى أنهم يشربون من عين تحت الشجرة فى باب الجنة ويغتسلون من أخرى تحتها فتجرى عليهم نضرة دائمة ويخرج ما فى بطونهم من أذى وحقد وحسد . وروى أنهم يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار بعد ماخلصوا فيقتص بعض من بعض مع أنهم ماتوا تائبين مخلصين

لما عليهم من حقوق أو غير متوصلين للخلاص لعدم المال أو ما به الخلاص أو تائبين فى الجملة ناسين لحقوق مخصوصة فإن الله جل جلاله يرضى عنهم خصومهم ومع هذا يقتصون ليكون أشد ذهابا للحقد ، قال : وينصرفون إلى منازلهم فى الجنة وما هم فى الدنيا أعرف لمنازلهم منهم . لمنازلهم فى الجنة ، قال بعضهم : ما يشبههم ألا أهل الجمعة انصرفوا من جمعتهم إلى منازلهم ، وقيل المعنى نزعنا ما من شأنه أن يكون فى صدورهم من التحاسد على الدرجات فى الجنة وألقينا فيها التوادد وسمى الحقد غلا لأنه داخل فى القلب كامن فيه ، يقال : غله فانغل وتغلغل أى أدخله فدخل وبالغ فى الدخول ﴿ إِخْوَانًا ﴾فى المودة والمحبة حال من ضمير الاستقرار فى قوله : فى جنات أو من الواو فى ادخلوها أو من الضمير المستتر فى آمنين أو من الهاء فى صدورهم ولو كانت مضافاً إليها لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه أى ما ثبت فى صدورهم حال كونهم إخواناً وأخوة على هذا الوجه الأخير واقعة فى الدنيا وهى أخوة دين مستصحبة بعد ، أو المراد وقوعها فى الآخرة بما فى الدنيا من التوافق فى الدين على تقدير أن فيهم غلا ولو بعد البعث وهو غل طبعى غير الغل المؤاخذ به واقتصر ابن هشام على أنه حال من الهاء ، ﴿ عَلَى سُرُرٍ ﴾ حال جمع سرير وهو الكرسى يوضع على جهة التعظيم والتشريف وهو عال مرتفع مشتق من السرور وهو الفرح .

﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ حال ويجوز كون على سرر نعتاً لإخواناً ومتقابلين نعت ثان أو حال من ضمير الاستقرار فى قوله على سرر ويجوز أن يكون على سرر متعلقاً بمتقابلين أو بمحذوف حال من المستتر فى متقابلين ذكروا أنهم على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية وإذا أراد أحدهم أن يلقى صاحبه ساربه سريره فيلتقيان ويتحدثان ولا ينظر أحدهم قفا صاحبه لدوران الأَسرة بهم .

﴿ لَايَمَسُّهُمْ ﴾ لايلحقهم ، ﴿ فِيهَا ﴾ فى الجنة . ﴿ نَصَبٌ ﴾ تعب لعدم ما يوجد التعب من تصرف فى الحوائج والكسب والجملة مستأنفة أو حال صاحبها واحد مما ذكر أو صاحبها الضمير المستتر فى متقابلين ، ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ بل يحيون أبداً ويقيمون فيها أبداً وإنما تتم النعمة بالخلود ، وإنما قال مخرجين ولم يقل خارجين ، لأنه لا يتوهم متوهم أنهم يريدون الخروج بأنفسهم كما قال الله جل جلاله « لا يبغون عنها حولا » فضلا عن أن يحتاج الكلام إلى نفى ذلك وإنما يمكن أن يتوهم أحد أن الله قد يخرجهم فنفى ذلك .

﴿ نَبِّئْ ﴾ أعلم ، ﴿ عِبَادِى أَنِّى ﴾ وسكن الياءين غير نافع وابن كثير وأبى عمرو أو أخبر عبادى بأنى ﴿ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب منهم ،

كما قال ابن عباس : ففى ذالك دليل على أنه لم يرد بالمتقين من لم يفعل ذنباً قط .

﴿ وَأَنَّ عَذَابِى ﴾ لمن لم يتب ﴿ هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ الموجع وهذا تقرير لقوله وإن جهنم لموعدهم أجمعين كما أن قوله أنى أنا الغفور الرحيم، تقرير لقوله إن المتقين فى جنات وعيون ولم يقل وأنى أنا المعذب العذاب الأليم، كما قال : أنى أنا الغفور الرحيم ترجيحاً للوعد على الوعيد وتأكيداً له ، روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال : أتضحكون وبين أيديكم النار ، فنزل نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم ، وقال : أتقنط عبادى ، وأضاف العباد لنفسه تشريفاً كما أنه لما أراد تشريف نبيه بالإسراء لم يزد على أن سماه عبداً . سبحان الذى أسرى بعبده ، وبالغ فى المغفرة والرحمة بصفتى المبالغة فعول وفعيل وبأن وبأنا قيل وبالحصر بتعريف الطرفين قال – صلى الله عليه وسلم – خلق الله مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين وأرسل واحدة لعباده ، فلو علم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو علم المؤمن بما عنده من العذاب لم يأمن النار ، وفى رواية لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لنجع نفسه أى قتلها ، وفى الجمع بين ذكر المغفرة والرحمة ، وذكر العذاب تعديل فى طريق

الخوف والرجاء وأشهد عليهما رسوله تأكيداً لهما معاً . قال الغزالي : ومن الآيات اللطيفة الجامعة بين الخوف والرجاء قوله سبحانه نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وإن عذابي هو العذاب الأَليم لئلا يستولي عليك الرجاء بمرة وقوله شديد العقاب مع قوله قبل غافر الذنب وقابل التوبة وقوله بعد ذي الطول فذكره بعد ذكر غفران الذنب وقبول التوبة لئلا يستولي عليك الرجاء وذكر بعده الطول لئلا يستولي عليك الخوف وأعجب من ذلك قوله تعالى :ويحذركم الله نفسه ،ثم قال والله رءوف بالعباد وأعجب منه قوله تعالى : من خشي الرحمن بالغيب ،فتعلق الخشية بالرحمن دون شديد العقاب أو الجبار أو المنتقم ونحو ذلك تخويفا في تأمين وتحريكا في تسكين انتهى بتصرف .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾عطف على نبيء عبادي وفائدته أن يعتبر والتلويح بالسلامة دنيا وأخرى إن تابوا والتبشير بخيرهما ولو فعلوا ما فعلوا إن تابوا وعدم القنوط كما جرى لإبراهيم وتنجيتهم كآل لوط وإهلاكهم كقومه وامرأته إن أصروا ﴿ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهم اثنا عشر ملكا أحدهم جبريل أو عشرة أو ثلاثة وأصل الضيف مصدر بمعنى الميل والإضافة بمعنى الإمالة ولذلك يطلق على الجماعة كما هنا وعلى ما دونها والمذكر والمؤنث بلفظ واحد .

﴿ إِذْ ﴾متعلق بمحذوف حال من ضيف محكية أو بدل من ضيف

اشتمال ولو كان عن لا يدخل على إذ اعتقادا فى الثانى لما لم يغتفر فى الأول﴿ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ليبشروه بالولد وإهلاك قوم لوط وذلك فى ذهابهم إلى إهلاكهم ﴿ فَقَالُوا سَلَاماً ﴾سلمت مما تكره سلاما أو نسلم عليك سلاما بلفظ الإخبار والقصد إن شاء التحية أو ذكروا لفظ سلام بأن قالوا سلام عليك﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم﴿ إِنَّامِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ خائفون منكم والوجل اضطراب النفس لتوقع ما يكره وهو نوع من الخوف وإنما خافهم لأنهم دخلوا بغير استئذان أو فى غير وقت الدخول أو لأنه قرب إليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأكلون وكانت عندهم العلامة المؤمنة أكل طعام صاحب المنزل وكذا هو فى غابر الدهور أمنة للنازل والمنزول عليه .

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ لاتخف وفتحت الجيم ولم تكسر فتثبت الواو والفعل من باب فرح فكانت الصفة وجلا بواو مفتوحة فجيم مكسورة كما فى قوله إنا منكم وجلون والمصدر الوجل بفتحهما وقرأ الحسن لا توجل بضم التاء وفتح الجيم مبنيا للمفعول من وجله بمعنى أخافه وقرىء لا تواجل من واجله بمعنى أوجله مبنياً للمفعول أيضاً وقرىء لا تأجل لقلب الواو ألفاً ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ استئناف فى معنى التعليل المنهى عن الوجل فإن من يبشرك لا تخاف منه وقرأ حمزة بفتح النون

وإسكان الباء وضم الشين ﴿ بِغُلَامٍ ﴾ إسحاق عليه السلام ﴿ عَلِيمٍ ﴾ كثير العلم بالأحكام والشرائع وهو غلام وقيل عليم إذا بلغ .

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ بالولد ﴿ عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ أى مع مس الكبر إياى متعلق بمحذوف حال والمعنى أبشرتمونى به وأنا شيخ كبير ويجوز إبقاء على بمعنى الاستعلاء وهو مجازى وكونها بمعنى فى والاستفهام للتعجب من أن يلد مثله فى الكبر أو لإنكار أن يبشر به فى حال لا يشتهيه لقلة المبالاة بالمسرة الدنيوية لمضى العمر واستيلاء الكبر كذا قيل قلت ويرده أن الغلام العليم ليست المسرة به دنيوية وإنه قد دعى الله أن يهب له من الصالحين فكيف نقل مبالاته وكيف لا يشتهيه وقد وصفه الله بأنه غلام عليم ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ بأى أعجوبة تبشرون وهذا أيضا استفهام تعجب كيف يحصل له الولد على الكبر أو للمبالغة فى التعجب حتى كأنه إنكار للصحة وليس إنكار أى هذا الذى بشرتمونى به لفرط غرابته كالذى لا يتصور فكأنكم بشرتمونى بما لا يتحصل أو هذا كالذى لا يتصور فبأى شىء متصور تبشرون والمعنى بأى طريق يقع لى التبشير بالولد فان هذا لا طريق لها فى العادة والنون نون الوقاية وحذفت نون الرفع قبلها تخفيفا عن اجتماع نونين أو المحذوفة نون الوقاية لحصول الثقل بها والموجودة نون الرفع كسرت للياء والياء محذوفة لدلالة نون الوقاية أو الكسرة وقرأ ابن كثير بتشديد

النون إدغاما لنون الرفع فى نون الوقاية وقرىء بفتح النون مخففة على أنه لم تدخل نون الوقاية ولا الياء فهو من حذف المفعول من اللفظ أصلا ورأسا .

﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾أى بما هو واقع قطعا أو باليقين الذى لا لبس فيه أو بطريق هو حق وهو قول الله ووعده أنك تلد غلاما عليما اسمه إسحاق ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ الآيسين من ذلك ولا تستبعد أن يكون ولد من شيخ فان وامرأة عاقر عجوز فان الله جلت قدرته قادر أن يخلق بشراً من غير أبوين وقرىء من المقنطين من أقنط بمعنى قنط وإنما تعجب إبراهيم من خرق العادة ولم ينكر القدرة حاشاه ولذلك ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ وهذا الاستفهام إنكار ونفى ولذلك أوجب بإلا والضالون بدل من الضمير فى يقنط وقرىء بكسر النون وضمها والكسر قراءة أبى عمرو والكسائى وكذا قرىء يقنطون فى الروم ولا تقنطوا فى الزمر بالكسر والباقون بالفتح وماضيهما قنط بالفتح وأما يقنط بالفتح فماضيه قنط بالكسر والضالون المخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله وكمال علمه وقدرته وهم كافرون كما قال لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون وقيل ظنت الملائكة به قنوطا إذ قال بشرتمونى الخ . فقالوا بشرناك الخ . فأجابهم بقوله ومن يقنط الخ . وفى الآية دليل على أن

القنوط من رحمة الدنيا كبيرة كما أن القنوط برحمة الآخرة كبيرة إذ رتب الضلال على القنوط فى جواب العام القنوط من الولد .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ماأمركم الذى أرسلتم لأجله وهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام قد علم أنهم لم يجيئوا للتبشير بالولد مجيئا مقصودا بالذات بل مجيئا عارضا فسألهم عما قصدوه بالذات فيحتمل أنه علم ذلك من كونهم عددا والتبشير بالولد لا يحتاج للعدد وقد اكتفى فى تبشير زكريا ومريم عليهما السلام بالواحد ويحتمل أنه علم ذلك من كونهم ابتدءوا بغير التبشير ثم بشروه فى وصف الكلام لإزالة الوجل بعدما قال أنكم وجلون ولو كان المقصود الذات التبشير لاتبدءوا به فلعل المقصود بالذات إخباره بالإرسال إلى قوم لوط ثم ما بينوا له إلا بعدما سألهم ويحتمل أن يريد فما خطبكم بعد هذا الخطب إلى الذى هو التبشير بالولد .

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ بالإهلاك وهو قوم لوط كما يظهر بالاستثناء فى قوله .

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾لكنه استثناء منقطع من حيث أن المستثنى منه موصوفون بالإجرام وهو الشرك والكباير وآل لوط غير موصوفين بذلك وهم أتباعه فى الدين فلا يشملهم لفظ المستثنى منه كما أنه

منقطع فى قولك جاء بنو زيد إلا بنى عمرو وجاء الحجازيون إلا بنى تميم فالمعنى لكن آل لوط لم نرسل إليهم بالإهلاك ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا والمستثنى منه الضمير المستتر فى مجرمين فالمعنى أُرسلنا إلى قوم أجرموا كلهم إلَّا آل لوط فإنهم غير مجرمين بالاهلاك للمجرمين والتنجية لغير المجرمين وهم آل لوط فالإرسال يعم الجميع ولو اختلف بالإهلاك والتنجية بخلاف ما إذا جعلنا الاستثناء منقطعا فإن الإرسال حينئذ مختص بالإهلاك مقيد به أى أُرسلنا بالإهلاك أو هو فى نفسه إهلاك كقولك أرسلت إليه حجرا أو سهما قال سيبويه آل فلان القوم الذين أمرهم إلى فلان وظاهر عبارته هذه من آل يؤول بمعنى رجع وإنه ليس أصله أهلا ويدل على أن الإرسال للقوم المجرمين بالإهلاك ولآل لوط بالتنجية قوله ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾أى آل لوط مما يهلك به القوم ﴿ أَجْمَعِينَ﴾ وهذه الجملة مستأنفة إذا جعلنا الاستثناء متصلا ومتصلة بآل لوط جارية مجرى الخبر بعد لكن إذا جعلناه منقطعا وقرأ حمزة والكسائى لمنجوهم بإسكان النون وتخفيف الجيم .

﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ استثناء من الهاء فى منجوهم أى ننجيهم إلا امرأته منهم فلا ننجيها واستثناء من آل لوط المستثنون من الإجرام أى إلى قوم أجرموا كلهم إلَّا آل لوط فإنهم لم يجرموا إلا امرأته من آله فإنها أجرمت أو استثناء من آل لوط مستثنين من القوم أى أرسلنا

بالإهلاك إلى قوم مجرمين لكن آل لوط لا نهلكهم بل ننجيهم إلَّا امرأته من آله فإنها ممن أرسلنا بالإهلاك إليه فلا ننجيها واستثنى المرأة من آل لوط أو من الهاء متصل أن قلنا آله قرابته ومن يحويه بيته ولم يؤمن معه إلا هم وإن آمن معه سواهم فقاله إما بمعنى القرابة ومن يحويه بيته أيضا تغليبا فمتصل أو بمعنى مطلق متبعيه فى الدين فمنقطع وذكر القاضى أن الاستثناء من الهاء إذا جعلنا الاستثناء الأول متصلا وإنا لمنجوهم أجمعين مستأنف وإنه لا يجوز من آل لوط لاختلاف الحكمين لأَن آل لوط متعلق بأَرسلنا أو المجرمين وإلا امرأته متعلق بمنجوهم إلا أن يجعل إنا لمنجوهم أجمعين اعتراضا بإيضاح ﴿ قَدَّرْنَا ﴾ وقرأ أبو بكر هنا وفى النمل بتخفيف الدال والتقدير هنا القضاء أو الحكم وأصله جعل الشىء على مقدار غيره،وإنما علق باللام فى خبر أن مع أنه ليس فعل قلب لأَنه ملاحظ فيه معنى الفعل القلبى فإن المراد بالقضاء أو الحكم القضاء بالقلب أو الحكم به أو لأَنه بمعنى القول والقول يسلط على جملة إن المكسورة ومعموليها أو لتضمنه معنى العلم وقد فسر كثير منهم تقدير الله أعمال العباد بعلمها وإنما أسند الملائكة التقدير لأَنفسهم وهو لله وحده لأَنهم أرسلهم الله فى شأن ذلك التقدير وجار على أيديهم ذلك التقدير ولما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما قول خاصة الملك أمرنا بكذا ودبرنا كذا

والآمر والمدبر الملك لا هم ﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين للهلاك مع سائر الكفرة لا الناجين لكفرها .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ الملائكة الذين أرسلهم الله عز وجل لإهلاكهم والمراد بآل لوط إما نفس لوط لأن المجىء إلى كبير القوم مجىء إليهم أو المراد أهل بيته أو من به وذلك أنهم ولوطا فى بيت أو بلد واحد وإنما جاءوا لينجوه ومن معه ويخبروه بإهلاك من خالفه

﴿ قَالَ ﴾ لوط ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ لا أعرفكم لو نفرت عنكم وخفت أن تضرونى أو لم تقبل نفسى أن تجيئونى لأنى خفت عليكم قومى وكانوا فى صور شبان مرد فى غاية الجمال والبهاء وكان قومه ـ لعنهم الله ـ يقصدون الغرباء الذين كذلك للنكاح .

﴿ قَالُوا ﴾ ماجئناك بحال تحتاج فيه إلى أن تعرفنا أو بحال تخاف منا أو علينا ﴿ بَلْ جِئْنَاكَ ﴾ إسرارا لك وانتقاما من أعدائك أو جئنا قومك ﴿ بِمَا كَانُوا ﴾ أى قومك ﴿ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يشكون من العذاب الذى أوعدتهم إياه على كفرهم ومعاصيهم ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ باليقين من عذابهم ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى إخبارنا إياك بنزول العذاب عليهم قال التلاتى ـ رحمه الله ـ الحق مطابقة مافى نفس الأمر والواقع لحكم الخبر والصدق مطابقة حكم الخبر لمافى الواقع ونفس الأمر فالفرق بينهما

اعتبارى وقيل كلاهما مطابقة حكم الخبر لما فى الواقع ونفس الأمر والواقع هو ما صح عند الله تعالى .

﴿ فَأَسْرِ ﴾ اذهب ليلا وهو من السرى وقرأ غير نافع وابن كثير بقطع الهمزة من أسرى إسراء والمعنى واحد وهكذا حيث قال صاحب الأقليد وقرأ فسر باسقاط الهمزة وبكسر السين من سار يسير ليلا أو نهارا والمراد هنا السير ليلا ﴿ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ فى طائفة تبقى من آخر الليل أو طائفة من الليل مطلقا ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أى امش خلفهم لتسوقهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ إلى القرية لئلا ينشق قلبه من معاينة ما يجرى عليهم من رفع القرية بما فيها وطرحها أو لئلا يغفل وتتعلق نفسه بمن فيها وبمسكنه فيها فترق نفسه فلا يكون موطن النفس على هجرة خالصة كاملة أو لئلا يصيبه ما أصابهم والالتفات النظر بالعين إلى خلف ويجوز أن يكون المراد به التخلف والانصراف أى لا ينصرف أحدكم ولا يتخلف لغرض فيصيبه ما يصيبهم أو الاهتمام أى لا يهتم أحدكم بالقرية وأهلها وفرغوا قلوبكم منها وقيل الالتفات هنا كناية عن البطء فى السير أى لا يبطىء أحدكم فى السير وأسرعوا ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ وهو الشام عند ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومصر عند مقاتل والأردن عند بعض وهو من الشام وقرية من قرى قوم لوط

لم تعمل عملهم عند بعض والذى أقول به أن حيث ظرف مبهم غير محدود متعلق بامضوا بلا توسع وأن المراد به مطلق جهة يقصدونها بأمر الله كما يقال مضى زيد نحو مكة وتقدم غير هذا وأنه لا يقدر ضمير منصوب بتؤمرون لأن الجملة مضاف إليها حيث لا ما قيل إن الأصل حيث تؤمرونه بتعدية تؤمر إلى الهاء اتساعا ولا ما قيل من هذا ومن أن حيث ظرف مختص عدى إليه امضوا بلا فى تنزيلا له لمنزلة المبهم على الاتساع نعم هذا التنزيل والاتساع صحيحان دون ادعاء أن الأصل تؤمرونه .

﴿ وَقَضَيْنَا ﴾أوحينا أوأنزلنا أو أنهينا أوأبلغنا أو نحو ذلك ولذلك عدى بإلى﴿ إِلَيْهِ ﴾ إلى لوط﴿ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ وهو إهلاك قومه المعبر عنه بما كانوا فيه يمترون وبالحق والمدلول عليه بأرسلنا إلى قوم مجرمين وبالغابرين ،ومع ذلك قد بقى فيه بعض إبهام أزاله بعطف البيان بالذات أو بالبدل من عرض وهو المصدر من خبر أن فى قوله﴿ أَنَّ دَابِرَ ﴾ آخر﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ القوم المجرمين﴿ مَقْطُوعٌ ﴾ أى يعمهم العذاب والإهلاك حتى يصل آخرهم فلا يبقى منهم أحد كما تقول قطعت الشجرة من آخرها ،تريد أنك قطعتها من أصلها وعروقها التى تبقى آخرا بعد القطع وفى إبقاء بعض الإبهام ثم تفسيره بتفخيم للأمر وتعظيم له وقرأ الأعمش بكسر همزة إن على الاستئناف كأنه قيل وضح لنا ذلك الأمر

كل توضيح فقال إن دابر هؤلاء مقطوع ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين فى الصبح حال من هؤلاء ولو كان مضافا إليه لأن المضاف هنا منزل منزلة الجزء من المضاف إليه أو هو جزء منه على تشبيههم بجسد واحد له دابر وقابل أو حال من الضمير فى مقطوع وجمع نظرا للمعنى فإن دابر هؤلاء بمعنى مدبرى هؤلاء ومقطوع بمعنى مقطوعين .

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾مدينة قرى قوم لوط تسمى سذوم بذال معجمة لا مهملة كما قيل وبقاضيها يضرب المثل فى الجور قال . أبوالحسن جازم بن محمد الأنصارى القرطاجنى من قرطاجنة الأندلس لا من قرطاجنة تونس فى واقعة سيبويه والكسائى بعد كلام من كل أجور حكما فى سذوم قضى عمرو بن عثمان مما قد قضى سدما . من كل متعلق بقضى بمعنى مات وعمرو بن عثمان سيبويه وقضى الثانى بمعنى حكم وسدما مفعول لأجله بمعنى الحزن . ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بأضيافِ لوط طمعا فى عمل الفاحشة بهم والاستبشار إظهار الفرح وقيل يبشر بعض بعضا والجملة حال .

﴿ قَالَ ﴾لوط ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الذين جئتم مستبشرين لأجلهم ﴿ ضَيْفِى ﴾ وحق على الرجل إكرام ضيفه وحفظه﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ بفضيحة ضيفى فإن من أسيء إلى ضيفه أو جاره أو صاحبه أو من التجأ إليه

فقد أسيء إليه كما أن من أكرم من يتصل به من هؤلاء فقد أكرم والفضيحة إظهار ما يلزم العار بسببه .

﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾اتركوا ما نهى عنه واحذروا عقابه على فاحشة اللواط أو خافوا الله فى حقى وحق ضيفى ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ لاتذلون بإذلال ضيفى من الخزى والهوان أو لا تخجلونى فيهم من الخزاية وهى الحياء .

﴿ قَالُوا ﴾أى أهل المدينة الآتون مستبشرين ﴿ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ ﴾ ياالوط ﴿ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾عن أن تمنع أحدا عنا إذا قصدناه بالفاحشة وكانوا يقصدون كل جميل من الغرباء أو كل جميل مطلقا . وكان لوط عليه السلام قائما بالنهى عن المنكر ومنع من أرادوه بقدر طاقته أو لم ننهك عن ضيافة أحد من العالمين لئلا تمنعه ويغيبه عنهم .

﴿ قَالَ ﴾لوط ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ النساء وهن نساء القوم ﴿ بَنَاتِى ﴾ فإن نبى الأُمة بمنزلة أبيهم أو الإشارة إلى بناته أن يتزوجوهن إن أسلموا وتقديم الكلام فى ذلك فى سورة هود وسكن الياء غير نافع﴿ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ للجماع أو لما أمر به فتزوجوهن أو جامعوا نساءكم وخلوا ضيفى .

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾اللام لام الابتداء وعمرو مبتدأ محذوف الخبر وجوبا لاختصاصه بالقسم لعمرك قسمى أو خبر لمحذوف أى لقسمى عمرك والحق عندى الأول لسلامته من تقدير الفصل بين اللام ومدخولها

ومن دخول لام الابتداء لفظا على الخبر والأصل دخولها على المبتدأ لفظا لا تقدير بعدها وبين مدخولها ولأن الحذف عليه من الآخر وعمرك حياتك أو مدتها والخطاب لرسول الله-صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس رضى الله عنهما ما خلق الله سبحانه نفسا أكرم عليه من محمد - صلى الله عليه وسلم - ما أقسم بحياة أحد سواه وذلك قول الجمهور وهو الصحيح وقال عياض وابن العربى والصفاقصى وغيرهم والخطاب للوط أقسم الله بحياة لوط تكريماً له وكل ما يؤتيه الله لوطاً من كرم فلنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ضعفاه لأنه أكرم على الله منه وإذا أقسم الله بحياة لوط علم أن حياة نبينا أرفع والكلام فى لوط وقومه ولا يخرج منه إلى غيره بلا جرى ذكر له . قاله ابن العربى والصحيح مذهب الجمهور لأنه مذهب ابن عباس وتفسير الصحابى مقدم على غيره ولأن الكلام فى شأن لوط بطريق الحكاية بدون أن يخاطبه الله فلما خاطب انصرف الكلام لنبينا - صلى الله عليه وسلم - وقيل الخطاب للوط من الملائكة . ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾غفلتهم أو حيرتهم أو ضلالتهم أو غوايتهم أو نحو ذلك أو شدة غلمتهم شبه ذلك بالسكر بنحو الخمر بجامع زوال التمييز بعقولهم بين الخطأ الذى هم فيه والصواب الذى يشار به إليهم وقرأ سكراتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون ، شبه تقلبهم فى أفعالهم بتقلب السكران فى سكرته وعن قتادة

يعمهون يلعبون وجملة أن ومعمولها جواب القسم الذى فى قوله لعمرك قسمى وقيد الضمائر فى أنهم لفى سكرتهم يعمهون لقريش . وهو ضعيف .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ صيحة جبريل على التمام والكمال ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ حال أى داخلين فى الشروق وهو إضاءة الشمس وكان ابتداؤها وقت الصبح كما قال مقطوع مصبحين أى مشروع فى قطعه وقت الإصباح وهو الفجر تام وكامل وقت الشروق وهو وقت ظهور الشمس فى نحو جبل وقيل إن هذه الصيحة صيحة هائلة مهلكة ليست صيحة جبريل وقيل صيحة طرحهم بعد رفعهم وعليه فالرفع فى الإصباح والطرح فى الشروق .

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا ﴾ عالى المدينة وقيل عالى قراهم ﴿ سَافِلَهَا ﴾ قلبنا ما يلى الأرض منها للسماء وما يلى السماء للأرض وجرى ذلك بيد جبريل ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ طين صار فى صلابته وشدته كالحجر لطبخه بالنار وتقدم كلام فى سورة هود .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من قصة إهلاكهم ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ علامات من قصته على وحدانية الله سبحانه وتعالى . ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ الناظرين المعتبرين من قولك توسمت الشىء أى بحثت عن سمته أى عن علامته الدالة عليه بالفكر أوبالعين أونحو وذلك وذلك فراسة وهى إما بإلهام الله

المؤمن ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتقوا فراسة المؤمن فإنه بنور الله يبصر ثم قرأ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإما لتجر به.

﴿ وَإِنَّهَا ﴾أى قرأ قوم لوط أو المدينة أى آثارها وبه قال مجاهد: ويحتمل عود الضمير للآيات وذكر بعضهم أنه يجوز عوده على الحجارة ﴿ لَبِسَبِيلٍ ﴾أى فى طريق قريش إلى الشام ﴿ مُّقِيمٍ ﴾ثابت يسلكه الناس لا يندرس هو ولا الآثار التى فيه فهى باقية لمن يعتبر بها ويستدل كما قال .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾بالله ورسوله. ﴿ وَإِن ﴾ مخففة من الثقيلة واللام بعدها فارقة بين النفى والإثبات﴿ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ الشجرة المتكاثفة والمراد الجنس وأصحابها قوم شعيب كانت عامة شجرهم المقل فيما قيل وهو الدوام والظاهر أن شجرهم الشجر العظيم كالطرفاء والسدر والأثل والبطم بسكونه ويتفرقون فى معايشهم ، ﴿ لَظَالِمِينَ ﴾ تكذيب شعيب .

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾بالإهلاك ، روى أن الله سبحانه وتعالى أرسل عليهم الحر فأخذ بأنفاسهم سبعة أيام وقربوا من الهلاك فبعث السحابة كالظلة فاجتمعوا تحتها يلتمسون البرد فأمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم جميعاً ، وذكر الطبرى أن شعيباً بعث إلى أمتين كفرتا بالله فعذبتا بعذابين مختلفين أهل مدين بالصيحة ، وأصحاب الأيكة بالظلة ،

وقد ذكرت قصتها فى غير هذا الموضع وكان الشجر المذكور بقرب مدين ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أى أهل قرية لوط ومدين ومدينة الأيكة وقيل مدينة الأَيكة ومدين فإن شعيباً مبعوث إليهما كما مر عن الطبرى فكان ذكر الأَيكة منبهاً على ذكر مدين وهو ضعيف . ﴿ لَبِإِمَامٍ ﴾ أى فى إمام وهو الطريق وكانتا فى طريق قريش إلى الشام فلو عقلوا لاعتبروا بهما وسمى الطريق إماماً لأَنه يوتم به ويتبع حتى يصير الإنسان إلى الموضع الذى يريده كما يسمى المقتدى به إماماً وكما يسمى الخيط الذى يقدر به البناء إماماً لأَنه يتبع فى البناء وكما يسمى ما كتب فيه إماماً لأَنه يعمل بما فيه ويحتمل أن يكون الإمام اللوح المحفوظ فإن فيه ذكر المدينتين وقصتهما ويحتمل أن يعود الضمير فى أنهما إلى لوط وشعيب المدلول عليه بذكر قومه وبلده ؛ وقصتهم فيكون الإمام بمعنى الطريق الشرعى أى أنهما على طريق من الله سبحانه ،﴿ مُبِينٍ ﴾ واضح أو موضح الحق .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴾هو واد بين المدينة والشام ويليه من الشام تبوك وأصحابه ثمود قوم صالح كانوا يسكنونه ،﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بأَن أنكروا الرسالة أصلاً أو لما كذبوا صالحاً كان تكذيبهم به تكذيباً لجميع المرسلين لأَن القول فى المعتقدات واحداً والمرسلون صالح ومن

معه من المؤمنين سَمَّاهُم مرسلين لإيمانهم بصالح واختصاصهم به ، وفى قصتهم كلام ذكرته فى غير هذه السورة .

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾آيات الكتاب المنزل على رسولهم صالح أوالمعجزات كناقة صالح وولدها وشربها وما يحلبون منها أو ما نصب لهم من الدلائل كالجبال وآثار من هلك قبلهم كقوم نوح أو جميع ذلك ، ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ لايتفكرون فيها ، وإنما قال : أتيناهم مع أن الذى أُوتى الكتاب أو الناقة هو صالح عليه السلام ، لأن ذلك موجه إليهم على يد صالح ولا إشكال فى إيتائهم الدلائل المنصوبة .

﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ ﴾ينقرون بالمعاول :﴿ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ مفعول ينحت وإنما صح ذلك مع أنه فى حال النقر لا بيت باعتبار المآل كأنه قيل ينقرون مواضع تصير بيوتاً أو لتضمين النحت معين التحصيل والكسب أى يحصلون بالنقر بيوتاً ويصح أن يكون المعنى أنهم يقلعون الحجارة من الجبال ويبنون بها بيوتاً فالمراد أيضاً ينحتون ما يصير بيتا ومن الجبال متعلق بينحت أو بمحذوف حال من بيوتاً ، ﴿ آمِنِينَ ﴾ فىحال نحتهم من ريب الزمان لطول أعمارهم وسلامتهم أو من عَذَاب الله لكفرهم به فكانوا لا يعملون للآخرة وآمنين من عذابه بفرط غفلتهم أو ظنهم أن الجبال تحميهم فهو حال مقارنة

أو مقدرين الأَمن من الانهدام ونقب اللصوص والأَعداء حال النحت فالحال مقدرة .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ فصيحة جبريل ، وقيل العذاب . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ داخلين فى الصباح وهو وقت الفجر ووجه من قال إنهم أهلكوا بعد ما اشتد حر الشمس أنه شرع فى إهلاكهم فى الفجر أو أن المراد بالصبح أول النهار ولو بعد طلوع الشمس وقد ذكرت قصتهم فى غير هذه السورة .

﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم ﴾ مادفع عنهم الهلاك ، ﴿ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من البيوت الوثيقة والأَموال والعدد وقيل من الشرك والأَعمال الخَبيثة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ المقتضى لقطع الفساد بإهلاك المفسدين ولإظهار العدل بنصر أصحابه وللجزاء فى الدنيا وبعد البعث وقد فسر بعضهم الحق بالبعث ولم نخلق ذلك عبثًا . ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ ﴾ يوم القيامة ، ﴿ لَآتِيَةٌ ﴾ ليثاب المحسن ويعاقب المسيء فينتقم لك ممن أذاك أو كذبك ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ أى فأعرض يامحمد عن قومك الإعراض الذى لا جزع فيه وتحمل أذاهم ولا تعجل بالانتقام منهم وهذا أمر حسن يؤمر به ويرغب فيه ولو أمر بالقتال فلا حاجة إلى قول بعض أنه منسوخ بآية السيف إذ لا دليل على أنه نهى عن قتالهم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ كثير الخلق وعظيمه وبيده أمرك وأمرهم وفى مصحف أبى وعثمان هو الخالق وهو يصلح القليل والكثير والمراد هنا الكثير بقرينة من خارج كما أنك إذا قلت زيد ضراب فقد نصصت على كثرة ضربه أو عظمه وإذا قلت ضارب احتمل القلة والكثرة والعظم وغيره إلا بقرينة تعين شيئاً من ذلك لكن الأَصل الحمل على المتيقن ويوكل المزيد المحتمل إلى دليل والمشهور الحمل على الفرد الكامل ، ﴿ العَلِيمُ ﴾ بحالك وحالهم وماجرى بينكم أو المعنى أنه خلقكم وهو العالم بالأَصلح لكم وبأَنه اليوم هو الصفح وسيأْتى زمان الأَصلح فيه لك أن تنتقم ممن أذاك كفاً له عن التهاون بالإسلام والعليم أيضاً صفة مبالغة من العلم بالكسر فهو عالم أو صفة مشبهة من علم بضم اللام نقلا من الكسر للمبالغة وقيل لا يجوز هذا فى نحو علم وجهل مما هو قلبى . قال ابن الجوزى : وافت سبع قوافل من بصرى وأدرعات ليهود قريظة والنضير فى يوم واحد فيها أنواع من البز والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هذه الأَموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله فأنزل الله جل جلاله .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ ﴾ وماأوتى له ـ صلى الله عليه وسلم فقد أوتى لأُمته ﴿ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ وذلك خير من سبع قوافل . ورد ما ذكره ابن الجوزى بأَن هذه السورة مكية ، قلت : قد مر أول السورة

أن بعضاً استثنى هذه الآية وقال : إنها مدنية وهو ابن الجوزى ، والسبع المثانى عند ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد فى رواية عنهم وابن عباس فى رواية الأكثرين عنه وعمر وعلى وأبى هريرة والحسن وعطاء وقتادة هى فاتحة الكتاب . قال السيوطى : أخرج البخارى والترمذى عن أبى هريرة ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم ، وعن الترمذى : الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى ، وكذا روى أبو داود وروى ذلك إلى ابن كعب وسميت سبعاً لأنها سبع آيات . أخرجه الدارقطنى عن على ، وقيل لأن فيها سبعة آداب فى كل آية أدب وفيه بعد ، وقيل لأنها خلت من سبعة أحرف والثاء والجيم والخاء والزاى والشين والظاء والفاء ، قال المرسى : وهذا أضعف مما قبله لأن الشىء يسمى بما فيه لا بما فقد منه ، قلت : بل قد يسمى بما فقد منه ومثانى لأنها تثنى فى كل ركعة فهى يثنى إليها ويمال إليها بعد الانصراف عنها ، وهذا قول الحسن وقتادة وابن عباس ، واقتصر الشيخ هود رضى الله عنه على هذا القول وقيل إن ذكر الله بالجميل وتعظيم ، ونصفها دعاء للعبد ويناسبه ما روى أبو هريرة من الحديث القدسى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، وقيل لأن غالب كلماتها

متقارن فإن قوله الحمد لله رب العالمين كلمتان متقارنتان أعنى الكلمة اللغوية وهى أعم ، وكذا الرحمن الرحيم ، وكذا إياك نعبد وإياك نستعين ، وكذا اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، وكذا غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولم يبق إلا ملك يوم الدين .

وقال الحسن بن الفضل لأنها نزلت مرتين ، مرة بمكة ، ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك،وقال مجاهد هى من الثنيا لأن سبحانه استثناها لهذه الأمة وادخرها لهم . وقال أبو زيد البلخى :لأنها تثنى أهل الشر عن الشر أى تكفيهم ، وقال الزجاج : لأن فيها الثناء على الله وهو مغلب على ما فيها للعبد من دعاء ، وقيل إنه كلما قرأ العبد منها آية ثناه الله بالإخبار عن فعله . قال : - صلى الله عليه وسلم . يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله : حمدنى عبدى . ويقول :الرحمن الرحيم . فيقول الله : أثنى على عبدى . ويقول : ملك يوم الدين . فيقول الله : مجدنى عبدى . ويقول : إياك نعبد وإياك نستعين . فيقول الله : هذه بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل ، يقول :اهدنا الصراط المستقيم صراط .. إلى آخر السورة . فيقول الله تعالى: هؤلاء لعبدى ولعبدى ما سأل ، ولا يخفى ما فى ذلك من تشريف الفاتحة أنه إن كان المراد بالقرآن العظيم الفاتحة لجواز تسمية بعض

هذا الكتاب العزيز قرآناً كان زيادة فى التعظيم إذا وصفت بأنها جامعة لمعان عظيم فإن القرآن من الجمع وبأنها عظيمة وكان ذلك من عطف الصفة ومر فيه بحث ، وإن أريد بالقرآن الكتاب كان عطف عام على خاص وكان تخصيص الفاتحة تعظيماً . وقال ابن مسعود وابن عباس وابن جبير فى رواية عنهم ،وابن عمران :السبع المثانى السبع الطوال وهن البقرة، وآل عمران، والنساء والمائدة ، والأنعام ،والأعراف، والأنفال ، مع براءة وهما سورة واحدة أو فى حكم الواحدة لعدم البسملة بينهما على ما مر ، وقيل براءة والست قبل الأنفال يونس بدلهما ، قيل يناسب القول بأن السبع المثانى هن السبع الطوال ، قوله – صلى الله عليه وسلم – أن الله عز وجل أعطانى السبع الطوال مكان التوراة، وأعطانى المبين مكان الإنجيل وفضلنى بالمفصل وسميت الطوال مثانى لما فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ، ولما فيها من الثناء على الله ،واعترض بأن غالبهن مدنى والآية مكية وأجيب بأن الله سبحانه سبق فى علمه أنه يؤتيه هذه السبع ، وبأن الآية مدنية فى سورة مكية ، وقيل السبع المثانى ما دون الطوال وفوق المفصل وهو المبيول والحديث المذكور آنفاً أنسب به بل حجة به إذ قال : وأعطانى المثانى مكان الزبور ، وقال طاووس : السبع المثانى القرآن كله لقوله تعالى : الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى كررت

فيه الأَمثال والمواعظ والقصص ونحوها ، وسمى سبعاً لاشتماله على الحلال والحرام والأَمر والنهى والفرض والنفل والحد ومثانى لأَنه يثنى فيه على الله أو يثنى فيه عليه بنفسه بالبلاغة وعطف القرآن على السبع فى هذا القول مثله فى القول بأَن السبع الفاتحة وأنها القرآن الْعظيم فى أنه عطف صفة أى آتيناك كتاباً يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم ، وقيل السبع المثانى الحواميم وعطف القرآن عليها عطف عام على خاص تشريفاً لذلك الخاص أو عطف صفة على أن القرآن هو الحواميم أيضاً ولا يخفى تشريفهن أيضاً ، وقيل السبع المثانى سبع صحائف وهى الأَسباع وهى القرآن أيضاً قسم أسباعاً كل سبع يسمى صحيفة ومن للبيان على تلك الأَقوال ويجوز قول أن تكون المثانى هى القرآن أو كتب الله كلها فتكون من للتبعيض ويجوز كون المثانى على تلك الأَقوال كلها من التثانى على الله بما هو أهله وعلى الفاتحة أو السبع الطوال والقرآن أو الكتب أو الحواميم بالبلاغة والإِعجاز أو من التثنية لتكرير ألفاظ ذلك أو قراءته والمثانى جمع مثنى بالتشديد اسم مفعول حذفت إحدى النونين أو مثنى بالفتح والتخفيف اسم مكان الشيء. قاله حفيد السعد أو جمع مثنى بالتشديد أو التخفيف مع الضم فيهما اسم مكان تكرير فى التشديد والإِثناء بالتخفيف .

﴿ لَا تَمُدَّنَّ ﴾ يامحمد ﴿ عَيْنَيْكَ ﴾ مد رغبة واشتهاء أومطلقاً لئلا يوصلك إلى ذلك ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا ﴾ أصنافاً ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ من الكفار فإن السبع المثانى والقرآن العظيم نعمة عظيمة يستحقر دونها ما متعناهم به فإنهن كمال مطلوب بالذات مفض إلى النعيم الدائم فاستغن بهن ، قال – صلى الله عليه وسلم – ليس منا من لم يتغن بالقرآن . قال ابن عيينة والزمخشرى أى من لم يستغن به ، روى الطبرانى عن أبى بكر رضى الله عنه : من أوتى القرآن فرأى أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم صغيراً وصغر عظيماً ، وفى رواية فقد صغر عظيما وعظم صغيراً ، قال الطبرى : عن سفيان عيينة أن هذه آمرة بالاستغناء بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا وكان – صلى الله عليه وسلم لا يتعمد النظر إلى شىء من زهرة الدنيا ولا يستحسنها . وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال فى خطبة : لا والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا بعدى أى زينتها . قيل يارسول الله : ما زهرتها . قال : بركات الأرض ومن أنعم الله عليه بنعمة الدين فالتفت إلى حطام الدنيا فقد تهاون بالدين الذى هو كرامة يكرم بها الأنبياء والأصفياء والصديقون الذين هم أعز خلق الله واستبدله بما يلطخ به الكفرة والفسقة والجبابرة الذين هم أهون خلق الله إليه . قال – صلى الله عليه وسلم – لأبى هريرة : لا تغبطن فاجراً بنعمته فإنك لا تدرى ما هو لاق بعد موته ، وقال :إذا نظر أحدكم

إلى من فضل عليه بالمال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ، وقال : انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة لله عليكم، وقال : من نظر إلى من فوقه فى الدين ومن دونه فى الدنيا فاقتدى بهما كتبه الله صابراً شاكراً ، ومن لم يفعل لم يكتب صابراً ولاشاكراً ، وزعم بعض أن الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ علا للتعليل أى لا تحزن لأجلهم حيث تمتعوا بما فاتك وأصحابك التمتع به ، قال عوف بن عبد الله : كنت أصحب الأغنياء فما كان أحدهما أكثر هما منى أرى دابة خيراً من دابتى ، وثوباً خيراً من ثوبى ، ولما سمعت قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ انظروا إلى من هو أسفل منكم ، الحديث صحبت الفقراء فاسترحت ، وقيل لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا والهاء للمشركين وزعم بعض أن ولا تمدن الخ عليهم منسوخ بآية السيف ، ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾ أى جانبك وخفضه كناية عن تليينه والتواضع والرفق ،﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تسكيناً لهم وتطييباً لأنفسهم على فقرهم واكتف بهم وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

﴿ وَقُلْ إِنِّى ﴾ وسكن الياء غير نافع وابن كثير وأبى عمرو ﴿ أَنَا النَّذِيرُ ﴾ المخوف بعذاب الله على الكفر والمعاصى تخويفا كاملا يقصده

دلائل وبراهين كما قال ﴿ الْمُبِينُ ﴾ الواضح بالدلائل والبراهين أو الموضح لذلك بهن وزعم بعض أن هذا منسوخ بالقتال على أن المعنى اقتصر على الإنذار لا أقاتلكم وليس كذلك بل المعنى إنما أنا نذير مبين لا غير نذير ولا نذير غير مبين .

﴿ كَمَا أَنزَلْنَا ﴾ مامصدرية أو اسم موصول والكاف متعلق بمحذوف نعت لمحذوف عائد إلى قوله النذير أى أنا النذير بإنزال الله عذاباً ثابتاً كإنزالنا أو بعذاب ثابت كإنزالنا العذاب ﴿ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أوالكاف نفسها نعت للمحذوف ويجوز عود ذلك إلى أتيناك أى أتيناك إيتاء ثابتاً كإنزالنا الكتاب على المقتسمين فإن إيتاء السبع المثانى إنزال لن أو متعلق بأتينا وعليهما فالفصل بالنهىعن مد العين إرشاد إلى ما يقوى التسلية عن تكذيبهم والحزن والأمر بخفض الجناح ولا التفات عليهما بخلاف ما إذا أعيد ذلك إلى النذير ففيه التفات فإن مقتضى الظاهر أن يقال مثلا أنا النذير بإنزال الله عذاباً ثابتاً كإنزاله العذاب على المقتسمين وهم اليهود والنصارى عند ابن عباس رضى الله عنهما وابن جبير والحسن ومجاهد،سموا بذلك لأنهم قسموا القرآن آمنوا بما وافق كتبهم ، وكفروا بما خالفها ، وقال عكرمة قسموه استهزاء ، فيقول بعضهم : سورة البقرة لى ، ويقول بعض سورة آل عمران لى ، وقيل لأن بعض اليهود أقر ببعض التوراة وأنكر بعضاً وبعضاً أنكر ما أقر به

ذلك البعض وأقر بما انكر وكذا النصارى فى الإنجيل،وهو رواية عن مجاهد وذلك تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن تكذيب قومه بالقرآن ، وقال قتادة وابن السائب هم كفار قريش لانهم اقتسمت أقوالهم فى القرآن فبعض قال : إنه سحر وبعض إنه شعر ، وبعض إنه كلام كاهن وبعض إنه كلام مجنون وبعض إنه كذب وبعض إنه أساطير الأولين ونسب بعض المتأخرين هذا القول إلى عكرمة . وقال الواحدى هم الذين اقتسموا الطريق إلى مكة والعقبات التى توصل إليها أيام الموسم ليصدوا الناس عن الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعثهم الوليد بن المغيرة وهم ستة عشر ، وقيل أربعون ، فقال : إذا سألكم أحد عنه فليقل أحدكم إنه ساحر وأحدكم إنه كاهن وهكذا وقولوا أيضاً لم يسألكم وقعد هو على باب المسجد فإن ذكر له ما قال أحد المقتسمين قال : إنه صادق فيما قال ، وذلك رواية عن ابن السائب وأهلكم الله يوم بدر ويجوز أن يكون المراد تسعة الرهط الذى تقاسموا على صالح أن يبيتوه فالاقتسام على هذا خلف،وهذا إنما يصح على أن يجعل الموصول المذكور بعد هذا مبتدأ خبره فوربك لنسألنهم أى نقول لهم فوربك لنسألنهم لاعلى أنه نعت إلا أن نفس القرآن بما كان منزلا على صالح بقراءة كما يجوز تفسيره بما يقرأه اليهود والنصارى من التوراة والإنجيل إذا فسر المقتسمون بهم لكن الظاهر أن المراد كتاب الله المنزل على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ نعت أومبتدأ خبره ما بعده على تقدير القول كما مر ومعنى عضين أجزاء جمع عضة بالتاء عوضاً عن لام الكلمة وهو واو من قولك عضا الشاة يعضوها عضة أى فرقها أعضاء وذلك أنهم نوعوا القول فى القرآن فبعض قال إنه سحر وبعض أنه كهانة وهكذا وأهل الكتاب فرقوه فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه أو المراد أنهم فعلوا ذلك بها أنزل عليهم كما مر وأصل العضة المصدر وأطلق بمعنى العضو ، وقال عكرمة جمع عضة بالتاء عوضاً عن لام الكلمة وهو هاء من قولك عضهه يعضهه عضها بالهاء أى سحره والعضه بلغة قريش السحر والعاضهة الساحرة ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعن الله العاضهة أى الساحرة والمتعضهة أى الطالبة للسحر وذلك أنهم يقولون القرآن سحر وقيل من العضه بالهاء كالذى قبله لكن بمعنى البهتان والكذب واصل الضاد على كل قول الإسكان لكن لما حذفت الواو والهاء حركة بالفتح لتناسب التاء المعوضة فإنها تقتضى الفتح قبلها أو الأصل عضوة بواو فتاء وعضهه بهاء فتاء نقلت فتحة الواو أو الهاء للضاد فنويت التاء عوضاً بعد أن كانت غير عوض وعلى كل حال فإنما جمع جمع المذكر السالم ولو كان غير عاقل وكان مؤنثاً وكان غير علم ولا صفة لأنه من باب سنة وصار جمعه ذلك الجمع جبراً

للنقصان الذى لحقه بالحذف فالتاء عوض عن نفس المحذوف وجمعه ذلك الجمع جبر لمحاق هذه العلة الفرعية التي هى الحذف والمشهور الأول وهو أنه من العضو أو لاينافى ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس أن رجلا سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن المقتسمين ، قال اليهود والنصارى ،وعن جعلهم القرآن عضين . قال إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض فإن الإيمان ببعض والكفر ببعض تجزئة أيضاً وتفريق له أعضاء لما مر .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الاقتسام وجعلهم القرآن عضين أو من الكفر والمعاصى مطلقاً وذلك وعيد ، وعن أبى العالية يُسأل العباد عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين وظاهره أن الضمير للناس كلهم مؤمنيهم ومشركيهم ، وهو قول جماعة واختاره بعض ، وأخرج ابن مردويه وابن أبى حاتم وابن جرير والطبرى ، عن أنس ، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – أن المعنى لنسألنهم عما عملوا فى قول : لا إله إلا الله هل اعتقدوه وقالوه أو كفروا به وذلك سؤال توبيخ وتقريع فلا ينافى هو ونحوه فى القرآن لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان ونحوه فإن المراد نفى سؤال العلم لأنه تعالى عالم بكل شىء ، قاله قطرب التلميذ سيبويه وهو تفسير ابن عباس . وفى رواية عنه يُسألون فى موطن من مواطن القيامة ولا يُسألون فى آخر .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾اجهر بما تؤمر به وحذف الرابط شذوذاً لأنه تعلق بما يتعلق به الموصول أو ما مصدرية فلا حذف أى يأمرك فهذا المصدر من المبنى للمفعول وأصل الصدع الإبانة والتمييز وقيل الصدع هنا الفرق بين الحق والباطل وذلك أمر بإعلان بعد ما كان يدعو إلى الله سراً سنتين ، وقال مجاهد اجهر بالقرآن فى الصلاة ، والأول أعم فإن القرآن من جملة ما يؤمر به من الشرائع شبه التبليغ بكسر الزجاجة بجامع التأثير أى أبن الأمر إبانة لا تلتئم كما لايلتئم صدع الزجاجة ولما نزل ذلك خرج هو وأصحابه وظهروا .﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ احمل أذاهم ولومهم ولا تكترث به قيل منسوخ بآية السيف والظاهر أنه لم ينسخ إذ ليس نهياً عن القتال .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾بإهلاكهم وهم خمسة بالغوا فى الاستهزاء برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولايبعد أن يراد أيضاً بقوله كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا .. إلى آخره بخصوصهم فقط أهلكوا قبل نزول هذه الآية فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولواستخفى هو وأصحابه لكنهم قد علموا بهم فكانوا يبالغون فى الاستهزاء به فذكر الله هذه الكفاية امتناناً وتذكيراً للنعمة ، وقيل نزلت قبل هلاكهم أى إنا قد ضمنا لك كفايتهم الأول الوليد بن المغيرة والثانى

العاص بن وائل والثالث الأَسود بن عبد يغوث والرابع الأَسود ابن المطلب والخامس الحارث بن الطلاطلة ذوو شأْن وشرف ، روى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان حول الكعبة عند المقام قائماً فقام جبريل بجنبه فمر به الوليد فى طوافه وهو من بنى مخزوم وهو الوليد ابن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان رأسهم ، فقال له جبريل عليه السلام كيف تجد هذا يامحمد . فقال : بئس عبد الله . فقال قد كفيته فأُومى إلى ساقه . ومر به العاص بن وائل فى طوافه وجده هو هشام بن سعد بن سهم فهو سهمى ، فقال : كيف تجد هذا يامحمد . فقال : بئس عبد الله فأَشار إلى إخمص رجليه وقال : قد كفيته ومر به الأَسود بن عبد يغوث فى طوافه وجده هو وهب ابن مناف بن زهرة فهو زهرى ، فقال : كيف تجد هذا يامحمد . قال بئس عبد الله على أنه خالى ، وروى أنه ابن خاله وابن الخال كالخال فقال : قد كفيته فأَشار إلى بطنه ومر به الأَسود بن المطلب أبو هيات وجده هو أسد ابن عبد العزى فهو من بنى أسد فقال كيف تجد هذا يا محمد . قال : بئس عبد الله فقال قد كفيته فاشار إلى عينيه ومر به الحارث بن الطلاطلة السهمى مولى الغيطلة وقال البغوى الحارث بن قيس بن طلاطلة ، وقال ابن الجوزى الحارث بن قيس غيطلة ، قال الزهرى : غيطلة أمه وقيس أبوه قيل هو عم عبد الله

ابن الزبعرى ، فقال كيف تجد هذا يامحمد . فقال : بئس عبد الله ، فقال : كثيته ، فأشار إلى رأسه وقيل الرابعة ، فقال : كيف تراهم يامحمد . فقال — صلى الله عليه وسلم — ما أصح أجسامهم ياجبريل ؟ فقال جبريل : يامحمد إنك لا تمسى غدا ومنهم رجل حى وكان قد أشار إلى موضع من جسد كل يموت به ، مر الوليد برجل من خزاعة يركب الريش فى النبل وعليه برد يمانى يجره خيلا فتعلقت رشطية من النبل به ومنعه الكبر أن يطأطئ برأسه لينزعها فجعلت تضربه فى ساقه فخدشته ومرض منها فمات ، وروى أنها قطعت منه عرق النساء فمات ، وروى أصابت كحله ، وروى أنه أصابت ذيله شوكة فمنعه الكبر من أن يهوى لقلعها فضربها بالسوط فأصابت رجله فتآكلت ومات منها ، وخرج العاص على راحلة يتنزه على أثر الغيث والسيل فى شعبة من شعاب مكة وقد أصاب أهل مكة مطر شديد فى ليلةيومه ومعه أبناؤه فوطئ شبرقة فدخلت منها شوكة فى اخمص رجله فقال : لدغت . . لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئاً فانتفخت حتى صارت كعنق البعير فمات مكانه ، وروى أنها صارت كالرحى ، وروى ما مات حتى تساقط لحمه عضواً ، وروى أنه أتى شعبة من الشعاب فأناخ بعيره فضربته حية فى رجله فانتفخت كعنق البعير فنادى قتلنى رب محمد ،

فطلبوا الحية ولم يقدروا عليها أعنى لم يظفروا بها فحملوه على سرير ينادى : قتلنى رب محمد ، فمات من يومه ، وقعد الأَسود بن عبد يغوث فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك ومعه غلامه فاستغاث به ، فقام ما أرى أحد يصنع بك شيئا غير نفسك فمات وهو يقول : قتلنى رب محمد ، وروى أنه أصابه استسقاء يسمى الرقى وهو امتلاء الأَمعاء بالماء الفاسد المبطل للجال العزيزى المهلك من قريب، وقال الكلبى انطلق إلى بعض مياه كنانة فجعل يحذرهم من النبى – صلى الله عليه وسلم – وينهاهم عن أتباعه ، فقال لهم : إن قلتم إن محمداً ساحر فقد صدقتم وإن قلتم إنه مجنون فقد صدقتم هو كذلك ومن قتله فله مائة من الإبل ثم رجع إلى أهله فشوه الله خلقه فصار أسود حبشياً فلم يعرفه أهله واغلقوا الباب دونه فجعل يقول أنا الأَسود بن عبد يغوث فقالوا : كذبت أنت سارق إخرج عنا فطردوه وأغلقوا الباب دونه فجعل يطوف فى شعاب مكة وينادى ويهذى ويقول : قتلنى رب محمد حتى مات ، وروى أنه قال من رفعه إلينا فله مائة من الإبل ،وهذا يقتضى أن ذلك بعد ما غاب عنهم للهجرة. وأما الأَسود بن المطلب فأَعماه الله ، قال ابن عباس : رضى الله عنهم رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عيناه

وجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك ،وفى رواية أنه كان له ابن يسمى زمعة وكان أبر إنسان بأبويه وكان يتجر بالشام وكان إذا خرج من مكة إلى الشام قال لأبيه : أصل الشام فى كذا وكذا . وأنزل مكان كذا فى طريقى وأنا عندك يوم كذا ضحوة أو نصف النهار ولا يكاد يخلف فقال أسود لغلامه فى ذلك اليوم الذى وعده المجيء فيه وقد احتبس عنه انطلق بنا إلى الثنية ننتظر زمعة ، فطلعا على الثنية فقال لغلامه انظر هل ترى شيئاً ؟فقال : ماأرى شيئاً ، ثم قال : انظر فإن رأيت شيئاً أو سواداً فهو ابنى زمعة ، فقال : قد رأيت سواداً ، فقال انطلق بنا إليه فانطلقنا فإذا سمرة فانتهيا إليها فجعل جبريل عليه السلام يضرب وجهه بأغصان تلك الشجرة حتى سالت حدقتاه وينادى ياغلام ، أدركنى ، فإن رب محمد قتلنى ، فقال : ما أرى أحداً إنما تضرب وجهك فمات فاطلع ولده قادماً من الشام ، وأما الحارث فامتخط رأسه قيحاً فمات ، وقال ابن عباس أكل مليحاً من السمك ليلا فأخذه عطش شديد حتى أصبح وفى بيته من ادة من ماء فجعل يشرب ولا يروى وكلما تنفس قال : قتلنى رب محمد حتى شرب ماءها كله فانفتق بطنه فمات ، وفى رواية أن جبريل قال : لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين مروا به كفيتهم ولم يشر إليهم حينئذ بل

أشار إلى كل فى حين قرب أن يصيبه الضر. وروى أن الأسود ضرب بغض شوك على عينيه حتى سالت فكان يقول دعا على محمد فأجاب الله له أن أعمى فأعمانى ودعوت عليه أن يموت طريدا مع يهود يثرب وسراق الحاج فأجاب الله لى فكان كذلك فهم خمسة أهلكهم الله وكان خمسة آخرون نقضوا الصحيفة التى كتبتها قريش على أن لا يبايع آل النبى ولا يناكحون ولا يجالسون ولا يطعمون وقد ذكرت قصتهم فى غير هذا الموضع قال البوصيرى :

فديت خمسة الصحيفة بالخمسة   إن كان للكرام فداء

وقال ابن اسحاق هم المستهزئون الذين قذفوا فى قليب بدر كأبى جهل.

﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت لما قبله وقيل مبتدأ مراد به العموم وخبره سوف يعلمون وقرن بالفاء لشبه اسم الشرط ﴿ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ المراد بالإله الآخر جنس الأصنام ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم فى الدنيا والآخرة وهذا وعيد لهم وتهديد ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من شرك واستهزاء وتكذيب بك وبالقرآن كقولهم إنك مجنون وقولهم إنك ساحر وهذا تأنيس لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ نزهه عما يقولون متلبساً بحمد ربك على

أن هداك أو تفرغ إلى الله بالتسبيح مع الحمد مثل سبحان الله والحمد لله ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ المصلين يكفك ويكشف الهم عنك كان –صلى الله عليه وسلم– إذا أحزنه أمر فرغ إلى الصلاة وذلك أن القلب ينشرح بالذكر ويعرف حقارة الدنيا به فلا يشتد همه وإذا كان فى الصلاة كان كذلك مع زيادة أنه كالقائل أنا بين يديك عبد لك فافعل بى ما شئت .

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ ولاتخل لحظة﴿ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ قال ابن عمر ومجاهد وجماعة :اليقين الموت وسمى بذلك لأنه متيقن اللحاق بكل مخلوق حى وقال الحسن وبعضهم اليقين الخبر المتيقن عند الموت وكان – صلى الله عليه وسلم – متيقنا قبل الموت كتيقنه بعده لكنه سماه يقينا لأن اليقين عند العامة ،وأما قبله ففى مرتبته دون اليقين. وكان الحسن يقول يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين . وذكر الداودى والبغوى عنه – صلى الله عليه وسلم – ما أوحى إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلى فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ونظر – صلى الله عليه وسلم – إلى مصعب بن عمير مقبلا لابساً جلد كبش فقال انظروا

إلى هذا الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة اشتريت له بمائة درهم، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ماترون .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

سورة النحل

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنها تسمى سورة النعم. قال ابن الفرس لما عدد الله سبحانه فيها من النعم على عباده،وهى مكية،قال ابن عباس إلا آخرها،وقال الشعبى إلا وإن عاقبتم إلى آخرها،وذلك ثلاث آيات وهو مراد ابن عباس،وقال قتادة إلا والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا إلى آخرها وهى خمس الآيات. وعن جابر بن زيد أنه نزل منها أربعون آية أولها بمكة وبقيتها بمكة وينافيه قول عثمان بن أبى العاص فى نزول إن الله يأمر بالعدل والإحسان. وفى كتاب الناسخ والمنسوخ سورة النحل من أعاجب السور قالت طائفة نزلت بمكة وقالت طائفة بالمدينة،والصحيح نزولها من أولها إلى رأس أربعين بمكة والباقى بالمدينة.

وعن ابن عباس أنها مكية إلا ثلاث آيات: ولا تشتروا بعهد الله إلى تعلمون. وقال مقاتل إلا قوله تعالى:من كفر بالله من بعد إيمانه الآية وقوله تعالى: وضرب الله مثلا الآية وقوله تعالى: والذين هاجروا فى الله إلى آخر السورة،آيها مائة وثمان وعشرون وكلمها ألفان وثمان مائة وأربعون وقيل وإحدى وأربعون وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف قال

صلى الله عليه وسلم - من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلة تلاها كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية. وقالوا من كتبها وجعلها في حائط أوبستان لم يبق في شجرة حمل إلا سقط وانتثر وإن جعلها في منزل قوم انقرضوا وبادوا من أولهم إلى آخرهم في سنتهم تلك وتحدث لهم أحوال تزيلهم فليتق الله عاملها ولا يعملها إلا لظالم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ توجه إليكم وشرع فى المجيء إليكم أو حضر وعلى
هذا الوجه فإنما عبر بذلك لأنه يقع لا محالة فكأنه قد وقع وحضر
وهو قيام الساعة أو عذاب الآخرة المترتب على الموت أو على البعث
وذلك أن الكفار كذبوا بالساعة والبعث وعذاب الآخرة وقالوا أيان
مرساها وقالوا متى هذا الوعد،وروى أنه لما نزل اقتربت الساعة قالوا
إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قربت فأمسكوا عن بعض ما أنتم عليه
ينظر ما يكون فمضت أيام فقالوا ما نرى شيئا فنزل اقترب للناس
حسابهم فأشفقوا فامتدت الأيام فقالوا يا محمد ما رأينا شيئا مما تخوفنا
به فنزل أتى أمر الله فوثب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورفع الناس
رءوسهم ظنوا أنها قد حضرت حقيقة فنزل ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ أى
لاتطلبوا مجيئه قبل وقته فإنه لاخير لكم بل فيه عقابكم وإذاجاء فلامرد له
فاطمأن ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينئذ والناس وقال بعثت أنا والساعة
كهاتين يشير إلى السبابة والوسطى وسبقها بمثل ما فضلت الوسطى
على السبابة وبعثه من علامات الساعة ولما مر جبريل بأهل السماوات
مبعوثا إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا الله أكبر أقامت الساعة وذلك
قول الجمهور . وقال الحسن وغيره أمرالله عذاب الكفار فى الدنيا ونصر

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما فعل ببدر فذلك جواب لقولهم أتينا بعذاب الله وقولهم اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتينا بعذاب أليم وممن قال هذا النضر ابن الحارث وقيل يوم بدر أسيرا وكانوا يقولون إن صح ما يقوله فالأصنام تشفع لنا، والخطاب للكفار كما علمت فقوله بعد ذلك يشركون جاء على طريق الالتفات من الخطاب للغيبة ويصح أن يكون الخطاب للمؤمنين أو لهم وللكفار كما مر أنهم جميعا رفعوا رءوسهم عند نزول أتى أمر الله حتى نزل فلا تستعجلوه وعلى ذلك فلا التفات ثم ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزهوه عن الشرك الذى من جملته استعجال الكفرة الأمر تكذيبا واستهزاء واتخاد الأصنام (وَتَعَالَى) عظم وجل ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ما مصدرية أى عن الإشراك بمثل ذلك الاستعجال الصادر منهم تكذيبا واستهزاء واسم أى عن الأصنام التى يشركونها به ويزعمون أنها تدفع عندهم ما أراد بهم بالشفاعة وتنازع سبحانه وتعالى فيما بعدهما وقرأ حمزة والكسائى عما تشركون بالتاء الفوقية ليطابق فلا تستعجلوه على أن الخطاب فى تستعجلوه للكفار ومن قرأ أى بالتحتية فيهما .

﴿ يُنَزِّلُ ﴾ الله ﴿ الْمَلَائِكَةَ ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمر بإسكان النون وتخفيف الزاى من إنزال وهو رواية عن يعقوب وروى عنه تنزل

بتاء فنون فزاى مفتوحات أى تنزيل وحذفت إحدى التاءين وقرأ أبو بكر تنزل بضم التاء وفتح النون والزاى وتشديد الزاى وعليهما فالملائكة بالرفع والملائكة جماعة من جملة الملائكة ولو فسرنا الروح بالوحى أو القرآن أو كليهما وبسائر كتب الله ووحيه لأن الملائكة فى ذلك مدخل فبعض ينسخ من اللوح وبعض ينقل إلى بعض وبعض يشيع الوحى وما نزل من كتاب وربما كان الوحى بدون جبريل كإسرافيل وقيل المراد جبريل عبر عنه بالجمع تعظيما وإن الروح هو ماذكر ﴿ بِالرُّوحِ ﴾ بالوحى أو القرآن أو كليهما وبسائر كتب الله ووحيه وسمى ذلك روحاً لأن به حياة القلب الميت بالجهل، كما قال الزجاج أو لأنه يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد وقال عطاء الروح النبوة وكذا عن مجاهد وعن ابن عباس الوحى وقال قتادة الرحمة وهى أيضا الوحى وما نزل من الكتب فإنهما رحمة.قال الربيع بن أنس كل كلام الله روح وإن منه وأوحينا إليك روحا من أمرنا والباء بمعنى مع فى ذلك كله،كما فى قول بعض إن الروح جبريل وكما فى رواية عن ابن عباس أن الروح خلق الله لا ينزل ملك إلا ومعه روح كفيل حفيظ لا يتكلم ولا يراه ملك ولا غيره وكما فى رواية عن مجاهد أنه خلق لهم أيد وأرجل﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ من للتعليل أى من أجله أو بمعنى الباء

أى بأمره أى بإرادته ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم الرسل أى على من يشاء اتخاذه رسولا واصطفاه للرسالة وإنما ذكر تنزيل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده بعد ذكر إتيان أمر الله والتهديد به والنهى عن الاستعجال والتنزيه عن الشركة إشارة إلى ما به علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يحقق موعدهم وقربه وما به علم بطلان الشركة وبطلان استبعادهم اختصاصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعلم بذلك فإن يتكلم بما نزلت به الملائكة صادق قطعاً ﴿ أَنْ أَنذِرُوا ﴾ أى أعلموا الناس أو خوفوهم والخطاب لمن يشاء من عباده وإن مصدرية والباء مقدرة قبلها عند من أجاز دخول المصدرية على الأمر والمصدر والجار بدل من قوله بالروح أو لا يقدر الجار فيكون المصدر بدلا من الروح وإن قدر منصوبا على نزع الخافض فهو والخافض المنزوع بدل من قوله بالروح أو معسرة فإن فى الروح معنى القول دون حرفه إذا فسر بالوحى أو القرآن أو نحوهما مما مر فإن تنزيل الملائكة بالروح مطلقاً مشعر بالوحى المطلق والوحى كلام وأجيز أن تكون مخففة من الثقيلة فهى أيضاً مصدرية والكلام فيها كالكلام المذكور فى المصدرية الخفيفة وكل من التفسير والإبدال قرينة على أن الروح ليس على حقيقته وهو الروح الجسد فإنه مستعار للوحى وما ذكر استعارة أصلية تحقيقية تصريحية . ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾ مفعول لأنذروا

أى أعلموا الناس أن الشأن لا مستحق للعبادة غيرى أو على تقدير الباء أى خوفوهم بأنه لا إله إلا أنا فإن الإنذار يأتى بمعنى الإعلام المطلق وبمعنى التخويف . ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ خطاب لمن يشاء من عباده أيضاً ويجوز أن يكون من جملة ما به الإنذار على طريق الالتفات والأصل فاتقوه وإنما كان من الالتفات مع تقدم التكلم فى قوله إلا أنا لأنهم إنما يقولون لا معهم قولوا واعتقدوا أنه لا إله إلا الله والآية تدل على أن الوحى ينزل بواسطة الملك وأن حاصل الوحى الأمر بالتوحيد وهومنتهى كمال القوة العلمية وبه ينتفع بسائر العلم ، والأمر بالتقوى وهى غاية كمال القوة العملية وقدم التوحيد لأن التقوى مبنية عليه ولأنه يختلف على كثرة الأمم بخلاف الأعمال ،فقد يكون عمل تقوى فى أمة ومعصية فى أخرى وكذا الترك وتدل الآية أيضاً على أن الرسالة اضطرارية وإنها هبة من الله ودل الله سبحانه على وحدانيته بايجاز أصول المخلوقات وفروعها على وفق الحكمة والمصلحة إذ قال :

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ إلى آخر الآيات فإنه لو كان له شريك لمنع أحدهما الآخر من كل ما يريد أو من بعضه فمن ذلك إيجاده السماوات والأرض على كمية فى كل منهن وكيفية مخصوصة لحكمة وهى المراد بالحق وفسره بعض بالبعث والجزاء . ﴿ تَعَالَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴾عن إشراكهم أو عما يشركونه به وقرأ حمزة والكسائي بالفوقية وإنما ذكر هذا بعد ذكر خلق السماوات والأرض إزراء بهم وتشنيعاً عليهم إذ أشركوا به ما هو ومن السماء أوالأرض وهن وما فيهن مخلوقة له ويفتقر في وجوده وبقاءه إلى السماوات أو الأرض المخلوقات له تعالى ولا يقدر على خلقهن ، وفي الآية دليل على أنه تعالى ليس بجسم وإلا احتاج إلى أن يتحيز موضعاً منهن أو من غيرهن كالأصنام التي اتخذوها شركاء كما أنه ليس بعرض لأن العرض لا يوجد سواه .

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾جنس ذرية آدم . ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ لاحياة بها ولا تنمو كما ينموا الشجر سائلة كالماء لا تطيق أن تضع نفسها في موضع بالانتقال من الموضع الموضوعة انتقالا كلياً والتشكل وغذاه وقواه حتى صار قوياً شديداً . ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾شديد الخصومة بنطق وجدال في مصالحه ومنافعه وغير ذلك . ﴿ مُّبِينٌ ﴾ظاهر الخصومة أو مظهر لحجته مفصح عما في ضميره وذلك على العموم. وقال الحسن البصري المعنى فإذا هم مجادلون أي جنس الإنسان في آيات الله جدالاً ظاهراً ، كما روى أن أبي بن خلف جاء بعظم رميم إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال له : أتزعم أن الله يحيي هذا العظم بعد ما رم ، فنزل فيه ذلك وقوله ، قال : من يحيي العظام وهي رميم ، والوجه الأول أولى لعمومه

بكل خصومة نافعة أو ضارة فى الدنيا أو فى الدين ولا تشمل الآية الخصومة يوم القيامة الا من حيث أن الأَصل بقاؤه على الخصومة فى الآخرة كما فى الدنيا وتضمنت الآية إثبات البعث فكما خلق الإنسان يقدر على بعثه وتعديد النعم والتشنيع على من كفر به وقد أنعم عليه بهذه النعمة وتعريفه للإنسان قدره بأنه من نطفة قذرة منتنة كى يتضع ولا يترفع .

﴿ وَٱلْأَنْعَامَ ﴾ الإبل والبقر والغنم والنصب على الاشتغال واختير لتوافق الجملة قوله خلق الإنسان أو بالعطف على الإنسان وعليه فقوله .

﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ بيان ماخلق لأَجل الإنسان ونفعاً له واللام للتعليل أو للملك وما بعد ذلك تفصيل لما خلق لأَجل الإنسان فيها من المنافع ويجوز كون الوقف على خلقها ويستأْنف بقوله لكم ، ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ويناسب قوله ولكم فيها جمال واختاره بعض وعليه فاللام للملك ونحوه لا للتعليل وتعلق بمحذوف خبر دفء وفيها يتلق بما تغلق به أو بمحذوف حال من ضمير الاستقرار فيه وعلى هذا الوجه الذى هو أن الوقف على خلقها يكون الأنعام منصوباً على الاشتغال لامعطوفاً على الإنسان والدفءما يدفأبه كالذبح بمعنى مايذبح والنقض بمعنى المنقوض بكسر الأَوائل والمراد اللباس المتخذ من الصوف والوبر والشعر وما يفرش وما يغطى به من ذلك ، وقيل الدفى النسل وقيل

نسل الإبل فقط فالحكم على هذا القول حكم على المجموع فى جانب الدفء والصحيح الأول وقرأ دف بإسقاط الهمزة والإعراب على الفاء. ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ كالركاب والحرث فى ما يحتملهما منها وهو الإبل والبقر كاللبن فى الإبل والبقر والغنم وكالنسل إذا لم نفسر به الدفء وكأثمان ما بيع منها أو من أوبارها وأشعارها وأصوافها أو لبنها أو سمنها أو جبنها أو قطنها ، وأثمان اكتراء ظهور مايركب منها ، وعبر بالمنافع ليشمل الأثمان ،﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ما يؤكل كاللحم والشحم والسمن والزبد والجبن والأقط وتقديم الظرف للمحافظة على رءوس الآى أن يكون آخرها نوناً أو للحصر الإضافى أى لا تأكلون إلا منها بالنسبة إلى الأكل من الحيوان فى الغالب فإن صيد البر والبحر والدجاج والأوز وبيضهما ونحو ذلك مما يؤكل أيضاً لكن غير غالب وجاز مجرى التفكه ،والتفكه أو التقديم للاهتمام فى كلام العرب أو لذلك كله ويجوز أن يكون المراد بالأكل منها أيكم ما تحرثون عليها وتسقون من الثمار ومن أثمانها وأثمان ما يتولد منها كصوف ولبن وأثمان كراء ظهورها وذلك بحسب ما يصلح فى كلٍّ فإن الغنم لا يحمل عليها ولا يحرث ولا يستى عليها وفيها سائر المنافع وقد يحمل عليها ما خف

عنها كخرج الراعي ، وقيل قدم منفعة اللباس على منفعة الأكل لأنها أكثر وأعظم .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ وزينة ، ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ أى تريحونها أى تردونها فى الإرواح من مراعيها والرواح العشية أو حين تدخلون فى الرواح كقوله تعالى :حين تمسون لأنهم إذا دخلوا فيها جاءت من مراعيها والأول أنسب بقوله ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أى تسرحونها أى تخرجونها إلى المراعى وذلك فى الغداة تتزين بها بيوتهم وجوانبها فى وقت الإراحة وفى وقت السرح ويعظمون فى أعين الناظرين إليها وتستحلى القلوب أصواتها وأحسن ذلك فى أيام الربيع إذا نبت العشب لسقط الغيث وأعظمها فى ذلك الإبل إذا أقبلت من مراعيها طوال الأسنمة ممتلئة البطون حافلة الضروع تأوى إلى مآويها سالمة قريبة من أهلها فإنها فى ذلك أجمل ولذلك قدمت الإراحة ولأنها فى السرح يعقبها التفرق فى المرعى ، منَّ الله عليهم بكونها جمالا كما منَّ بكونها نفعاً لأن الجاه والحرمة يحصلان بها لهم ، وقرأ عكرمة حينا تريحون وحينا تسرحون بتنوين الحينين على أن الجملتين بعدهما نعتان لهما على حذف الرابط أى حينا تريحون فيه وحينا تسرحون فيه .

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ أحمالكم الثقيلة من متاع الميرة أو التجارة

أو غير ذلك وما يستصحبه المسافر وهو جمع ثقل بمعنى الشيء الثقيل ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ ﴾بأرجلكم غير حاملين شيئاً ﴿ إِلَّا بِشِقِّ ﴾ كلفة ،﴿ الأَنْفُسِ ﴾ وقرئ إلا بشق الأنفس بكسر الشين والمعنى واحد وهما لغتان وقيل المفتوح مصدر شق عليه الأمروأصله الصدع والمكسور بمعنى النصف كأنه قيل إلى بلد لم تكونوا واصلين إلابذهاب نصف قوة أنفسكم بالتعب والمراد بالبلد مطلق البلد بلدكم بأن تحملوا عليها ما تحتاجون إليه من غيرها وغير بلدكم بأن تحملوا إليها من بلدكم أو من غيره ما تحتاجون وهذا أولى من قول بعض إن المراد إلى بلد غير بلدكم إلا إن أراد هذا البعض ببلدكم البلد الذى أنتم فيه سواء لكم أو لغيركم وأولى من قول ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة المراد من مكة إلى الشام وإلى اليمن وإنما خصه لأن الخطاب لأهل مكة واكثر تجارتهم وأسفارهم إليها لكن مع تخصيصه يحمل عليه غيره حملا ظاهراً متبادراً وجملة لم تكونوا بالغيه . الخ ، نعت لبلد ومعنى لم تكونوا بالغيه ما صح فيما مضى إلى الآن أن تبلغوه بارجلكم غير حاملين إلا بشق الأنفس فكيف لو حملتم أثقالكم على ظهوركم وكذا فى باقى أزمانكم ويحتمل أن يكون المعنى لم يصح أن تبلغوه حاملين تلك الأثقال فى ظهوركم إلا بشق الأنفس وقيل : أثقالكم أجسامكم

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ ﴾رفيق بكم إذ سهل عليكم الأَمربخلق الأَنعام ونفعكم بها ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ منعم عليكم نعمة عظيمة .

﴿ وَالْخَيْلَ ﴾ اسم جنس لاواحد له من لفظه عطف على الأَنعام والإنسان قيل سميت خيلا لاختيالها فى مشيتها ﴿وَالْبِغَالَ﴾ جمع بغل ﴿ والْحَمِيرَ ﴾جمع حمار أو اسم جمع له قولان والتقدير وخلق لكم الخيل والبغال والحمير ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ لم يقل ركوباً بالنصب على أنه مفعول لأَجله لاختلاف فاعله وفاعل الخلق وزمانهما فإن فاعله الله سبحانه وتعالى وزمانه متقدم وفاعل الركوب الناس وزمانه متأَخر أو إذ لا تركب فى حين خلقت لاتحاد الفاعل والزمان فى قوله : ﴿ وَزِينَةً ﴾ انتصب على أنه مفعول لأَجله وهو مصدر زانه فإن فاعل الخلق وفاعل الزينة الله جل جلاله فإنه زان الناس بها أى أبهاهم وأجملهم بها وزمان الخلق خارجاً وزمان زينة إياهم بها واحداً فلها زينة ولو فى حال صغرها ونصب بمحذوف أى وخلقها زينة لا بالعطف على محل لتركبها لأَن محله لا يظهر فى الفصيح خلافاً لبعض ولو جر زينة باللام لجاز وطابق ما قبله لكن خولف بينهما لأَن المقصود الركوب وأما التزيين بها فإنما يحصل بالعرض وكل منهما معلوم لله بلا أول ويجوز كون زينة اسم مصدر بمعنى التزين فيكون مفعولا مطلقاً لمحذوف أى ولتزينوا

بها زينة ويجوز كونه بمعنى ما يتزين به فيكون حالا عاملها وصاحبها محذوفان أى خلقها زينة أو لمفعول لمحذوف أى وجعلها زينة وقرىء زينة بغير واو وهو مفعول لأَجله ناصبة تركت أو حال من الواو أو من قوله ها أى لتركبوها متزينين أو لتركبوها متزينا بها،فهى مصدر بمعنى اسم فاعل أو اسم مفعول،واستدل ابن عباس ومالك وأبو حنيفة بالآية على تحريم لحم الخيل والبغال والحمير إذ علل خلقها بالركوب والزينة ولم يذكرها للأكل بعد ذكر الأَنعام للأَكل ولا دليل فى ذلك لأَنه لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد بما يقصد منه غالباً وهو هنا الركوب والزينة أن لا يقصد منه غيره أصلا وهو هنا أكل لحمها مثلا والإلزام تحريم حمل الأَثقال على الخيل والبغال والحمير حيث ذكر فى الأَنعام دونها ولأَن الآية مكية وعامة المفسرين والمحدثين على أن الحمر الأَهلية حرمت عام خيبر وهو بعد الهجرة بأَكثر من ست سنين، وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما نحرنا على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فرساً ونحن بالمدينة فأَكلناه ، وكذا ذكر عطاء عن جابر ابن عبد الله أنهم كانوا يأْكلون الخيل على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعنه نهانا زمان خيبر عن أكل البغال والحمر الأَهلية وأذن لنا فى الخيل وعن الحسن نهى رسول الله ــ صلى الله عليه

وسلم – عن لحوم الحمر الأَهلية وألبانها وحجة الحسن وسعيد بن جبير والشافعى وأحمد وإسحاق وابن الزبير وأنس فى إباحة لحم الخيل بلا كراهة ما ذكر ويجاب من جانبهم على الآية بما مر من أنه لا يلزم من التعليل بما يقصد غالباً أن لا يقصد غيره وبأَنه لم يعرفوا أكل الخيل لعزتها فخوطبوا بما عرفوه منها من ركوب وزينة ، كما اقتصر فى الأَنعام على الأَكل والحمل لأَنهما الغالب والثالثة ولو كان سياقها فى الآية واحدا لكن خصت السنة الخيل منها بالخيلة وإن قيل لو أبيح أكلها لفاتت المنفعة بها فيما وقع به الامتنان فى الركوب والزينة قيل لو لزم من الإذن فى أكلها أن تفنى للزم مثله فى البقر وغيرها مما أبيح أكله ووقع الامتنان به. وفى رواية نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأَهلية ورخص فى الخيل ، قال ابن أبى أوفى فتحدثنا أنه إنما نهى عنها لأَنها لم تخمس ، وقال بعض نهى عنها البتة لأَنها تأْكل العذرة وقيل للحاجة إليها وقيل لأَخذها قبل القسمة فهى مباحة فى الأَصل على هذه الأَقوال غير الثانى وقيل بتحريم الخيل لأَنها آلة جهاد ويرده ما مر من إباحة اكلها يوم خيبر ومن حديث أسماء إنا نأْكلهْ على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالمدينة وذلك كله بعد فرض الجهاد وإن قلت يحتمل أن يكون قولها على عهده أن ذلك فى زمانه وليس

فى ذلك ما يدل على أنه اطلع على الآكل قلت لا يظن بآل أبى بكر رضى الله عنه أنهم يقدمون على فعل شىء فى زمانه – صلى الله عليه وسلم – ألا وعندهم العلم بجوازه لشدة اختلاطهم به – صلى الله عليه وسلم – مع توافر داعية الصحابة إلى سؤاله – صلى الله عليه وسلم – عن الأحكام ولذلك كان الراجح أن الصحابى إذا قال كنا نفعل كذا على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان له حكم الرفع لأن الظاهر اطلاعه على ذلك وتقريره فكيف بآل أبى بكر مع أن الأصل فى قولهم على عهد فلان أن يكون تعنى قولك على علمه ويقوى علمه – صلى الله عليه وسلم – بذلك ، رواية الدارقطنى عن أسماء فأكلناه نحن وأهل بيت النبى – صلى الله عليه وسلم – وذكر عطاء الحل عن الصحابة مطلقاً الخيل ورويت بسند ضعيف عن ابن عباس كراهتها وكرهها أبو حنيفة كراهة تنزيه ،وقال الأكثر عنه كراهة تحريم وكرهها مالك تنزيهاً وهو مشهور المالكية والصحيح عند محققيهم تحريم وسبب كراهتها أنها للجهاد فلو انتفت الكراهة لكثر أكلها فتؤول إلى النقص من إرهاب العدو بها المأمور به فى قوله تعالى : « ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فليس تحريمها أو كراهتها لذاتها بل كل حيوان مما أبيح لو حدث أمر يفضى فى ذبحه إلى محذور لامتنع ، قال بعض المانعين

لو حلت لجازت الأَضحية بها وينقضه حيوان البر فإنه يؤكل ولم تشرع الأَضحية بها ، وأما رواية خالد ، نهى - صلى الله عليه وسلم - عن لحوم الخيل والبغال والحمير فمعارض الأَحاديث إباحة الخيل فتقدم عليه لكثرتها ولحديث اسماء وقد ضعف حديث خالد أحمد والبخارى والدارقطنى والخطابى وابن عبد البر وعبد الحق وغيرهم ، وإن قلت حديث جابر بن عبد الله دال على التحريم لقوله رخص والرخصة استباحة الخطوب مع قيام المانع فدل على أنه رخص لهم بسبب المخمصة التى أصابتهم بخيبر فلا يدل ذلك على الحل المطلق قلت أكثر الروايات جاء بلفظ الإذن،وفى رواية ابن عباس عن من حضر خيبر نهانا-صلى الله عليه وسلم-عن الحمر الأُهلية وأمر بلحوم الخيل فدل على أن المراد بالترخيص الإذن وأيضا لو كان الإذن فى لحم الخيل ترخيصا للمخمصة لكانت الحمر الأَهلية أولى بذلك لكثرتها وعزة الخيل وحاصل القول فى الثلاثة تحريمها وتحليلها وكراهتها وتحليل الخيل مع كراهة الحمار والبغل وكراهة الخيل مع تحريمهاأقوال .

﴿ وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾مالا تعلمونه بتفاصيله ولو علمتموه إجمالا كالملائكة وما فى البحر من أنواع السمك وما فى البر مما لم تروه عيانا ويحتمل أن يراد ما يعم الحيوان وغيره وعن قتادة ما لا تعلمون

السوس فى النبات والدود فى الفاكهة وقيل ما أعد لأَهل الجنة وأهل النار مما لم يخطر على قلب بشر وفى ذكر الله جل جلاله خلق مالا نعلم امتنان علينا كما من الأَشياء المعلومة مع زيادة الدلالة على قدرته وإنما طوى عنا علم ذلك لحكمة ويجب على من ملكه الله شيئا من الحيوان أن يشكره على ذلك ويرفق بذلك الحيوان ويعرضه على الماء إذا مر به وإذا كان فى أرض جدبة أسرع المشى أو فى خصبة مشى رويدا وأكثر النزول عنه ليرعى ولا ينام عليه فإن الله سبحانه خلقه ليبلغ به بلدا لم يكن بالغه إلا بشق النفس والله رفيق يحب الرفق فى كل شىء ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف وعليكم بسير الليل فان الأَرض تطوى بالنهار ولا تنزل على الطريق فإنها طريق الدواب ومأوى الحيات فذلك كله سنة مروية فى الأَحاديث وما دخل الرفق شيئا إلا زانه رزقنا الله منه .

﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ القصد مصدر فى الأَصل يستعمل بمعنى المستقيم بإضافته إلى السبيل للتبعيض والسبيل جنس يقال طريق قصد وطريق قاصد أى مستقيم موصل إلى المراد الحسن كأَنه يقصد الوجه الذى يقصده السالك لا يميل ويقدر مضاف فكأَنه قيل وعلى الله بيان المستقيم من السبل وهو دين الإسلام أو على الله هداية المستقيم منها

ويجوز أن لا يقدر بأن يكون المعنى من سلك المستقيم من السبل وصل إلى الله كما تقول جنان فلان على الطريق تريد من اتبع الطريق وصل إليه ﴿ وَمِنْهَا ﴾ أى ومن السبيل لأن المراد بالسبيل كما مر الجنس ﴿ جَائِرٌ ﴾ سبيل مائل عن الاستقامة أو عن الله وهو ما عدا دين الإسلام، ويجوز أن يراد بالسبيل سبيل الله المعهود، فتكون الإضافة للبيان أى وعلى الله بيان قصد هو سبيله فيكون الضمير فى قوله ومنها عائدا إلى السبل الكثيرة التى تفهم من الآية أو عائدا إلى السبيل المذكور على طريق الاستخدام بأن ذكر على معنى العهد وأُعيد عليه الضمير على معنى الجنس وكل طريق غير طريق الإسلام يصدق عليه أنه من السبل وأنه جائر وإنما غير الأسلوب فلم يقل وعليه جائرها أو الجائر كما قال وعلى الله قصد السبيل، لأن المقصود بيان سبيله المستقيم لا تقسيم السبيل إلى مستقيم ومائل فذكر الجائر أن ما جاء بالعرض تتميما للكلام بذكر ضد المستقيم هذا ما كنت أقول ثم رأيت القاضى ذكره والحمد لله لولا أنه لم يبق الكلام محتاجا إلى ذكر المائل بعد ذكر المستقيم فإن المائل هو ما عداه، فبأى عبارة ذكر كان الكلام فصيحا بليغا إذ خلا عما يوجب زكاته أو لأنه ليس بحق على الله أن يبين طرق الضلالة لكن اقتضت رحمته ورأفته أن بينها كما بين قصد

السبيل تأكيدا وإيضاحاً ولو كان بيان طريق الهدى مغنياً،أما الوجوب فلا واجب على الله ولكن اقتضت الحكمة أن بين طريق الهدى ولما اقتضته صار كالواجب فكان التعبير بعلى قبل أو غير الأسلوب ليعلم بما يجوز إضافته إليه من السبيلين.وقرأ ابن مسعود ومنكم جائر أى مائل عن القصد باختياره والله منه برىء﴿ وَلَوْ شَاءَ ﴾ هدايتكم أجمعين هداية إيصال وتوفيق إلى قصد السبيل﴿ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ باختياركم فيثيبكم أو بالجبر فيثيبكم ولكن الحكمة تقتضى أن لا يجبر أحداً على إيمان ولا كفر لأن المدح والذم والثواب والعقاب يبطلن فى الجبر فهو كالعبث تعالى عنه وأما هداية البيان فقد هدى المكلفين كلهم.

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ الوقف هنا ويستأنف بقوله ﴿ لَّكُم ﴾متعلق بمحذوف خبر﴿ مِّنْهُ ﴾ متعلق بما تعلق به الأول أو بالأول لنيابته عن المحذوف أو المحذوف حال من ضمير الاستقرار فى الأول وهى للابتداء أو للتبعيض وأجيز تعليقها بشراب﴿ شَرَابٌ ﴾ مبتدأ أو يكون الوقف على قوله لكم فيعلق بأنزل ويعلق منه بمحذوف خبر وشراب مبتدأ وقدم منه على هذا الوجه للحصر فإن الشرب ولو كان يتم أيضاً من العين والبئر لكنه لا ماء فى الأرض إلا وقد نزل من السماء ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾هذا يقوى أن يكون لكم فيستأنف منه شراب ومنه شجر

وإما على الوجه الأَول وهو الوقف على ماء فإما أن يقدر ولكم منه شجر وإما أن يقال غير الأَسلوب لأَن الشراب أهم ومعنى كون الشجر من الماء أنه ينبت به والمراد الشجر الذى ترعاه الماشية بأَفواهها أو بهش الراعى عليها ويدل لذلك ذكر الإسامة فيه عقب هذا ،ويحتمل أن يريد مطلق الشجر فمعنى الإسامة فيه الإسامة فى مجموعه بعضه تأْكله الماشية وبعضه لا وكذا الشراب المراد منه ما يشرب من المياه أو مجموع الماء وفائدة المجموع فى الموضعين إنما لا منفعة فيه بشربكم أو شرب دوابكم من الماء وما لا منفعة فيه لهن من الشجر فيهما منافع لغير ذلك والشجر ما له ساق من النبات وقيل كل نبات واستدل له الزجاج بقول الشاعر :

يعلفهـا اللحم إذا عـز الشجر والخيل فى إطعامها اللحم ضرر

وفى رواية اضجر أراد الشاعر أن اللائق أن تسقى اللبن إذا عز الشجر لا أن تطعم اللحم ،والتحقيق عندى أن الشجر فى البيت ماله ساق لا تناله الماشية بفمها دليل قوله يعلفها ،وفسر قتادة الشجر فى الآية بالحشيش. قال عكرمة لا تأْكلوا من الشجرة يعنى نبات المطر فإنه سحت ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ترسلون مواشيكم للرعى فيه سامت الماشية

رعت فهى سائمة وأسامها صاحبها رعاها وكذلك من السومة وهى العلامة لأنها إذا رعت بقى أثرها فى الأرض من وضع حافرها وظلفها وخفها وبعر وبول وبقى أثرها فى النبات يرى مقطوفاً ومقلوعاً ومكسورا وضد السائمة التى يؤتى لها بالعلف .

﴿ يُنبِتُ ﴾ أى الله وقرأ أبو بكر ننبت بالنون على التعظيم وقرىء ينبت بالتحتية والتشديد والزرع وما بعده منصوبات وقرأ أبى بن كعب بتحتية مفتوحة وإسكان النون وضم الموحدة ورفع الزرع وما بعده ﴿ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ ﴾ مايزرع كالبر والشعير والجزر واللفت ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ ﴾ قدم ما يسيمون فيه من الشجر لأنه يصير غذاء حيوانياً أشرف الأغذية وهو اللبن وما يتولد منه واللحم والشحم ثم قدم ما يشتمل نحو البر والشعير لأنه به قوام بدن الإنسان ولو شمل أيضاً الفواكه التى تزرع ثم قدم الزيتون لأنه إنما هو إدام للطعام ودهن ثم النخيل لأن التمر غذاء وفاكهة ثم العنب لأنه كالتمر فى التفكه والتغذية ﴿ وَمِن كُلِّ ﴾ أى وشيئا ثابتا من كل ﴿ الثَّمَرَاتِ ﴾ التى تعرفونها،هذا ما ظهر لى وهو أولى من قول بعضهم المعنى وبعض كل الثمرات معللا بأنه لم ينبت فى الأرض كل ما يمكن من الثمار لأن كل الثمرات لا يكون إلا فى الجنة وذكر الثمرات إجمالا بعد تفصيل

فقد يقال أراد بالزرع ما يكون طعاماً فقط كالبر والشعير وكل ما فى الأرض من الثمار فإنما هو تذكير لثمار الجنة والمؤمن يعرف أن ثمار الجنة أفضل وتذكير لأهل الجنة فى الجنة ما بين ثمار الجنة وثمار الدنيا من التفاوت﴿ إنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ المذكور من إنزال الماء وإنبات الشجر والزرع وإخراج الثمار ﴿ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾علامة واضحة ينتفع بها المتفكرون وهم المؤمنون تدلهم على وجود الله سبحانه وإنه الفاعل لذلك باختياره لا غيره فلا يصح أن يكون غيره شريكا له وعلى كمال قدرته وحكمته وعلى قدرته على إحياء الموتى إذ كانت الحبة ميتة يابسة تقع فى الأرض وتصلها التلاوة فينشق أعلاها فيكون منها ساق وأسفلها فيكون منها عروق وتنمو وتخرج منها أوراق وأزهار وأكمام وإثمار فى اختلاف ألوان وأشكال وأطباع مع اتحاد الماء والأرض والحر والبرد والريح ولعله فصل لذلك التنبيه العظيم بقوله :إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون،بين قوله ينبت لكم به إلى آخره وقوله :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ ﴾ذللها بأن هيأها لنفعكم فلم تقدروا على الامتناع ومن انتفاعهم سكونهم بالليل وابتغاؤهم من فضل الله بالنهار ومعرفتهم عدد السنين والحساب والأوقات والاهتداء فى البر والبحر بالشمس والقمر والنجوم وخروج

الثمار ونموها ونضجها بحرارة الشمس والقمر بأن جعلهما الله ونحوهما وغيرها أسبابا بالافاعلات بذاتها ومن قال المؤثر فى ذلك حركات الكواكب وأوضاعها والشمس والقمر بذاتها أشرك وإنما ذلك بإيجاد الله لما وتقديره كما قال ﴿ مُسَخَّرَاتُ ﴾ لكم أو لما خلقن له من المنافع أو لكم ولغيركم مما لا تعلمون أو معنى مسخرات مجعولات كما يشاء وهو اسم مفعول حال من الجميع مؤكدة على الأول مؤسسة بعض تأسيس على الباق أو مصدر ميمى بصيغة اسم المفعول لأنه من غير الثلاثى مفعول مطلق بمعنى تسخيرات أى أنواع من التسخير ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بإيجاده وتقديره أو بحكمه أو بإرادته فكيف يعتقد فلسفى أو منجم أن النجوم والشمس والقمر هى المتصرفات فى السفلى قبحهم الله وقرأ ابن عامر برفع الشمس على الابتداء وما بعده على العطف ورفع مسخرات على الإخبار وقرأ حفص بنصب الشمس والقمر عطفا على ما قبل ورفع النجوم ومسخرات على الابتداء والإخبار ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ التسخير ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ذكر هنا العقل دون الفكر لأن كل من له عقل صحيح يستدل به فى تلك الآيات العلوية لأنها أوضح دليل وأظهره بخلاف النبات فإنه يحتاج إلى استيفاء الفكر فى أحواله فذكر فيه التفكر والمراد مع ذلك بقوم يعقلون المؤمنون .

﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾خلقه أو بثه ونشره بخلقه إياه فى مواضع لا تحصى والعطف على الليل أو النجوم وعلى الليل أو النهار فى قراءة ابن عامر وعلى الليل أو القمر فى قراءة حفص كأنه قيل وسخر لكم ما خلقه ﴿لَكُمْ فِى الأَرْضِ﴾ من حيوان ونبات وثمار وغير ذلك﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ كأحمر وأصفر وأبيض وأخضر وأسود وغير ذلك. وقال الحسن المراد ما ذرأ لكم من النبات والثمار فقط والأول أفيد لأنه أعم واختلاف أكوان المخلوقات حتى لا يشبه بعضها بعضاً من كل الوجوه دليل قاطع على كمال قدرة الله تعالى وإخبار بعضهم أن الألوان بمعنى الأصناف ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ينتبهون بأن اختلافها طبعاً وهيئة ولونا إنما كان بصانع حكيم وهم المؤمنون .

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ جعله كما تنتفعون به مع أنه فى نفسه مهلك ضار ألا ترى عمقه ووسعه وملوحة مائه ودوابه ولله در القائل :

ما فيه مستغرب إلا سلامته

ومع ذلك مكننا الله برحمته من الركوب فيه وقطعه والاصطياد منه والغوص فيه ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ هو السمك وصفه بطريا لأنه أرطب اللحوم حتى أنه إن لم يسارع لأكله أسرع إليه الفساد ولإظهار قدرته إذ خلق ما هو طرى فى ماء غليظ وهو أيضا عذب اللحوم مع أنه فى ماء أملح المياه فيعلم الناس

أنه تعالى قادر بالذات لا بواسطة طبع الأماكن والأزمان وموافقتها وإلا لم يقدر أن يخرج الشيء من ضده تعالى الله،وبدأ بذكر الأكل لأنه أعظم وأهم ومن حلف لا يأكل اللحم فأكل السمك حنث عند مالك والثورى لأن الله سبحانه سماه لحما،واعترض بأن التحقيق أن مبنى الإيمان على العرف لا على اللفظ فلو حلف أحد أن لا يبيت تحت سقف لم يحنث بالسماء ولو سماه الله سقفا، ولو حلف أن لايركب دابة لم يحنث بركوب الكافر مع أن الله سبحانه سماه دابة فى نحو قوله: إن شر الدواب عند الله الذين كفروا، إلا إن عنى شيئا من ذلك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً ﴾ مايتحلى به أى يتزين به كاللؤلؤ والمرجان ﴿ تَلْبَسُونَهَا ﴾ رجالكم ونساؤكم ولا يمنع الرجل من لباس اللؤلؤ والمرجان وقد أباحته الآية له ويحتمل أن يكون المراد النساء نظرا للغالب من غير تحريمه على الرجال،وعليه فيقدر مضاف أى تلبسه نساؤكم أو يجعل الخطاب لهم ولهن والحكم على المجموع وأسند إليهم اللباس لأنهن يتزين بذلك لهم والامتنان بأن استخراج الحلية منه دليل على أن البحر مراده به المالح لأنها منه ويجوز أن يراد به المالح والعذب وإخراج الحلية من مجموعه لا من جمعه كما قال يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ السفن ﴿ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ شاقات للماء بجريها جمع

ماخرة يقال مخر الماء أو غيره أى شقه ومخر الماء الأَرض شقها وقيل صابتات والمخر صوت جرى الفلك فى الماء أو صات بضرب الريح فيهن ويحتملهما كلام مجاهد. وقال الحسن ممتلئات بالمتاع وقال قتادة مقبلة ومدبرة ترى سفينة مقبلة وسفينة مدبرة تجريان كل تجرى بريح مسخر لها يناسب جهتها التى وجهت إليها فى وقت واحد كسائقين لدابتين كل يسوق دابته إلى ضد الجهة التى يسوق إليها الآخر دابته وقول بعض تجريان بريح واحدة إحداهما مقبلة والأُخرى مدبرة بعيد غير شاهد والله قادر على ذلك ﴿ وَلِتَبْتَغُوا ﴾ عطف على لتأكلوا أى ولتطلبوا الأَرباح بالتجارة ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ سعة رزق ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله تستعملون جوارحكم وقلوبكم فى عبادته وذكر الشكر هنا لعظم هذه النعمة حيث جعل ما هو مهلك سببا للانتفاع والمعاش.

﴿ وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ جبالا رواسى أى ثوابت لثقلها ﴿ أَن تَمِيدَ ﴾ أن تتحرك وتضطربَ فى تأويل مصدر مفعول لأَجله على حذف مضاف أى كراهة ميدها، ويجوز تقدير المصدر مخفوضا على الإضافة غير نائب عن المضاف فى النصب وذلك لأَنه غير صريح بل عبر عنه بالفعل وجر فى المصدر، وقيل الأَصل لئلا تميد بلام الجر ولا النافية فحذفتا ﴿ بِكُمْ ﴾ كانت الأَرض تتحرك بلا سبب من ماء أو

ريح سواء قلنا إنها بسيطة أو كرة أو بسيطة الطبع كرة الحقيقة أو تتحرك كالأفلاك فقالت الملائكة لا يقر على ظهرها أحد فأرسل الله على وسطها الجبال فأصبحت لا تتحرك ولم يدروا ما خلق الجبال ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ عطف على رواسى لأن فى الإلقاء معنى الجعل أو التقدير وجعل فيها أنهارا ودل على هذا قوله ألقى فيها وذكر الأنهار عقب الجبال لأن معظم العيون وأصولها من الجبال ﴿ وَسُبُلاً ﴾ طرقا من مكان إلى مكان تسلكونها فى حوائجكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدكم بتلك السبل وعبر بلعل لأنهم قد يخطئون فيصلون فعبر لهم بما يترجون به أولعل للتعليل أى لتهتدوا وقيل المراد لعلكم تهتدون بإلقاء الرواسى والأنهار والسبل إلى معرفة الله بالتفكر والنظر فى المصنوعات .

﴿ وَعَلاَمَاتٍ ﴾ دلائل على الطرق كجبل وأكمة وشجرة وسهل وماء وواد وريح ﴿ وَبِالنَّجْمِ ﴾ متعلق بالفعل بعد وهو جنس النجوم بدليل قراءة الحسن وبالنجم بضم النون والجيم ولا واو بعد الجيم جمع نجم بفتح فسكون وقيل حذفت الواو وبعد الجيم تخفيفا وقراءته بضم النون وإسكان الجيم تخفيفا عن الضم فى الجمع وقيل هو جمع آخر وقال قتادة أراد بالنجم الثريا وهى سبعة أنجم وقيل ستة كالعنقود المستطيل والفرقدين وهما نجمان يتوقدان من بنات النعش وسائر بنات النعش

والجدى وهو نجم عند القطب قال يقتدى بهن إلى الطريق والقبلة يريد أنه يجب عليهم الإيمان فيقتدون بها فى أمر القبلة ﴿ هُمْ ﴾ أى الناس مطلقا ففى ذلك التفات من الخطاب للغيبة أو المراد قريش إذ كثير سفرهم للتجارة وكان لهم علم بمسايرة النجوم شهورا به ولم يكن لغيرهم فذلك عدل عن غيرهم إلى الكلام فيهم خصوصاً وأدخل الضمير قبل الجملة وهو قوله هم فكانت الجملة اسمية دالة على التأكيد تأكيداً قريبا من الحصر وقدم النجم للفاصلة وإن كان الاهتداء لهم بغير النجم فإنما قدم لها وللحصر كأنه قيل وبالنجم لا بغيره هم لا غيرهم﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ فكان الشكر عليهم ألزم. قال ابن عباس العلامات معالم الطرق بالنهار والنجم ما يهتدى به من النجوم فى الليل وهو أعم من قول محمد بن كعب القرطبى والكلبى أراد بالعلامات الجبال والجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل. وقال مجاهد أراد بالعلامات والنجم جميعا النجوم فمنها ما هو علامة ومنها ما يهتدى به والجبال تكون علامات فى البر غالبا والنجم فى البر والبحر جميعا والبحر الواسع أحوج إلى النجوم من الضيق ومن البر ،خلقت زينة للسماء ورجما وهداية كما ذكر فى القرآن ومن قال غير ذلك فقد تكلم بما لا علم عنده .

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ ﴾الهمزة للاستفهام التوبيخى والإنكارى أى لا يصح ولا يمكن أن يكون من الخلق كل ما أراد كالأشياء العظام المذكورة وهو الله سبحانه وتعالى﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ شيئاً وما هو فى نفسه مخلوق لله تعالى وهو الأصنام ،وما عبد من دون الله من جماد وملك وإنسان ونجم والشمس والقمر فمن سواها به فى العبادة مكابر لعقله ومعاند له وكيف والأصنام وهى أيضا لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ولا تدفع عن نفسها ولا تجلب لها وإنما لم يقل أفمن يخلق كمن لايخلق مع أن القاعدة فى الكلام العربى تشبيه الناقص بالكامل لأن المعنى كيف تنقصون حق الخالق وتسوونه بغير الخالق هذا ماظهر لى . وقال القاضى للتنبيه على أنهم بالإشراك بالله جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيها بها انتهى . ثم ظهر لى أن مراده ما ذكرت وإنما قال كمن لا يخلق ولم يقل كما لا يخلق تغليبا للعقلاء المعبودين كالملائكة وعزير وعيسى على غير العقلاء كالصنم والنجم ،وإن أريد بمن لا يخلق الأصنام فقط أو الأصنام ونحوها مما لا عقل له فإنما عبر بمن لأن من عبد شيئاً فقد نزله منزلة العاقل أو لأنهم سموها آلهة ومن حق الإله أن يكون عالما أو للمشاكلة بينه وبين من يخلق من للعقلاء ويجوز أن يكون من لغير الأصنام ونحوها بل هى للعقلاء مطلقا أو للعقلاء المعبودين

إلزاما لحجة على طريق المبالغة كأنه قيل ليس العالم الخالق كالعالم الذى لا يخلق فكيف يكون كمن لا يعلم ولا يخلق كما يقول فى الرد على من قال فلان كسيبويه إنه ليس كالذى علم من النحو كلمة بل دونه لا يعلم ولو كلمة واحدة،وكقوله رد على من يعبد الأصنام ألهم أرجل يمشون بها أى ليسوا كمن له أرجل فضلا عن أن يكونوا كالله تعالى ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾فتعرفوا فساد ذلك فإن فساده جلى يعرف بأدنى تأمل لا يحتاج إلى تدقيق الفكر .

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ ﴾ يريدوا عدها أوتشرعوا فى عدها فردا فردا أو نوعا نوعا ﴿ لَا تُحْصُوهَا ﴾ لا تستوفوا عددها ولو اجتهدتم كل الاجتهاد فضلا عن أن تقوموا بشكرها عد الله نعما وبينها ثم نبه أن وراء ذلك نعما لا تحصى وتضمن ذلك أنه لا مستحق للعبادة سواه وإن حق عبادته غير مقدور﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ ﴾ إذ سامحكم فى التقصير فى القيام بشكر النعم فإن المكلف ولو ملكاً أو رسولا لا يقوم بحقها والخطاب للناس كلهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ لايقطعها بتفريطكم ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ﴾ من عقائدكم وأعمالكم ومكركم بالرسول .

﴿ وَمَاتُعْلِنُونَ ﴾ تظهرون من ذلك،وذلك تهديد للكفار بأنه قد

علم ما عندهم فهو مجاز لهم أو المعنى هو يعلم ما تسرون وما تعلنون ولا يعلم ذلك ما تعبدون فهو المستحق للعبادة دون ما تعبدون .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أى والأصنام الذين يعبدها المشركون أو تطلبونها وعبر عنها بالذين كالعقلاء لأنها عند داعيها بمنزلة العقلاء قال أبو عمر والدانى قرأ عاصم والذين يدعون بالياء المثناة تحت انتهى. هذا هو الذى صح عن حفص عنه وقال القراضى قرأ حفص يسرون ويعلنون ويدعون بالتحتية ولعل هذا رواية شاذة عنه عن عاصم وقرأ أبو بكر تدعون بالفوقية ويعلنون ويسرون بالتحتية وقرىء يدعون بالتحتية والبناء للمفعول ﴿ لَايَخْلُقُونَ شَيْئاً ﴾ هذا مستفاد من قوله كمن لا يخلق وإنما ذكره هنا أيضاً ليرتب عليه قوله ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ولو لم يذكر قوله لايخلقون شيئاً لم يحل الكلام حلاوته حين ذكره والجملة معطوفة على الخبر أو حال من الواو فيه .

﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ خبر بعد خبر لقوله الذين أو لقوله هم أوخبر لمحذوف أى هم أموات﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ نعت لأموات أو خبر آخر على الأوجه الثلاثة والمراد أنهم لم يقبلوا حياة قط ولم يتصفوا بها أو أموات حالا أو مثالا غير أحياء بالذات وعلى هذا يتناول من كان حيا معبودا كالملائكة﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ بكسر الهمزة وفتحها قراءتان

أى لا تعلم الأَصنام أو جميع من عبد من دون الله متى يبعث عابدوهم فكيف يكون لهم وقت تجازيهم معبوداتهم فيه على العبادة أو لا يعلم الأَصنام أو جميع من عبد من دون الله متى يبعثهم الله فكيف يعلمون متى يبعث عابدوهم فكيف يجازونهم على العبادة وذلك أن الأَصنام تبعث ويجعل لها حياة وعقل حتى تتبرأ من عابديها وتخاصمهم أو لايعلم الذين عبدوا الأَصنام متى يبعثون فضلا عن أن تعلم الأَصنام ذلك فكيف تثيبهم على العبادة ، نفى الله جل جلاله أن تكون الأَصنام ونحوها شريكة له بنفى أن تكون خالقة وبإثبات أنها مخلوقة فهى ممكنة الوجود مفتقرة إلى موجد والإله لا يكون إلا واجب الوجود وبإثبات الموت لهم والإله لا يكون إلا حيا بالذات لا يقبل الموت بالأَصل ولا بالحال ولا بالمثال وينفى علم البعث متى هو والإله عالم بالغيب مقدر للثواب والعقاب فى وقت مخصوص بعلمه وتضمنت الآية أنه لابد من البعث وأنه من لوازم التكليف ويجوز أن يكون المعنى أن الذين تدعون من دون الله من الأَصنام لا يصورون شيئا بالنحت وهم منحوتون مصورون قد نحتموهم وصورتموهم كما أشار إليه الشيخ هود فهم دونكم وأعجز منكم فكيف تعبدونهم وهم أموات غير قابلة للحياة أصلا وأنتم أحياء ولو كنتم من نطفة غير حية فأَنتم

أفضل ولا يشعرون متى تبعث الأَحياء كما لا تشعرون وهذا تهكم بحالهم لأَن شعور الجماد محال فكيف يشعر بما لا يشعر حى سوى الحى الدائم ولما ألزم الله سبحانه وتعالى وحدانيته فى الأُلوهية بالحجج المذكورة صرح بها تأَكيدا وإيضاحا فى قوله :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ المستحق للعبادة منكم واحد فى ذاته وفعله وصفته وهو الله ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ جاحدة لهذا المعنى الذى هو كون إلهكم واحدا وقيل منكرة لهذا القرآن ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن اتباع الحق بعد وضوحه إصرارا وركونا إلى الأَسلاف واتباعا للمأَلوف حتى لايتأَتى لهم النظر فى الدلائل بخلاف المؤمن فإنه يتأَمل فيها وهؤلاء لما لم يؤمنوا ترتب على عدم إيمانهم الإنكار والاستكبار بالزيادة .

﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أى حقا ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فيجازيهم والمصدر من خبر إن فاعل لقوله لا جرم لأَنه بمعنى حق حقا وعن سيبويه والزجاج أن لا نافية لما قبلها وجرم مصدر أو فعل بمعنى حق وتقدم كلام فى سورة هود وذلك تهديد ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ مطلقا فضلا عن المستكبرين عن الإيمان ويجوز أن يريد بالمستكبرين المستكبرين عن الإيمان ومن لا يحبه عاقبه فذلك كناية عن العقاب

وتحريم الكبر وهو جعل الحق باطلا للتكبر أو لغرض واحتقار الخلق ولا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة منه كما ورد فى الحديث وعنه -صلى الله عليه وسلم- مامن عبد إلا وفى رأسه حكمة بيد ملك أى زمام كزمام البعير فان تعظم وارتفع ضرب الملك فى رأسه وقال له اتضع وضعك الله وإن تواضع رفعه الملك وقال له ارتفع رفعك الله، وليس منه مجرد كون نحو ثوب الإنسان أو نعله حسنا أو جديدا فإن الله جميل يحب الجميل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ أى إذا قال المؤمنون للمشركين ماذا أنزل ربكم على محمد وما استفهامية مبتدأ وذا اسم موصول خبر أو مبتدأ وما خبر ويجوز كون ماذا اسما واحدا مركبا استفهاميا مفعولا مقدما لأنزل فتكون الجملة فعلية وما تقدم أولى لأنهم أجابوا بالجملة الاسمية وهى أساطير مبتدأ المقدر ولو كان مفعول لأنزل كما مر كان الأنسب أن يقولوا أساطير بالنصب أى أنزل أساطير فيكون الجواب جملة فعلية وقد يجوز أن يكون ماذا مفعولا لأنزل والجملة مفعول فعليه وقع الجواب لها بالاسمية تأكيدا منهم لعنهم الله وعدولا عن المسئول بالجواب أى ليس من الإنزال فى شىء ﴿ قَالُوا ﴾ أى المشركون ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ خبر لمحذوف كما علمت أى الذى تدعون نزوله

أساطير الأَولين لَيس منزلا من الله كما قلتم أو الذى أنزله ربنا أساطير الأَولين على طريق التهكم لا على الإذعان لكونه من الله كقول فرعون إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون فإنه قاله تهكما لا إذعانا لرسالة موسى عليه السلام أو الذى أنزله ربنا أساطير الأَولين لا تحقيق فيه أجازوا على الله العبث حتى أنزل مالا تحقيق فيه تعالى عن ذلك وجزموا أنه أنزل ذلك ولا تحقيق فيه، أو أرادوا أنه إن كان من الله فهو أساطير الأَولين، والأَساطير الأَحاديث الباطلة ويجوز أن يكون القائل ماذا أنزل ربكم بعض المشركين لبعض تهكما، سيجيب البعض الآخر بذلك وقيل نزل ذلك فى النضر بن الحارث وقيل فى المقتسمين الذين تفرقوا فى الطرق ليضلوا من يمر عليهم. وعن الكلبى أنهم تفرقوا على عقاب مكة أربعة نفر على كل طريق أمرهم الوليد بن المغيرة أن يقولوا لمن سأَلهم عن محمد بعضهم إنه مجنون وبعضهم إنه ساحر وبعض إنه يقول أساطير الأَولين وهكذا فإن رضوا بذلك وإلا فأنا عند البيت إن سأَلونى أصدقكم كلكم فشق ذلك على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبعث أربعة من أصحابه مع كل أربعة وأمرهم أن يقولوا إذا كذبوا عنه لمن يأتى للموسم بل هو رسول الله حقا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمر بصلة ذى القربى وبأن يقرى الضيف ويعبد الله

فى كلام حسن جميل فيقول الناس والله ما تقولون مما يقول هؤلاء والله لا يرجع حتى نلقاه .

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُم كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ذنوبهم سمى الذنب وزرا لثقله واللام لام الصيرورة متعلقة بقالوا ، لاتعليل حقيق لأنهم يقصدون بقولهم أساطير الأولين حمل الأوزار ويجوز أن يكون اللام لام الأمر حتما عليهم وإذلالا وإيجابا أن يحملوها يوم القيامة إذ عملوها فى الدنيا،ومعنى حمل الذنوب استقرار عقابها عليهم لأن ما أصابهم فى الدنيا من البلايا وما عملوا من البر كإقراء الضيف لم يكفرا منها شىء وإنما يكفر ذلك المؤمن ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ أى وشيئا ثابتا من أوزار الذين يضلونهم ومن للتبعيض على حذف مضاف وذلك أنهم يحملون بعض أوزار ضلال الذين يضلونهم وهو حصة التسبب فإنهم إذا تسببوا فى ضلال الاتباع فضلوا فقد حصلت أوزار ضلال الاتباع فبعضهما للمضلين على الأصل وهو أوزار التسبب وبعضها للضالين على ضلالهم فمن ذلك صح التبعيض ، فلا يرد علينا قول الواحدى أنها لو كانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الأوزار مع أنه ورد فى الحديث أن من سن سنة حسنة أو دعا إليها فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير نقص من أجورهم ومن سن

سنة قبيحة أو دعا إليها فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير نقص من أوزارهم. وقال إنها للجنس قال أى من جنس أوزار الأتباع والتحقيق أن هذا التقدير لا يخرجها عن التبعيض لجواز قولك ليحملوا بعض جنس أوزار الذين يضلونهم ويجوز كونها للابتداء ليحملوا من جنس تلك الأوزار أوزارا ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حال من الهاء أى ومن أوزار الاتباع الذين يضلونهم أى يضلهم هؤلاء الرؤساء حال كونهم لا يعلمون أن هؤلاء الرؤساء ضلال ولا أن كلامهم لهم فى ذلك إضلال أو لا يعلمون أنهم مضلون لهم وفائدة هذه الحال الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم لأن عليهم البحث على الحق ويجوز أن يكون حالا من الواو ورجحه بعض بأنه المحدث عنه والمعنى على الوجه الأول أليق ﴿ أَلَا ﴾ حرف استفتاح وتنبيه وتوكيد لمضمون الجملة ﴿ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ بئس ما يزرون ما يذنبون والمخصوص بالذم محذوف أى ذنوبهم أو بئس ما يحملونه من الأثقال وهو أفعالهم وأقوالهم وذلك وعيد وتهديد.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أثبتوا حيلا وخدعا ليهلكوا بها الرسل ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أتاه أمره من جهة القواعد وهن الأساس التى اعتمد عليها البنيان وقيل ما يعمد عليه البناء من جانب ومن للابتداء نقض الله سبحانه وتعالى قواعد بنيانهم أو زلزلها ﴿ فَخَرَّ ﴾

سقط﴿ عَلَيهِمُ السَّقْفُ ﴾ وقرىء السقف بضم السين والقاف جمع سقف﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ متعلق بخر ومن للابتداء أو محذوف حال من السقف والإتيان به تأكيد لأن قوله خر عليهم مغن عنه وقد يقال إن السقف قد يخر على من بجانبه ولو لم يكن تحته على الحقيقة فحينئذ لا تأكيد بل يفيد أنهم كانوا تحت السقف لا بجانبه فصار خرور السقف عليهم سببا لهلاكهم ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ من جهة لا يخطر ببالهم أنه يأتيهم منها بل عدوها مأمناً وحصنا عن العذاب والذى يظهر لى أن ذلك مجاز مركب تمثيل لإهلاكهم بالخدع التى وضعوها لإهلاك الرسل والمؤمنين وقد أمنوا الهلاك من جهتها وأبطلها من أصلها كمن نقض قواعد حصن على قوم بنوه للنجاة فوقع عليهم فهلكوا بما أعدوه للنجاة فتشمل الآية إبطال مكر الأمم لرسلهم أو المؤمنين ورجع مكرهم وبالا عليهم كما قيل من حفر بئرا لأخيه أوقعه الله فيها وكما قيل من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً. وقال ابن عباس المراد بالذين مكروا من قبلهم نمرود وقومه وبالبنيان الصرح الذى بنى وتقدم كلام فيه أوقع الله عليهم سقفه وقال مجاهد المراد ثمود﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ يذلهم ويهينهم بالعذاب لأن الخزى العذاب مع الهوان ولقوله تعالى ربنا إنك من

تدخل النار فقد أخزيته فتكون الآية صريحة بأن لهم العذاب فى الدنيا والآخرة ،وقيل المراد الإذلال والإهانة العامان لجميع المكاره ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ أضاف الشركاء إلى نفسه حكاية كأنه قيل أين الذين تزعمون أنهم شركائى أو استهزاء وعلى كل حال ففى ذلك زيادة توبيخ إذ ذكر لهم ما يودون لو لم يقولوه ويودون لو ستر وهو موجب الخزى. قال أبو عمرو الدانى قرأ البزى بخلاف عنه: أين شركاى بغير الهمزة والباقون بالهمزة ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ ﴾هذه النون نون الرفع كسرت للياء المحذوفة نون الوقاية أو هى نون الوقاية وحذفت نون الرفع. والأصل تشاقوننى أى تعادوننى فإن مشاقة المؤمنين كمشاقة الله أو تجعلون أنفسكم فى شق وأمرى فى شق آخر أى جانب ،وقرأ غير نافع أى ففتح النون وتشاقون المؤمنين أو تشاقوننى فحذف المفعول بالكلية﴿ فِيهِمْ ﴾ أى فى شأنهم والمراد ما لشركائكم لم يحضروا فيدفعوا عنكم الخزى ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم الأنبياء والعلماء الذين يدعونهم إلى التوحيد فيشاقونهم ويتكبرون عليهم هذا هو المتبادر وقيل الملائكة وقال يحيى بن سلام هم المؤمنون وهو محتمل للوجه الأول ولأن يريد المؤمنين الذين ليسوا بأنبياء فقط، وقال عياض الصواب أن يعم الملائكة والأنبياء وغيرهم ﴿ إِنَّ الْخِزْىَ الْيَوْمَ ﴾متعلق بالخزى

أو بمعرفة محذوفة نعت أى أن الخزى الواقع اليوم أى فى هذا اليوم الحاضر وهو يوم القيامة﴿ وَالسُّوءَ ﴾ أى كل ما يسوء من ذلة وعذاب ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾أى ثابت عليهم لا على غيرهم أو دائم عليهم أو مقصور عليهم وهم المشركون والمنافقون وإنما يقول الذين أُوتوا العلم ذلك لهم إظهار الشماتة بهم وزيادة الإهانة، وقد كانوا فى الدنيا يهينون المؤمنين ويعذبونهم ويستهزئون بهم فإذا جاء يوم القيامة أكرم الله المؤمنين وأهان هؤلاء ويزيدهم قول المؤمنين ذلك إهانة ويكون أعظم فى الهوان والخزى. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن العار والتخزية لتبلغ من العبد بين يد الله تعالى ما أن يتمنى أن ينطلق به إلى النار وينجو من ذلك المقام. وحكى الله سبحانه ما يقول لهم الذين أُوتوا العلم ليرتدع من سمعه عن الكفر ويدوم على الإيمان من نجاه الله من الكفر﴿ الَّذِينَ ﴾ نعت للكافرين أو بدل أو بيان أو مفعول لمحذوف على الذم أو خبر لمحذوف على الذم أو مبتدأ خبره ألقوا ،قرن بالفاء للعموم والإبهام فى المبتدأ المذكور كاسم الشرط﴿ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ﴾ أى تقصرد أرواحهم عند الموت وهم ملك الموت وأعوانه. وقال الحسن تحشرهم إلى النار وهو من التوفى بمعنى استكمال عدد الشىء على الوفاء فإنه لا يبقى أحد منهم بلا موت ولا يبقى غير داخل للنار

وقرأ حمزة هنا وفى موضع الآتى بالباء التحتية وقرأ بعضهم بإسكان التاء الأُولى وإدغامها فى الثانية عند الوصل اعتمادا على نون الذين وأما فى الوقف فيجلب همزة الوصل ﴿ ظَالِمِى ﴾حال من الهاء﴿ أنفُسِهِمْ ﴾ بالكفر والمعاصى الموجبة للعذاب المخلد ﴿ فَأَلْقَوُاْ ﴾ فعل ماض وفاعل لا فعل أمر بدليل المعنى وبدليل إثبات الواو مكسورة للساكن المدغم بعدها وفتح القاف وهو فتح مشعر بحذف الأَلف بعده وإن واو الجماعة دخلت على اللقاء فحذفت الأَلف لئلا يلتقى ساكنان، وإنما حركت الواو بعد ذلك ولو كان أمرا من اللقاء لقيل ألقوا السلم بضم القاف وحذف الواو من التلفظ للساكن بعده ﴿ السَّلَمَ ﴾هو عدم العدوان ومعنى إلقائهم السلم انقيادهم لأَمر الله من التوحيد وغيره حين لاينفعهم وهو حين معاينة ملك الموت أو حين تمام الموت وذكر ذلك الحسن وقيل المعنى استسلموا للأَمر الذى نزل بهم وهو الموت والعذاب ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾ عداوة وشرك ومعاص،والجملة مفعول لقول محذوف وذلك القول حال،أى قائلين ما كنا نعمل من سوء أو يجوز أن تكون محكية لإلقاء السلم فإن فيه مضى القول ولا سيما على تفسير الحسن السابق وإنما يقولون ذلك لشدة الخوف،وقيل يقولون ذلك يوم القيامة فيقدر القول المحذوف حال مقدرة لا مقارنة أو يقدر جملة قول

مستأنفة أى يقولون ما كنا نعمل من سوء وهو المشهور، ومروى عن الحسن قال فى القيامة مواطن، موطن يعترفون فيه بأعمالهم الخبيثة كما قال وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين وموضع يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم وجلودهم وقيل هو الأخير ولا كلام بعده إلى أن يدخلوا النار وموضع يجحدون كما قال فألقوا والله ربنا ما كنا مشركين فقال انظر كيف كذبوا على أنفسهم وكما قال عنهم ما كنا نعمل من سوء فتقول لهم الملائكة﴿ بَلَىٰ ﴾ أى عملتم السوء، فإن بلى لا يجاب المنفى أو يقول لهم ذلك الذين أوتوا العلم أو الله يخلق كلام فى الهواء أو فى بعض الأجرام يسمعونه أو يأمر الملائكة﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم أو فلا فائدة فى إنكاركم وذلك على العموم، وقال عكرمة عنى بذلك سوء من قتل من الكفار يوم بدر وأن الكلام فيهم وإن ذلك يوم القيامة. وقد قال بعض العلماء إن الكفار لا يكذبون يوم القيامة فيحتاج إلى تأويل آيات وأحاديث دالة على أنهم يكذبون وإخراجها عن ظاهرها بالمتبادر مثل أن يقول هنا إن المعنى ما كنا نعمل من سوء فى اعتقادنا ولو كان عملنا سوء فى نفس الأمر ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾كلها على التوزيع يدخل كل صنف منهم الباب المعد له منها المستوجب عمله الدخول

منه وقيل أبواب جهنم أصناف عذابها ﴿ خَالِدِينَ ﴾ مقدرين الخلود ﴿ فِيهَا ﴾ أى فى جهنم فالضمير عائد على المضاف إليه وعائد إلى الأبواب بمعنى الطبقات أو أصناف العذاب ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ موضع الثواء وهو الإقامة ﴿ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الإيمان والمخصوص بالذم محذوف أى جهنم وها هنا تم جواب الملائكة .

﴿ وَقِيلَ ﴾ أى قالوا الوافدون إلى مكة أيام الموسم وكانت أحياء العرب يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيسألون المشركين فيقولون إنه ساحر أو مجنون أو نحو ذلك وإن ترجعوا بدون أن تلقوه خير لكم فيقولون إنا شر وفد إن رجعنا بدون أن ندخل مكة ونلقاه ، فيدخلون مكة فيرون أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقولون ما حكى الله عنهم بقوله وقيل ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ ما حرم الله من شرك ومعاص وهم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ على محمد فإذا مفعول لأنزل بدليل النصب فى الجواب ﴿ قَالُوا خَيْرًا ﴾ أى قالوا أنزل خيرا وهو القرآن والوحى عليه وإنه رسول صادق أمين أتوا بالجواب مطابقا للسؤال مكشوفا بيننا من غير عدول عنه ولا بطء وتكلف لشدة اطمئنانهم وهنا تم الكلام واستأنف الله سبحانه بقوله ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ بالإيمان والأعمال

الصالحات ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾بدل أو بيان من هذه إن فسرت بالليل والنهار وما حويا أو بالأرض والسماء وما بينهما ،لأنه إذ ذاك علم ونعت أو بدل أو بيان إن أبقيت على الوصفية أى هذه الدار القريبة الزوال وفى متعلقة بأحسنوا وللذين خبر وقوله﴿ حَسَنَةٌ ﴾ مبتدأ وهى الثواب فى الآخرة تضاعف لهم الحسنة إلى عشر وإلى سبع مائة وأكثر ،والمراد بالحسنة جنس ما يستحسن من الثواب أو سمى مجموعها حسنة. وقال الضحاك الحسنة النصر والفتح وقال مجاهد الرزق الحسن فى الدنيا وقيل جميع ما ينعم به عليهم فى الدنيا وعلى هذه الأقوال الثلاثة تتعلق فى بأحسنوا أو بما يتعلق به للذين لو بمحذوف حال من ضمير الحسنة المستتر فى قوله للذين ،إما على أن المراد ثواب الآخرة فيكون قوله ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾زيادة فى الترغيب وتحريضاً على دار تكون لهم فيها الحسنة والثواب فيها أحسن من غيره على الإطلاق ،وإما على الأقوال الثلاثة فيكون تنبيها على أن لهم داراً عظيمة القدر وهى الجنة بعد ما كان لهم من الحسنة فى الدنيا وكأنه قيل إن ثوابهم فى دار الساعة الآخرة خير لهم مما جرى لهم من الثواب فى الدنيا وعن أنس بن مالك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إن الله لا يظلم من حسنة يثيب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة أى لا ينقص من

ثوابها شيئاً وفى رواية لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها بالرزق فى الدنيا إلى آخره ،وتضمنت الآية وعدًا للذين يقولون أنزل خيراً فى جواب من قال ماذا أنزل ربكم فإن قولهم ذلك إحسان عظيم قد اتبعوه بالعمل الصالح ،ويجوز أن يكون خبرا مفعولا لقالوا لالمحذوف أى ذكروا خيرا فيكون قوله للذين أحسنوا إلى آخره بياناً لذلك الخير أو بدلا أو مفعولا لقول محذوف مبدل من القول المذكور أى قالوا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لدلالة قوله ولدار الآخرة خبر عليه ويجوز أن يكون المخصوص هو قوله﴿ جَنَّاتُ ﴾ بساتين﴿ عَدْنٍ ﴾ أى إقامة وعلى أن المخصوص محذوف يكون هذا خبر المحذوف أى هى جنات عدن لا بطريق أنه المخصوص وقال الحسن دار المتقين هى الدنيا ،لأنهم يتزودون منها للآخرة ولا يصح عليه أن يكون المخصوص جنات عدن والصحيح أن دار المتقين الدار الآخرة وهى جنات عدن وهو قول الجمهور وتم كلامهم على الوجه المذكور آخرا من أن خيرا مفعول لقالوا بأوجهه عند قوله حسنة وعند قوله يشاءون أو قوله تعملون أو ذلك كله من كلام الله كما قلنا على الوجه المذكور أولا أن الكلام تم فى قوله خيرا﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ مستأنف أو جنات مبتدأ

وهذه الجملة خبره ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ﴾ تحت قصورها ومساكنها ودورها ﴿ الأَنْهَارُ ﴾ماء ولبناً وخمرا وعسلا﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من أنواع ما يشتهى ويستلذ حتى زعم بعض الناس أن لهم فيها أن يتمتعوا بأدبار الولدان وهو باطل،وقد سئل عن ذلك بعض أئمة الشافعية قديما فأجابوا بالمنع لأن ذلك المحل لم يبح فى ملة من الملل ولا فى شريعة من الشرائع قال فإن تعصب متعصب من أهل الطباع المنحرفة وقال إنما حرم ذلك المحل فى الدنيا للقذر والنجاسة قياساً على دم الحيض والجنة لا قذر فيها ولا نجاسة قلنا له ممنوع ذلك منك لأن الله سبحانه سماه فاحشة وقد نهى عن الفحشاء ولأن الله تعالى لم يبح دبرا قط أي بخلاف الخمر مثلا فإن الله سبحانه ولو نهى عنها لكنه قد أخبرنا بأنها فى الجنة وأيضا قد أباحها لبعض الأمم .قال السيوطى إنما سكت أصحاب الإمام الشافعى عن هذه المسألة لأنها من العلم الذى لا بضر جهله ولا ينفع علمه بل قال الشعرانى لا أدبار لأهل الجنة لأنه لا غائط فيها بل ترشح أبدانهم،ولولا أن فى الجنة جماعا وولادة لما جعل لهم ذكر وفى رواية عنه – صلى الله عليه وسلم – جامع ما شئت ولا ولد وإذا قام عنها عادت بكرا،وهى رواية إذا اشتهى الولد فى الجنة كان حمله ووضعه وسنه فى ساعة واحدة كما يشتهى .قال الترمذى اختلف

أهل العلم فقال طاووس ومجاهد والنخعى فيها جماع لا ولادة،وأول
إسحاق بن ابراهيم هذا الحديث بأنه قال إذا اشتهى ولكنه لا يشتهى
ولذا روى فى حديث لقيط أن أهل الجنة لا يكون لهم ولد قلت ومثل
هذا التأويل يقال فى جماع الدبر بأن لا يلقى الله اشتهاء فى قلوبهم
وقال جماعة فيها الولادة إذا اشتهيت ورجحه الأستاذ أبو سهل الصعلوكى
انتهى كلام الترمذى بالزيادة. قال السيوطى عن أبى سعيد قلنا يارسول
الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟فقال
إذا اشتهى الولد فى الجنة كان حمله،إلى آخر الحديث المتقدم قال
لا منافاة بين أحاديث نفى الولد وأحاديث إثباته لأن المنفى ترتيب
الولادة على الجماع والمثبت حصول الولد عند اشتهائه كما يحصل
الزرع عند اشتهائه ولا زرع فى الجنة، انتهى بتصرف قال القاضى
إنما قدم فيها تنبيها على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده فى الجنة انتهى
قلت ليس الأمر كذلك لأن تقديمه إنما يفيد الحصر لو كان هو الخبر
وليس بخبر، بل الخبر قوله لهم وأما قوله فيها فمتعلق بالاستقرار
المحذوف أو بلهم لنيابته عنه ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الجزاء
﴿ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ وإنما قال كذلك مع أن ذلك هو نفس الجزاء
لا مثل الجزاء لأن المراد أنه يجزيهم على الطريقة التى ذكرتها لكم لأنه

ولو ذكر لنا ما ذكر نفهمه على حقيقته حتى نشاهده فى الجنة فإن كل ما فيها ليس من جنس ما فى الدنيا تحقيقا وإنما يمثل لنا تمثيلا فذكر الجنات والحرير والذهب ونحو ذلك أو الكلام كناية كقولك مثلك لا يبخل وهكذا فى مثل الآية وقد ذكرت فى موضع من هذا تفسير أكثر من ذلك،قيل وهذا يدل على أن قوله للذين أحسنوا إلى آخره وعد لا حكاية .

﴿الَّذِينَ﴾ نعت للمتقين أو بدل أو بيان أو مفعول لمحذوف أو خبر لمحذوف ﴿ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ تعصر أرواحهم وتجمعهم إلى الجنة كما مر﴿ طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى لأن هذا مقابل لقوله ظالمى أنفسهم فكأنه قيل يموتون وهم مسلمون مجتنبون للكفر مؤدون للفرائض وقيل طيبهم كناية عن ذلك كله وعن اجتناب المكروهات وقيل طيبهم فرحهم وسرورهم واطمئنانهم عند الموت بالبشارة بالجنة وتسهيل سكرات الموت أو فرحهم بلقاء الله شوقا إليه﴿ يَقُولُونَ ﴾ أى يقول الملائكة عند الموت حال من الملائكة والرابط الواو أوحال ثانية من الهاء أو حال من المستتر فى طيبين وعليهما فالرابط الضمير المحذوف فإن التقدير على كل حال يقولون لهم ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾هو أو منهم أو من الله سبحانه وتعالى والمعنى لا ترون مكروها ذكر محمد بن كعب القرطبى وغيره أن الملك يأتى المؤمن فى الموت فيقول سلام عليك يا ولى الله

الله يقرئك السلام ويبشره بالجنة﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ بأبصاركم فان المؤمن يفتح له باب إلى الجنة عند موته فيرى منزله كما عند قبره أو بأَرواحكم فإن أرواح المؤمنين فى أجواف طير خضر ترعى فى الجنة أو المعنى أبشروا بدخولها أوالمراد تقريب الدخول الآتى يوم القيامة أو التوفى الحشر للجنة كما مر فيكون هذا وما قبله بعد البعث فيكون الدخول حقيقة بالأَجساد أو يقدر القول أى يقولون لهم يوم القيامة ادخلوا الجنة﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى بسبب الأَعمال التى وفقكم الله إليها منا منه وفضلا وليس المراد أن الأَعمال موجبة لدخول الجنة فإنه لا واجب على الله عندنا معشر الأَباضية والمالكية والشافعية والحنفية والحنبلية ولأَن دخولها يكون بمجرد العمل بل بفضل الله كما ورد فى الحديث أنه لا يدخل الجنة أحد بعمله لوانا إلا بفضل الله ورحمته أى لا يكون متأهلا للجنة بعمله بل يدخلها من يدخلها بفضل الله ورحمته فلا منافاة بين الآية والحديث ولو أُدخل الجنة أو النار الناس كلهم لكان عدلا وصوابا كذا قيل والذى أقول إن حكمته اقتضت دخول المطيع الجنة والعاصى النار وزعمت المعتزلة أو بعضهم أن الأَصلح واجب على الله وإن أعمالهم توجب الثواب ويجوز أن يكون معنى الآية ادخلوا الجنة مقتسمين لها بحب أعمالكم ورد فى بعض

الأَخبار أن الله سبحانه يقول ادخلوا الجنة برحمتى واقتسموها بأَعمالكم وإنه يكون للولى درجات ما بين الدرجتين ما بين السماء والأَرض وإن العبد ليرفع بصره فيلمع برق يكاد يخطف البصر فيقول ما هذا فيقال نور أخيك فيقول أخى فلان،فيقال نعم فيقول كنا نعمل فى الدنيا جميعا وقد فضل علىَّ هكذا فيقال له كان أحسن منك عملا ثم يجعل فى قلبه الرضى حتى يرضى والمشهور أنه بعد دخول الجنة لا يخطر فى القلب كراهة تفضيل أحد عليه .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون لك﴿ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى بالتحتية﴿ ٱلْمَلَائِكَةُ ﴾ ملك الموت وأعوانه لقبض الأَرواح ولا بأس عندى بنسبة قبض الروح للملائكة بمعنى تسببهم فى خروجها بالعصر أو عروجهم بها إلى السماء بعد خروجها خلافا لمن شدد فى ذلك وألزم أن لا ينسب إلا إلى الله﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ وهو عذاب الاستئصال أو يوم القيامة ويجوز أن يراد بإتيان الملائكة إتيانهم العذاب الاستئصال وبإتيان أمر ربك يوم القيامة وانتظارهم ذلك كناية عن أنهم مستوجبون لعذاب الاستئصال أو لا محيد عن الموت أو موافاة القيامة لهم﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الكفر﴿ فَعَلَ

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾من الأمم فأهلكهم الله ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ بالإهلاك ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بفعل ما يؤدى إلى الهلاك .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ أى جزاء سيئات ما عملوا وحذف المضاف أو معنى السيئات الجزاء تسمية للجزاء باسم سببه أو باسم ملزومه وإنما ذكر إصابة الجزاء مع أن قوله وما ظلمهم الله مغن عنه من حيث أن المعنى ما ظلمهم بالإهلاك كما علمت ليبنى عليه ما بعده وليفيد بالفاء أن موجب الإهلاك ظلمهم أنفسهم ويجوز أن تكون الجملة معترضة ومحلها بعد قوله يستهزئون والأصل كذلك فعلى الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا يستهزئون وما ظلمهم الله أى بإصابة سيئات ما عملوا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ويجوز أن يكون المعنى ما ظلمهم بالهلاك ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم سيئات ما عملوا أى عوقبوا فى قبورهم ،أو ماظلمهم الله بالجبر على الأفعال المؤدية للهلاك لأنه لم يجبرهم بل اختاروها ﴿ وَحَاقَ ﴾أى نزل أو أحاط ولا يستعملوا فى الخير ﴿بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى جزاء ما استهزأوا به من الوحى والرسل أى الجزاء اللازم على استهزائهم بذلك ويجوز كون مامصدرية وعود الهاء من به

إلى أمر ربك على أن معنى أمر ربك عذاب الاستئصال أي وحاق بهم جزاء استهزائهم بأمره .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ اللهُ ﴾ أن لا نعبد سواه ولا نحرم غير ما حرمه ﴿ مَا عَبَدنَا مِن دُونِهِ مِن شَيءٍ ﴾ من صلة فى المفعول ومن دونه حال منه ﴿ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ كالسائبة والوصيلة والبحيرة والحام فإن كان الإشراك والتحريم محرمين فإن الله قد شاء أن نفعلهما وجبرنا عليهما فلا لوم علينا ، أوقالوا ذلك استهزاء ببعث الرسل والتكلف وإنكارا لهما بأنه لا فائدة فيهما لأن ما شاء أن يكون لابد من كونه وما شاء أن لا يكون لابد أن لا يكون أو إن كان الإشراك والتحريم محرمين فيجيز لجبرنا الله على خلافهما أو هدانا إلى غيرهما ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾أشركوا وحرموا الحلال أو قالوا لو شاء الله ما فعلنا ذلك والجواب أنه لا جبر وإن الله أن يفعل ما يشاء وكل ما فعل حكمة وعدل وأنه مضت سننه ببعث الرسل إلى الأمم وعليهم التبليغ لا الهداية وإن ما شاء الله يقع بأسباب قدرها فاهتداء المهتدين إنما هو بتوسط الرسل ويكونون أيضاً سبباً لزيادة الضلال لمن لم يؤمن بهم كما قال ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَا الْبَلَاغُ ﴾ التبليغ ﴿ الْمُبِينُ ﴾ الواضح الموضح للحق .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾يدعوهم إلى الإيمان كما بعثناك فى هؤلاء﴿ أنِ اَعْبُدُوا اللهَ ﴾ أن تفسيرية فإن فى البعث معنى القول دون حروفه وقيل مصدرية بتقدير الياء﴿ وَاَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتركوا عبادة الطاغوت وهو ما عبد من دون الله وقيل الطاغوت الشيطان وهو الداعى لعبادة غير الله ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ﴾ وفق ﴿ اللهُ ﴾ إلى الإيمان بإرشادهم ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ ﴾وجبت ﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ لعدم التوفيق وذلك دليل على أن الهادى والمضل هو الله وأشار إلى ذلك بقوله إن تحرص على هداهم إلى آخره وعلى فساد قولهم أنه لو كان فعلهم قبيحا لما شاء الله صدوره منهم ﴿فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ يا كفار مكة أو معشر قريش﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لرسلهم قبلكم كعاد وثمود لعلكم تتعظون بما ترون من سراف منازلهم بالهلاك .

﴿ إن تَحْرِصْ ﴾ يامحمد وقرىء بفتح الراء وهو لغته ﴿ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ وقد أضلهم الجواب محذوف تقديره لم تستطعه ونابت عنه جملة التعليل وهى قوله ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾من نائب عن فاعل يهدى والضمير المستتر فى يضل عائد إلى الله وجملة لا يهدى من يضل خبر إن والمعنى لا يهدى أحد من أضله الله وقرأ الكوفيون فإن الله لا يهدى من يضل بفتح الياء وكسر الدال أى لا يهدى الله من أراد الله

إضلاله أو يهدى على هذه القراءة لازم بمعنى يهتدى، وتعضدها قراءة ابن مسعود لا يهدى من يضل بفتح الياء والهاء وكسر الدال مشددة أى لا يهتدى أبدلت التاء دالا وأُدغمت بعد نقل فتحتها للهاء والقراءة الأُولى أبلغ ،ويعضدها قراءة أُبى فإن الله لا هادى من يضل وقرىء يضل بفتح الياء وإنما قدم اسم الله للتأكيد فهو أبلغ من قولك لا يهدى من يضل الله ولا يهدى الله من أضل﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ يدفعون العذاب عنهم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾أى غاية أيمانهم فالنصب على المفعولية المطلقة ﴿ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ جواب للقسم وغاية اجتهادهم فى اليمين أن يحلفوا بالله سبحانه وتعالى ،تقاضى مسلم دينا له على مشرك وكان من كلامه أنه حلف كقوله والذى أرجوه بعد الموت فأقسم المشرك أن لا بعث ونزلت الآية فى ذلك وجملة أقسموا مستأنفة أو معطوفة على قوله وقال الذين أشركوا أى جمعوا بين الإشراك وإنكار البعث مجتهدين فى إقسامهم على إنكاره ﴿ بَلَى ﴾أى يبعثهم فإن بلى إثبات لما نفى وهذا رد عليهم ورد أيضا عليهم بقوله﴿ وَعْدًا ﴾ مصدر لمحذوف أى وعد ذلك البعث وعد عهد وهو مؤكد لنفسه أعنى لمعناه الذى يقصده قوله بلى النائب عن قوله يبعثهم فإن قوله يبعثهم هو

نفس الوعد فهو كقولك له على ألف اعترافا ورد عليهم أيضا بقوله ﴿ عَلَيْهِ ﴾وهو نعت لوعد أى وعدا ثابتا عليه كتبه على نفسه فهو واقع الموعود ،ولابد أنه لايخلف الوعد ولأن البعث تقتضى الحكمة فعدمه عبث ،تعالى عنه ورد عليهم أيضا بقوله ﴿ حَقًّا ﴾ نعت لوعد أوحال منه لوصفه بعليه أو حال من ضمير الاستقرار فى عليه وإن علق عليه بحقا كان حقا نعتا ،وقيل حقا مفعول مطلق لمحذوف أى حق البعث حقا أى ثبت أو حقه حقا أى أثبته إثباتا وهو مؤكد لغير معناه فإن معنى قوله يبعثهم ليس نفس قوله حق البعث أو حقه حقا فهو كقولك أنت ابنى حقا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ذلك الأكثر هم المكذبون بالبعث أو منكروه من ناس مكة ﴿ لَايَعْلَمُونَ ﴾ أنه قادر على البعث لقصور نظرهم على ما ألفوه من أن ما ذهب من الأشياء وفنى لا يرجع وفى أنفسهم علامة على قدرته فإنه أنشأهم النشأة الأولى والنشأة الثانية أهون منها باعتبار العقل والعادة أو لا يعلمون أنه يبعثهم لأنهم لا يدرون أن البعث حكمة لا يصلح إلغاؤها .

﴿ لِيُبَيِّنَ ﴾ الله متعلق بيبعث الذى ناب عنه بلى وقيل ببلى لنيابتها عنه ولو كانت حرفا وقال به أبو على وأبو الفتح ويجوز تعليقه بمحذوف أى يبعثهم ليبين﴿ لَهُمُ ﴾ أى لمن يموت وهو عام للمؤمنين

والكافرين ويجوز تعليقه ببعث فى قوله ولقد بعثنا أى ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ليبين لهم أى لأمته ﴿ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو الحق كالتوحيد والبعث وليس الاختلاف فيا بينهم بل مع المؤمنين فكأنه قيل يختلفون فيه مع المؤمنين والمراد ليبين لهم بالإنزال ماذا أنزل اختلفوا فيه معهم بأن يكفروا به ويؤمن به من قدر الله الرحمن الرحيم إيمانه أو ليبين لهم ما اختلفوا فيه مع المؤمنين الماضين قبلهم أى ما خالفوهم فيه أو ليبين لهم ما يختلفون فيه مع المؤمنين من سائر الأمور الدنيوية والدينية التى قالوها فهما من كلام كتابهم بلا نص فيه أو من كلام رسولهم وأنكره عليهم المشركون ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ وقولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ لأنهم يقولونه على معنى أنهم مجبرون أو على معنى أن تلك العبادة حسنة وإلا لصرفنا الله عنها وفى قولهم لا بعث وفى غير ذلك من زعماتهم وذلك الذى اختلفوا فيه هو الداعى إلى بعثه الرسل كما قال وإلى بعث الموتى لبيان الحق والباطل وللجزاء ثم بين الله جل جلاله أن البعث وكلما أراد أمر هين بقوله :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ ﴾إذا أردنا إيجاده وقول مبتدأ وخبره المصدر من قوله ﴿ أَن نَّقُولَ ﴾ وجواب إذا محذوف مدلول عليه بهما

وإن أخرجت عن الشرطية تعلقت بقولنا ﴿ لَهُ كُن ﴾ من الكون التام بمعنى الحدوث والوجود﴿ فَيَكُونُ ﴾ ألفا للاستئناف وفيها معنى السببية كأنه قيل فهو يكون أى يحدث ويتحصل فى الحال بسبب قولنا وذلك كناية عن أنه لا يمتنع عليه ما أراد وعن سرعة وجوده كما يمتثل المأمور المطيع أمرا أمره بسرعة وليس ثم قوله،وذلك أن الله سبحانه قادر بذاته فلا يتوقف على شىء يوجد منه شيئا ولا على إعانة والإلزام التسلسل لأن ذلك الذى يوجد منه شيئا أو بعينه تعالى عن ذلك مخلوق له أيضا فيلزم أن يكون أيضا متوقفا على مثل ذلك وهكذا فكيف يعجز عن البعث وقيل يخلق لفظ كن فيتحصل ما أراد كونه بدون أن يقال إنه اللافظ تعالى والأول أوضح وفى الحديث القدسى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شتمنى ابن آدم وماينبغى له ذلك وكذبنى وما ينبغى له ذلك أما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق على بأهون من إعادته وقرأ ابن عامر والكسائى بنصب يكون هنا وفى ليس عطفا على تقول وإن قلت كيف يصح ذلك والكون ليس قولا فلا يصح عطفه على ماهو خير عن القول مفسر له،قلت وجه صحته أن قوله لشىء كن أمر من

أموره وكون ذلك الشيء وحصوله أمر من أموره أيضا ولا يصح عندى أن يكون النصب فى جواب الأمر لعدم إمكانه من جهة المعنى ولو أجازه القاضى وسيأتى إن شاء الله كلام فى يس .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ ﴾ أى لأجل الله والمعنى أنهم هاجروا ليتمكنوا من دينهم فيقيموه فالتقدير هاجروا لدين الله ويجوز أن يكون المراد هاجروا لله بذاته أى لحبه ﴿ مِن بَعْدِ مَا ﴾ مصدرية ﴿ ظُلِمُوا ﴾ وهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمؤمنون ظلمهم قريش لدينهم فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم المدينة بعد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولما استقروا بالمدينة جاء إليها الذين بالحبشة والمراد هجرة الحبشة لقوله ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ لننزلنهم ﴿ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ بلدة حسنة وهى المدينة فالنصب على المفعولية الثانوية أو تبوئة حسنة وهى تبوئة المدينة لهم بالنصب على المفعولية المطلقة ولو كانت هجرة المدينة والآية نزلت بمكة قبل الهجرة إليها لنافاه قوله هاجروا ولو كانت هجرة المدينة والآية بعد الهجرة وتبوء المدينة ، لم يصح أن يقول لنبوئنهم وقد تبوأوها ولم يبلغنا أنها نزلت بعد الهجرة إليها وقبل وصولها وتبوأها هذا ما ظهر لى فى قول الجمهور وقتادة أن سبب النزول هجرة الحبشة وقيل المراد الهجرتان فيكون معنى لنبوئنهم حسنة لنجعلن لهم المدينة

منزلا حسناً بأن تكون المدينة ثقيلة على من هاجر إليها وسكنها ثم بعد ذلك حببها الله إليه وحسنها فى قلبه وجاء المهاجرون الحبشة إليها فنزلوها واستحسنوها ،وكذا إن قيل المراد الهجرة إلى المدينة فقط وعليهما تكون الآية مدنية وقال الكلبى المراد بالمهاجرين بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل وهم المستضعفون بقوا بمكة بعد هجرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعذبهم المشركون لدينهم كانوا يجرون بلال رضى الله عنه إلى البطحاء بمكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول أحد أحد وقد كان قبل ذلك معذبا فى الله بذلك ونحوه ثم اشتراه أبو بكر وأعتقه وخلفه بعده واشترى معه ستة نفر ،وقال صهيب إنى كبير إن كنت معكم فلن أنفعكم وإن كنت عليكم فلن أضركم فاشترى نفسه بماله ومر به أبو بكر فقال ربح البيع ياصهيب ،وهاجر أبو بكر وخلفه وكان مع شرائه نفسه يصيبه بعض العذاب منهم ،وأما باقيهم فأعطوهم الشرك بألسنتهم وقد اطمأنت قلوبهم بالإيمان فخلوا عنهم ثم هاجروا كلهم رضى الله عنهم فنزلت الآية وهذا يقتضى أنها مدنية نزلت بعد هجرتهم وقبل تبوأ المدينة وكانوا قبل ذلك كلما خرجوا اتبعوهم فردوهم قال عمرو رضى الله عنه نعم العبيد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وفى

رواية نعم الرجل أى لو لم يكن لله عقاب يخاف لم يعصه ،وقالت جماعة المراد بالحسنة كل ما يستحسن أى لننيلنهم فى الدنيا ما يستحسنونه أو لننزلنهم منزلة يستحسنونها وهو عام ،ويدل له قول عمر رضى الله عنه إذا أعطى رجلا من المهاجرين وقت القسمة خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يتلو الآية وقيل المراد بالحسنة فتح مكة والنصر على قريش وفتح البلاد والنصر على أهل المشرق والمغرب وقيل التوفيق لأمر الدين وقرأ على لنثوينهم بمثلثة قبل الواو من الإثواء أى نسكننهم أى لنثوينهم إثواءة حسنة وذلك كله فى مقابلة هجرتهم فى الله كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ من كانت هجرته لله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها وامرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ مما يعطى الإنسان فى الدنيا من أُمورها وهو الجنة وإما ما يعطاه من أمر الدين فهو أفضل من الجنة ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ الضميران للمشركين وجواب لو محذوف أى لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدنيا والآخرة لوافقوهم ولو كانوا يعلمون أن أجر الآخرة أكبر مما هم فيه من نعيم الدنيا لآمنوا والضمير أن للذين تخلفوا عن الهجرة أى لو علموا أن للمهاجرين أجر الدارين

لهاجروا أو الضميران للمهاجرين أى لو علموا ذلك الأجر المعد لهم فى الآخرة لزادوا جدا واجتهادا أو صبرا على أذى المشركين .

﴿ الَّذِينَ ﴾أى هم الذين أو أعنى الذين﴿ صَبَرُوا ﴾ علىأذى المشركين فلم يفتنهم عن دين الله سبحانه وعلى مفارقة الوطن فى الله والمكاره والمصائب والطاعات وعن الشهوات واللذات والمعاصى﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ ﴾ لا غيره﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ينقطعون إليه ويفوضون الأمر إليه كله فهو كافيهم ورازقهم من حيث لا يحتسبون قيل الصبر مبتدأ السلوك إلى الله تعالى والانقطاع إليه عن الخلق منتهاه والله أعلم قالت قريش الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا بل يكون ملكاً فنزل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾إلى الأمم ﴿ إِلَّارِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ على الألسن الملائكة وهكذا عادته لم يرسل ملكاً للدعوة العامة ،وأما قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا فمعناه رسلا إلى الملائكة والأنبياء وإلى ما أراد وقيل لم يرسل ملكاً على صورة للدعوة العامة ولا الخاصة وإنما بعثهم لدعوة الخاصة إلى الأنبياء على صورة الرجل،ورد بأنه -صلى الله عليه وسلم- رأى جبريل على صورته مرتين وأجيب بأنه رآه عليها فى حال لم يرسل إليه بشىء وفيه نظروا إليه نائب فاعل يوحى والآية دلت على أن الله سبحانه لم يرسل امرأة﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ

الذِّكْرِ ﴾ علماء التوراة والإنجيل ،كان كفار مكة يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم ،وكانوا يسألونهم ويستندون إليهم فلذلك أمره الله أن يسائلوهم فيطمئنوا بقولهم إذا أخبروهم أن الرسل رجال كموسى وعيسى أو أهل الذكر علماء الأخبار بالخاء المعجمة والفاء للاستئناف والجملة بعدها دليل على جواب الشرط فى قوله﴿ إن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا على طريق التبكيت والإلزام كقولك إن كنت عملت لك فأعطني أجرتي أن علق قوله ﴿ بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ بقوله لاتعلمون ويجوز تعليقه بمحذوف جواب لسؤال مقدر كأنه قيل بم أرسلوا فقيل أرسلناهم بالبينات والزبر ،ويجوز أن يتعلق بأرسلنا المذكور والأصل وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا فأخر كقولك: ماضربت إلا زيدا بالسوط أو بمحذوف حال من رجال الوصف بيوحى إليهم أو نعت الرجالا أو حال من هاء إليهم أو يتعلق بيوحى أو بالذكر وبمعنى العلم وجملة فاسألوا أهل الذكر معترضة على هذه الأوجه غير الذى بنيت عليه وغير الأخير والبينات المعجزات الواضحة والحجج الواضحة والزبر الكتب وقيل أهل الذكر أهل القرآن وهذا لا يصح علمه أن يتعلق بالبينات بالذكر ،وإن قلت كيف يأمرهم بسؤال أهل القرآن وهم مكذبون بالقرآن مخاصمون لأهله قلت يصح بطريق

التلويح إلى أن تكذيبهم به باطل لا يلتفت إليه وعناد ومكابرة ففيه شفاؤهم لو طرحوا المكابرة والجحود، فإنهم قد علموا حقا كذا ظهر لى فى توجيه هذا القول ﴿ وَأنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ إليك يا محمد ﴿ الذِّكْرَ ﴾ القرآن سمى ذكرا لأنه تذكير ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من أمر ونهى بأن تذكره لهم فيعلموه أو لتوضح لهم ما أشكل عليهم منه بإجمال أو غيره فالحديث مفسر لمجمل القرآن لا ناسخ له ولا معارض كما توهم والتبيين يطلق على النص على المقصود وعلى الإرشاد إلى ما يدل على المقصود كالقياس ودليل العقل ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى وليتفكروا أى يتأملوا فيه فينتهوا للحقائق .

﴿ أَفَأَمِنَ ﴾ الهمزة استفهامية استفهام تعجيب وإنكار أن يكون إلا من صوابا وهى مما بعد فاء الاستئناف ولكن قدمت لتمام صدريتها ويجوز أن تكون الفاء عاطفة على محذوف دخلت عليه الهمزة أى مكر هؤلاء الكفرة فأمنوا أن يخسف الله بهم الأرض ولما حذف المعطوف عليه جيء بالظاهر فاعلا إلا من ﴿ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ مفعول مطلق لأنه ناب عن المنعوت الذى هو مفعول مطلق والأصل

مكروا المكرات السيئات ويجوز أن يكون مفعول به على تضمين مكروا معنى أخفوا الفعلات السيئات أو معنى عملوا ويصح على هذا الأخير أيضا أن يكون مفعولا مطلقا هذا ما ظهر لى من الأوجه ثم اطلعت على أن الزمخشرى والقاضى ذكر الأول ورأيت غيرهما ذكر الثالث والمراد بمكرهم السيئات اجتماعهم فى دار الندوة على أن يقيدوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو يقتلوه أو يخرجوه أو المراد ذلك وسائر سعيهم بالفساد بتحيل وإخفاء فى رسول الله وفى المؤمنين إضرارا وصدا عن دين الله وهذا هو المتبادر عندى،وقيل المراد اشتغالهم بعبادة غير الله فانه ولو كان أمر ظاهر لكنه عائد عليهم بالعقاب فى الدنيا والآخرة من حيث لا يشعرون فسماه مكرا وزعم بعض أن المراد بالماكرين نمرود ومن كان نحوه وأولى منه أن يقال المراد كل ماكر برسول من الرسل أو بمؤمن من المؤمنين ﴿ أن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ كقارون ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾بالعذاب وقد أُهلكوا ببدر ولم يخطر ببالهم حين كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أنهم سيقتلون فى حربه – صلى الله عليه وسلم – أو يأتيهم فجأة من جانب السماء كقوم صالح أُهلكوا بصيحة من السماء وقوم لوط رفعوا إلى السماء وما دروا ثم قلبوا ورجموا .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾متعلق بيأخذ أى فى وقت تقلبهم أو بمحذوف حال أى ثابتين فى تقلبهم والمعنى يأخذهم متقلبين والمراد تقلبهم فى إشغالهم حضرا أو سفرا ليلا أو نهارا ذهابا أو رجوعا وقال قتادة المراد تقلبهم فى أسفارهم وقال الضحاك تقلبهم بالليل ولعله أراد انقلابهم إلى أهلهم للمبيت أو تقلبهم فى فرشهم وهما وقت أمان ومظنته .

﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾فائتين الله ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ ﴾أى العذاب أو الله ﴿ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾حال من المفعول والمعنى يأخذهم على خوف شديد أو على توقع حضور أمر مخوف بأن يروا أهل قرية قريبة منهم نزل بهم العذاب أو حيا قريبا منهم أو نزل بطرف قريتهم أو موضع منها أو يرون آفة تنزل بهم قليلا قليلا فيظنوا أنها تأتى على آخرهم وتستقصيهم أو يروا العذاب مقبلا وعلى كل حال فذلك نوع مقابل للمنع فى قوله من حيث لا يشعرون فذلك من حيث لا يشعرون وهذا من حيث يشعرون وذلك قول الضحاك والكلبى وغيرهما وقيل إن التخوف التنقيص وهو نقصها ونقص أموالهم شيئا فشيئا حتى يهلكوا عن آخرهم فعلى تخوف حال من الفاعل أوالمفعول . روى أن ذلك لغة هذيل وروى أن عمر رضى الله عنه قال على المنبر ما تقولون فى قوله تعالى: على تخوف

فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص ،قال فهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال نعم .

قال شاعرنا أبو كثير :

تخوف الرجل منها تامكا فردا كما تخوف عود النبعة السفن

التامك السنام والقرد المتراكم والمرتفع والنبعة بضم النون شجرة تتخذ منها القسى وهو جمع قوس والسفن بفتحتين ما ينحت به الشيء والرجل رجل الناقة ،وإليها يعود الضمير فى قوله منها فقال عمر أيها الناس عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فان فى تفسير كتابكم ومعانى كلامكم وقيل ذلك البيت الذى لرمة وقيل لزهير ومن ذلك قول النابغة :

تخوفهم حتى أذل سراتهم بطعن ضرار بعد فتح الفضائح

أى تنقصهم وروى أن عمر أرسل كتابا فى معنى ذلك إلى الأنصار ليخبروه فجاء فتى من العرب فقال يا أمير المؤمنين إن أبى يتخوفنى ما لى فقال عمر الله أكبر أو يأخذ منه وينقصه وفى أخذهم شيئا فشيئا لطف بهم ليرجع الراجع كما يشير إليه بقوله ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ إذ لم يعاجلكم بالعذاب .

﴿ أَوَ لَمْ ﴾ الهمزة لإنكار أن يكونوا لم يروا أوللتقرير بالروية داخلة على ما بعد الواو ،لكن قدمت ويجوز كونها لذلك أو للتعجب

داخلة على محذوف أى اعملوا ولم ﴿ يَرَوا ﴾قرأ حمزة والكسائى بالفوقية مطابقة للخطاب الملتفت إليه فى قوله وإن ربكم لرءوف رحيم عن الغيبة على أن الخطاب للكفار ويجوز أن يكون للناس مطلقا فلا التفات والأول أصح ﴿ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾ بيان لما حال منها أو من العائد لمحذوف وإنما صح بيانا باعتبار نعته لقوله ﴿ يَتَفَيَّؤُا ﴾ يميل وقرأ أبو عمرو بالفوقية ﴿ ظِلَالُهُ ﴾ جمع ظل جمع نظر إلى معنى ما أو شىء أو باعتبار إذ كل جزء من ظل الشىء ظل فلكل شىء ظلال أو باعتبار تكرر الظل للشىء الواحد باختلاف الأوقات أى ألم ينظروا بعيونهم إلى ما خلق الله من الأجسام التى لها ظل يميل فيؤديهم إلى النظر بالقلب فيؤمنوا وإنما قال يتفيأ بوزن يتفعل ليدل على التدرج شيئاً فشيئاً فان الظل هكذا يفىء ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ ال فيه للجنس فهو بمعنى الجمع وفائدته الاختصار فى اللفظ أو روعى فيه لفظ ما أو شىء وهو مفرد فجىء به مفردا كما فى هاء ظلاله وروعى المعنى فجمع الشمال فى قوله ﴿ وَالشَّمَائِلِ ﴾ والمعنى عن إيمان الأشياء التى خلق الله وشمائلها أو الإيمان والشمائل منها أو لا يمين ولا شمال لنحو جبل وشجرة ولكن استعارة من يمين الإنسان وشماله ويجوز أن يكون المراد أنه يتفيأوا إلى جهة أيمانكم وشمائلكم وقيل يمين الفلك وهو جانبه الشرقى

لأَن الكواكب تظهر منه آخذة فى وشماله وهو جانبه الغربى المقابل له فإن الظلال فى أول النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربى من الأَرض وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعة فى الشرقى من الأَرض والظل يكون تارة بالجانب الأَيمن وتارة بالجانب الأَيسر باختلاف أول النهار ووسطه وآخره واختلاف الفصول الأَربعة واختلاف البلدان فالآية محملة على التوزيع ويكون الظل أيضاً خلفاً وإماماً ولم يذكرا تلويحاً لهما بذكر ذلك ، ويجوز أن يكون اليمين والشمائل كناية عن مطلق الجهات التى يمكن تفيؤ الظل عنها لا خصوص الجهتين وعن الحسن ربما كان الظل عن اليمين وربما كان عن الشمال وقال الكلبى وقتادة والضحاك عن اليمين أول النهار وعن الشمال آخره وذكر بعض أن الظل عن يمين المستقبل أول النهار وخلفه وسط النهار ويساره إذا مالت الشمس وقيل المراد أنهُ تارة باليمين وتارة بالشمال وكلتاهما فى المثى لى أن التفيؤ رجوع الظلال بعد انتصاف النهار فإنما يكون بالمثى . ﴿ سُجَّدًا ﴾ حال من ما أومن ظلال ﴿ لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ الواو الحال والجملة بعدها حال ثانية كذلك وإذا جعلناه من ما فلا إشكال لأَنها عمت العاقل وغيره وغلبوا العاقل فساعت لفظة هم وجمع المذكر السالم وإذا جعلناه من ظلال فلأَنه يشبه العاقل فى الالتصاق

بالأَرض كهيئة الساجد ولأَن الدخول هنا هو الذلة والانقياد لما يريد الله والأَصل فى الانقياد والذلة لما يريد الله العقلاء ويجوز أن يكون الحالان من الهاء فى ظلاله لأَن المضاف كجزء من المضاف إليه فيه فالجمع بالواو والنون ولفظة هم لعموم العاقل وغيره مع تغليب العاقل أيضاً ويجوز كون سجداً حال من الظلال وهم داخرون من الهاء وإن قلت كيف عبر عن سجود العاقل وهو بالوجه على الأَرض وسجود غيره الخضوع والانقياد بلفظ واحد،قلت عبر عنهما بلفظ واحد من حيث أن فيهما معاً الانقياد والخضوع وهما المراد فكأَنه قيل منقادين خاضعين لله حتى أن سائر عبادة العاقل داخلة فى سجوده لأَنها خضوع وانقياد بل قدمر أن الذات فى نفسها ولو ذات كافرة ساجدة لله بمعنى منقادة لا تمتنع مما أراد بها فى السجود سجود طيع كسجود الذات والظل وسجود اختيار كسجود المؤمن وقيل إن الأَشياء كلها تسجد لله باختيار بأَن يخلق الله فيها تمييزاً وعن مجاهد : إذا زالت الشمس سجد كل شىء لله ، ورواه الطبرى عن الضحاك وكان الصالحون يستحبون الصلاة حينئذ وفى الحديث أن أربعاً فيه قيل الظهر تعدل اربعاً فى السحر وكل شىء يسبح حينئذ .

﴿ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾سجود خضوع

وانقياد لإرادته . فشمل سجود الوجه وغيره على حد ما مر فصح
إسناده إلى عامة ما فى السماوات والأَرض من عاقل وغيره وقد استعمل
ما فى العاقل وغيره وهى موضوعة لغيره وإنما غلب على العاقل حتى
عبر بما لأَن غير العاقل أكثر وقيل لأَن (ما) وردت للعاقل كما وردت
لغيره فكان استعمالها حيث اجتمعا أولى من استعمال من فإن ورود
من لغير العاقل دون ورود ما للعاقل فلو استعملت تغليباً للعاقل لتوهم
أن المراد العقلاء وإن المراد بالدابة فى قوله ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ العقلاء فقط
وليس كذلك فان المراد المعموم للعاقل وغيره من كل ما يدب فى الأَرض
أو سماء وشمل الطير لأَنه تنزل وتدب والدبيب تحرك الجسم
الحيوانى برجليه أو أرجله منتقلا فمن دابة بيان لما فى السماوات وما
فى الأَرض .﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾عطف على (ما) الأَولى عطف خاص على عام لمزيته
على أن الذين فى السماوات هم الملائكة وخلق يدبون كالإنسان أو الخلق الذى
يقال له الروح ووجه مزيتهم على الخلق الذى يدب فى السماوات ظاهر
ووجه مزيتهم على الخلق المسمى بالروح أنهم يطيرون دون الروح
ولو فضل عليهم الروح فى آية أخرى بتخصيصه فيها بالذكر لمزية
أخرى وقيل الروح جبريل ويجوز أن يكون من دابة بياناً لما فى
الأَرض وما فى السماوات الملائكة فقط مع النيرات كرر ذكرهم لأَنهم

أطوع الخلق ويجوز أن يراد بما فى السموات ملائكتهن وما معهم وبالملائكة ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم وزعم بعض أن الملائكة أرواح بلا أجسام وهو خطأ محض ﴿ وَهُمْ ﴾ أى الملائكة ﴿ لَايَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادة الله .

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم ﴾ الجملة حال لازمة من واو يستكبرون لأنهم خائفون أبداً والجملة تفسير لقوله لا يستكبرون وبيان وتقرير فإن من خاف الله لا يستكبر عن عبادته .

﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ متعلق لمحذوف والمصدر من ذلك المحذوف بدل اشتمال من اسمه تعالى أى يخافون ربهم أن يرسل عذاباً من فوقهم ويجوز أن يقدر المحذوف مصدر أى يخافون ربهم إرساله عذاباً من فوقهم أو متعلق بمحذوف حال من اسمه تعالى أى يخافون ربهم كائنا فوقهم بالقهر وذلك نص فى خوف الملائكة وهم أيضاً راجعون ولم يذكر رجاهم لأن المقام للتهديد والتخويف، ولكن الخوف متضمن له لأن من لم يرج لا يقال إنه خائف بل آيس وكذا الرجاء متضمن للخوف فإن من لم يخف لا يقال إنه راج بل آمن ﴿ وَيَفْعَلُون مَا يؤْمَرُونَ ﴾ أى ما يؤمرون به أو ما يؤمرونه وكل من ذلك شاذ فى السعة على المشهور وهذا نص فى أن الملائكة مكلفون ودخل فى فعل ما أمروا به وترك ما نهوا عنه فإن المنهى عنه مأمور بتركه فإذا اجتنبوه فقد

فعلوا الترك . قال – صلى الله عليه وسلم - إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لاتسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله . قال الراوى أبوذر –رضى الله عنه–وددت أنى كنت شجرة تعضد والأطيط الصوت لثقل الحمل والصعدات الأراضى التى هى واسعة صحار وتجأرون ترفعون أصواتكم بالدعاء وتعضد تقطع .

﴿ وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ يصح أن يكون اثنين مفعولا أولا تتخذوا إلهين مفعولا ثانياً أى لا تتخذوا اثنين إلهين فإن الاثنين لا يكون كل منهما إلهاً ولكن اتخذوا إلها واحداً فإن التعدد ينافى الألوهية لأن الإله هو المختص بالملك والقدرة على طلاق غير المنازع والشركة تثبت المنازعة وعدم الاختصاص ويصح أن يكون اثنين نعتاً لإلهين موكل له فيكون اتخذ متعدياً لواحد هو إلهين وإنما ذكر الاثنين مع أن إلهين دال عليه ليدل على أن النهى محطه الاثنينية بعنوان لفظ اثنين وعلى أن تعد ديناً فى الألوهية كما علمت فقوله لا تتخذوا إلهين يحتمل النهى عن اتخاذهما القدرة على عبادتهما أو لعدم صلاحية التعدد فعين الاحتمال الثانى بقوله اثنين ، ﴿ إِنَّمَا هُوَ ﴾ أى الله أو مستحق الألوهية وليس إلا الله ﴿ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

ذكر لفظ واحد مع أن مدلول إله واحد نصاً لا احتمالا ليدل على أنه
محض الكلام والمقصود منه بالذات إثبات الوحدانية ، وأما الألوهية
فتوطئة وتمهد لها وليدل على الوحدة لوازم الألوهية فقوله إنما هو إله
يوهم أن المراد مجرد إثبات الألوهية وأزال هذا الإبهام بقوله عز وعلا
واحد فبين به أن المراد الحصر فى الواحدة بنفى غيرها ، ﴿ فَإِيَّاى
فَارْهَبُون ﴾ الفاء الأولى تفيد السببية والثانية صلة تأكيد وإيا مفعول
لمحذوف من باب الاشتغال والأَصل فارهبونى ارهبونى حذف ارهبوا
الأَول فتفضل ضمير النصب أوالأَصل، فإياى ارهبوا ارهبونى بفصل
الضمير لتقديمه لإفادة الحصر، أى لا يرهبوا إلا إياى حذف ارهبوا
الأَول أيضاً ،وعلى كل حال زيدت الفاء فى الثانى لتأْكيد السببية
وحذفت منه الياء الشاغلة وبقيت نون الوقاية والياء بمنزلة الثابت أو
إياى مفعول لمحذوف لا على الاشتغال والأَصل فاتقونى أو فاعبدونى
حذف العامل فانفصل الضمير ،والأَصل فإياى اتقوا واعبدوا وعلى هذه
الأَوجه تكون الفاء الثانية عاطفة ،وعلى كل وجه فكون مقتضى الظاهر
فاياه فارهبوه ولكن جاء على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم ونكتته
المبالغة فى الترهيب والتصريح وبالمقصود كأَنه قيل فأنا ذلك الواحد
فلا ترهبوا إلا إياى وهو أبلغ من أن يتوافق الكلمات فى الغيبة التى
أعلمتك أنها مقتضى الظاهر ومن أن يتوافقا فى التكلم بأن يقال مثلا

لا تتخذوا معى إلها إنما الألوهية لى فقط فإياى فارهبون والرهبة الخوف

﴿ وَلَهُ ﴾ لالغيره ، ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ المراد أنه الأجسام المرتفعة فتشمل العرش والكرسى وغيرهما ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ المراد جنس الأرض أو هذه ويقاس عليها غيرها ، ﴿ وَلَهُ ﴾ لا لغيره ، ﴿ الدِّينُ ﴾ الطاعة والخضوع ، ﴿ وَاصِبًا ﴾ ، قال ابن عباس أى دائماً لأنه المنفرد بالألوهية الحقيق بأن يرهب منه. قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك السبب فى حال حياته أو بعد موته إلا الحق سبحانه وتعالى فإن طاعته واجبة أبداً لأنه المنعم على عباده المالك لهم وذكر بعضهم أن واصباً بمعنى ذى تعب وكلفة ولذلك سمى الدين تكليفاً وفيه ضعف لأن ظاهره ينافى قوله تعالى ما جعل عليكم فى الدين من حرج، ولولم ينافِ فى الحقيقة اوجود التكليف فيه وهو إلزام ما فيه المشقة وقيل الدين لجزاء أى له الجزاء دائماً فإن ثوابه على الإيمان والعمل الصالح وعقابه على الشرك والمعاصى لا ينقطعان وعلى كل قول فدائما إما حال من ضمير الاستقرار المستتر فى له العائد إلى الدين وإما ظرف زمان على أنه نعت لمحذوف أى زمانا دائماً فيتعلق بالاستقرار ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ الهمزة للتعجيب والإنكار أو للتوبيخ وهى ما بعد الفاء أو داخلة على محذوف أى أتتعلمون عن الحجة على وحدانية الله عز

وجل وتتقون غير الله فإن غير مفعول لقوله ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ أى كيف تعبدون غير الله أو كيف تحذرون عقابه مع أنه لا ضار ولا نافع سواه كما قال .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ ﴾ أى وما اتصل بكم من نعمة أو ما ثبت معكم ﴿ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ الله كصحة البدن وسعة الرزق والمال والولد والواو للحال أى كيف تتقون غيره والحال أن النعم منه لا من غيره ويصح العطف على وله ما فى السموات أو على وله الدين ويصح الاستئناف وما موصولة زيدت الفاء فى خبرها وعليه فيعلق الباء يكون خاص مدلول عليه بالمقام ،أى وما اتصل بكم والباء للالصاق أويكونعام أىوما ثبت بكم أى معكم فالباء للمصاحبة ومن الله خبر أو شرطية وشرطها الكون الخاص المذكور آنفاً والجواب من الله مع مبتدا مقدر أى فهو من الله وإنما تصح الموصولية على ما قال القاضى على تضمن معنى الشرط باعتبار الأخبار المتضمنة له الجملة الشرطية دون الحصول المختص بالجملة الخبرية فإن استقرار النعم بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله سبحانه وتعالى لا لحصولها منه قلت : بل تصح الموصولية بطريق آخر أيضاً هو أن المراد النعم الحاضرة عندهم وعليه فإنما جاءت الفاء باعتبار أن ماسيحضر يعلم بالمقايسة أنه من الله عز وجل أيضاً . ﴿ ثُمَّ إِذَا

مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾ أصابكم أمر ضار كفقر ومرض وزوال مال أو ولد .
﴿ فَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى غيره ﴿ تَجْأَرُونَ ﴾ ترفعون أصواتكم بالدعاء متضرعين مستغيثين لا تجأرون إلى الأوثان لعلمكم أنها لا تقدر على إذهاب الضر وقرىء تجرون بحذف الهمزة ونقل فتحتها إلى الجيم .

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ ﴾ أزاله ﴿ عَنكُمْ ﴾ وقرأ قتادة كشف بألف بعد الكاف وفتح الشين وهو أقوى من كشف بدون ألف لأنه فعالة والمفاعلة فى الجملة للمغالبة والمغالبة تدل على المبالغة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم ﴾ أيها الناس مؤمنكم وكافركم ، ﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وهم كفاركم ومن للتبعيض ويجوز أن يكون الخطاب للكفار فقط ومن أيضاً للتبعيض باعتبار أن الفريق الآخر أيضاً من المشركين قد يقتصد إذا أذهب الله الضر لقوله سبحانه وتعالى فمنهم مقتصد فلا يعبد صنما أو لا ينسب كشف الضر إلى الصنم والمراد بالإشراك عبادة الصنم ونسبة الكشف إليه ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين عموماً أعنى بلا تفريق لهم إلى فريقين هنا فتكون من للبيان أى إذا فريق وهو أنتم بربكم تشركون .

﴿ لِيَكْفُرُوا ﴾ إذا عبدوا غيره ﴿ بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ من نعمة الكشف وغيره وهذه اللام تعليل للإشراك على طريق المبالغة كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة أو إنكار كونها من الله ويجوز أن تكون للعاقبة والصيرورة

أى مرجعهم إلى كفران النعمة ويجوز أن تكون لام أمر للتهديد كالأمر فى قوله عز وعلا﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ بالكفران والإشراك . ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبتهما لكن الأمر فيه أمر خطاب وفى ليكفروا أمر غيبة وليس جواز كون اللام للأمر مختصاً بقراءة بعضهم فيمتعوا بالتحتية والبناء للمفعول كما قيل والتمتع التلذذ .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ ﴾أى للأصنام التى لا يعرفونها معرفة حقيقية إذ نسبوا إليها الألوهية والشفاعة والنفع والضر وهى جماد عاجز عن كل شىء وكأنهم جاهلون بها،فالعلم بمعنى العرفان مبعد لواحد محذوف هو العابد أى لما لا يعلمونه،ويجوز أن يقدر لما لا يعلمونه نافعاً ولا ضاراً أو لا محيياً ولا مميتا ولا خالقاً ولا رازقاً ولما لا يعلمون له حجة ولا برهاناً أو لما لا يعلمونه إلهاً،يجعل العلم على بابه متعدياً لاثنين أو بمعنى العرفان فالمنصوب الثانى حال والجار إذا قدر يتعلق به على هذا وعلى ذلك كله فالواو فى لا يعلمون عائد إلى المشركين كالذى فى يجعلون وما موصول عائد إلى الأصنام ويجوز أن يعود الواو فى لا يعلمون للأصنام وهو الرابط على هذا مراعاة لمعنى ما الواقعة على الكثير المنزل منزلة العقلاء باعتقادهم الباطل والعلم بمعنى العرفان أى للأصنام الذين لا يعرفون شيئاً البته وعلى الأوجه

فاما مفعول ثان ليجعل ونصيباً مفعول أول ويجوز جعل ما مصدرية والواو للمشركين أى ويجعلون لعدم علمهم وعلى فالمفعول الثانى محذوف أى يجعلون للأصنام نصيباً لأجل عدم علمهم ﴿ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من الحرث والأنعام ويقولون هذا لله وهذا لشركائنا يتقربون إليها بذلك ﴿ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ على الله من أنه تعالى أمركم بذلكم أو من أنها آلهة تتأهل للتقرب وذلك سؤال توبيخ ووعيد وتهديد، وفى ذلك التفات من الغيبة إلى الخطاب مبالغة فى التهديد .

﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ يصيرون أو يختارون أو يثبتون ﴿ لِلهِ الْبَنَاتِ ﴾ بقولهم الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى وذلك مقالة مشركى العرب وقيل مقالة خزاعة وكنانة منهم وإنما قالوا ذلك لتاء التأنيث فى لفظ الملائكة أو لاستتار الملائكة عن العيون كما أن النساء تستتر ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أى نزهوا الله عن اتخاذ الصاحبة وعن الولادة تنزيها عظيما لائقا بحاله ويجوز أن يكون سبحانه تعجيبا أى تعجيبا أيها العقلاء من ذلك وأن يكون تنزيها وتعجيبا ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ عطف على معمولى عامل فلهم معطوف على قوله لله وما معطوف على البنات وما يشتهون هو البنون يستحبونهم لأنفسهم ويقتلون البنات وذلك فى معنى قولك ويجعلون لهم أى لأنفسهم ما يشتهون وإن قلت يلزم

عمل عامل واحد فى ضميرين متصلين بمعنى واحد أحدهما الواو فى يجعلون المقدر والآخر الهاء فى لهم وذلك مختص بباب علم وظن ورأى الحلمية وفقد وعدم لا يجوز فى أفعال التصيير وغيرها قلت ذلك إذا لم يكن أحد الضميرين متعدى إليه بحرف،أما إذا تعدى إليه به فجائز مطلقا وأيضا قد يغتفر ذلك فى العطف كما أن ما هنا عطف وكثيراً ما يغتفر فى التابع مالا يغتفر فى المتبوع ويجوز ذلك خبرا ومبتدأ أى ولهم فى زعمهم ما يشتهون .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ﴾ أى أخبر بولادتها وأصل التبشير الإخبار بما يسر واستعمل هنا فى مطلق الإخبار استعمالا للمقيد فى المطلق واستعمال الشىء فى ضده فبشر بمعنى أنذر وذلك تشبيه واستعارة بأن شبه الإخبار بالأمر الذى يسر بالإخبار بالأمر الذى يحزن بجامع أن كلا يؤثر فى القلب والوجه فالإخبار بما يسر يحدث فرحا فى القلب والوجه والإخبار بما يحزن عكسه،وزعم بعض أن التبشير مشترك فى ما يسر أو ما يحزن ويجوز أن يكون باعتبار أن الأصل أن يفرح بالولادة مطلقا أو بالأنثى خصوصا ليقوم بها فيدخل الجنة﴿ ظَلَّ ﴾ دام فى النهار كله أو صاروا أكثر وضع المرأة يتفق بالليل فان ولدت امرأته أنثى ظل مغتما فى جملة نهاره وإن ولدتها نهارا ظل مغتما فى بقية

يومه وكذا ما بعد ذلك ﴿ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ لتغلب دم الغضب وهيجانه عليه ويحتمل أن يكون قوله مسودا كناية عن الاغتمام والخجل ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غضبا من المرأة فعيل بمعنى مفعول أوممتلئا غيظا فعيل بمعنى فاعل فإن الكظم يتعدى ويلزم .

﴿ يَتَوَارَى ﴾يستخفى ﴿ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ حياء﴿مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ وهو الأُنثى ذلك أنهم يعيرون الرجل بولادة الأُنثى ولم يقل بها مراعاة للفظما ، ومن الأُولى للابتداء والثانية للتعليل ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ قرأ الجحدرى أيمسكها مراعاة المعنى ما وهو ذلك الأُنثى المبشر هو بها ﴿ عَلَى هُوْنٍ ﴾ذل وقرأ الجحدرى على هوان﴿ أمْ يَدُسُّهُ ﴾ يدفنه وقرأ الجحدرى يدسها مراعاة لمعنى ما والدفن الإخفاء وكانوا يدفنونهن ﴿ فِى التُّرَابِ ﴾وذلك مفعول لحال محذوفة أى قائلا فى نفسه أيمسكها ويتركها عن القتل أم يدفنها فتموت متحدثا فى نفسه أو مفكرا فيها أو مترددا وإنما يتعدى ذلك لتضمن معنى القول والنظر القلبى وقد يقول ذلك بلسانه خاليا أو لأَحد تنفرد به عن القوم ويشاوره أأمسكها أم أئدها أى أثقلها بالتراب فتموت كما قال الله جل جلاله وإذا الموءُودة سئلت بأَى ذنب قتلت كانت مضر وخزاعة وتميم فى الجاهلية إذا قربت ولادة زوجة أحدهم اختفى عن القوم إلى أن يعلم ما ولد له

فإن ولد له ولد فرح وظهر أو أنثى لم يظهر أياما حتى يفكر ما يصنع بها أيستحييها أم يقتلها لذمامتها أو لضيق النفقة عليه أو كثرة العيال أو خوف الفقر أو لما تأتى به من عار أو لشر أو لئلا يطمع فيها غير الكفؤ فإذا كانت سداسية حفر لها فى الصحراء وقال لأمها زينيها أذهب بها إلى إحمائها ويأمرها أن تنظر فى الحفرة فيدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب وكان صعصعة عم الفرزدق إذا أحس بشىء من ذلك وجه الإبل إلى أبيها لئلا يقتلها أو إذا سمع بمدفونة أظهرها وأرضى أباها وكان هو لا يفعل ذلك . قال الفرزدق مفتخرا :

وعمى الذى منع الوائدات فأحى الوبيد ولم يبدى الوبيد

ولم يثبت التاء لأنه فعيل بمعنى مفعول معلوم أنه لمؤنث قال ابن مسعود رضى الله عنه قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوائدة والموءودة فى النار ،رواه أبو داود ذكره السيوطى فى جامعيه الصغير والكبير. ولعل المعنى أن الموءودة تكون فى النار إذا أحييت وبلغت أو إن قتلت بالغة ﴿ أَلَآ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ به فحذف الرابط على الشذوذ لأنه مجرور لم يجر الموصول بمثله ولم يتعلق بمثل ما يتعلق به الموصول لو جر أو يحكمون بمعنى يقضون أى ألا ساء ما يقضونه فالحذف غير شاذ أوما مصدرية أى ألا ساء حكمهم والمخصوص بالذم محذوف أى ساء

ما يحكمون إثبات الأنثى أو ثبوتها لله المتعالى عن الولادة وكل نقص مع أن الأنثى عندهم بهذه المنزلة من القبح حتى أنه يعبر بها ويسود وجهه بها وقيل المراد ساء ما يحكمون به من دس البنات فى التراب .

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى صفة السوء وهى الاحتياج إلى الأولاد الذكور استعانة بهم وكراهة الإناث وقتلهن بالدس لما مر مع احتياجهم لنكاحهن وخوف الفقر والإقرار بالشح البالغ واتخاذ الصاحبة﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ الصفة العليا وهى الغناء التام المطلق عما عداه والقدرة التامة والوجوب الذاتى والوجود الدائم والوحدانية والجلال والنزاهة عن كل نقص وقال بعضهم إن المثل على ظاهره وإن المعنى لهم مثل السوء فى كل سوء ولا غاية أخرى من عذاب النار ولله تعالى المثل الأعلى فى كل خير أى الكمال المستغنى ، وعن ابن عباس مثل السوء النار والمثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله وعن بعض أنه الإخلاص والتوحيد﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المنفرد بكمال القدرة الممتنع فى كبريائه وجلاله الغالب فى كل ما يريد﴿ الْحَكِيمُ ﴾ المنفرد بكمال الحكمة فى قوله وفعله ولا رائحة حكمة فى قتلهم البنات .

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ) كفرهم ومعاصيهم ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكونوا كلهم ظالمين حتى

الأنبياء-عليهم الصلاة والسلام-ونحوهم كالأولياء والصالحين لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم فبنسبة الظلم حكم على المجموع لا الجميع لأن الناس ظالم ومقتصد وسابق بالخيرات ويحتمل أن المراد بالناس المشركون لنسبة الظلم وقد قال عز وعلا إن الشرك لظلم عظيم وعموم الظلم فى الشرك وغيره أولى وأظهر وليس المقتصد والأولياء والصالحون خالين عن الظلم رأساً ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أى على الأرض وإنما عيد الضمير إليها ولم يجر الهاء ذكر للدلالة عليها بذكر الناس وبذكر التراب وبذكر الدابة بعد والذنب يكون على الأرض وهذا أولى من قول بعضهم أعيد إليها الضمير لشهرتها وتمكن الإشارة إليها ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ما يدب على الأرض من آدمى وجنى والأنعام والوحش والطير وغير ذلك أى يهلك ذلك بسبب ظلم الظالم منهم ويبعث كلا على عمله كما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-وسمع أبو هريرة رجلا يقول إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال بلى والله إن الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم. وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم، وفى رواية عن أبى هريرة أنه سمع قائلا إن الظالم لا يضر إلا نفسه فقال بئس ما قلت إن الحبارى تموت لا بظلم الظالم وعن ابن مسعود إن الجعل

يعذب فى جحرها بذنب ابن آدم وهو بضم الجيم وفتح العين دويبة سوداء كالخنفساء، قال أبوعبيدة رضى الله عنه مرت جنازة برسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـفقال مستريح أو يستراح منه ،فقال يا رسول الله ما المستريح وما المستراح منه فقال العبد المؤمن يستريح من خطب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله والعبد الفاجر تستريح منه البلاد والعباد والدواب والشجر قلنا استراحة العباد لما يأتى به من المنكر فإن أنكروا عليه أذاهم بلسانه أو فى ما لهم ينزع بعض منه وإن تركوه أثموا إذ لا يسقط فرض النهى بشتم اللسان أو بنزع قليل من الماء وإن كان يضرهم بالضرب أو بالمال الكثير فإن أنكروا ضرهم بذلك وإلا لم يأثموا لكن يتألمون بمعاصيه وأيضا يستريحون من ظلمه واستراحة البلاد لأنه يحصل الجدب بمعاصيه فيهلك الحرث والنسل ولأنه يغصب الأرض ويمنع من حقها ويصرف حقها فى غير وجهه وراحت الدواب مما لا يجوز له من إتعابها فوق طاقتها وحمل ما لا تطيق وضربها وإجاعتها وإعطاشها وقد أهلك الله سبحانه وتعالى ما على الأرض من كل ما يدب فى زمان نوح ـ عليه السلام ـ كما لايجوز بذنوب قومه إلامن كان فى السفينة وقوما بقوا لم يصبهم الغرق كما بينت فى محله ويحتمل أن يكون المراد ولو يأخذ الله الناس الظالمين بظلمهم ما ترك عليها من دابة

ظالمة كذا ظهر لى ثم رأيت القاضى أشار إليه وزعم بعض أن المعنى لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء ويحتمل أن يريد بالدابة المشرك كما قال إن شر الدواب عند الله الذين كفروا وبالناس مشركين وبالظلم الشرك كما مر أنه يناسبه أن الشرك لظلم عظيم ﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ فضلا وكرما وحلما وليتوالد ويجرى ما سبق به علم الله جل وعلا ﴿ إِلَى أَجَلٍ ﴾ عند الموت وبعده وبعد القيامة حد محدود لكل منهم وهو عمر كل واحد ﴿ مُسَمًّى ﴾ معين المقدار عند الله عينه لأعمارهم أو عذابهم وقيل المراد من تقوم عليهم الساعة ولا تقوم إلا على المشركين لا يستأصل الناس بالهلاك حتى تأتى نفخة الموت ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ عنه ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ بل هلكوا وعذبوا.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ لأنفسهم كالبنات والشركة فى الرياسة وغيرها والاستخفاف بالرسل والتهاون بالرسالة فإنهم يكرهون أن يستخف أحد بمن أرسلوه أو برسالتهم ﴿ وَتَصِفُ ﴾ أى تقول ﴿ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ مع ذلك ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ المصدر من الاستقرار بدل من الكذب وقرىء الكذب بضم الكاف والذال جمع كذوب والرفع فهو نعت والمصدر مفعول به والحسين البنون فى تفسير مجاهد وقتادة وقال الحسن الجنة أى إن كانت الجنة حقاً فهى لنا عند الله كقوله

ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا وقول الحسن أنسب لقول الله تعالى ﴿ لا جَرَمَ أنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ وهو رد لكلامهم وإثبات لضده وعلى قول مجاهد وقتادة يكون هذا كلاماً مستأنفاً فى ذكر جزائهم على وصفهم الكذب ومعنى لا جرم حقا أو لابد وقد مر ﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ بكسر الراء مخففة أى مبالغون فى المعاصى مسرفون وقرأ غير نافع بفتح الراء مخففة أى مقدمون إلى النار من قولك أفرطت فلانا إلى الماء أى قدمته قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أنا أفرطكم على الحوض أى متقدمكم وذلك قول الفراء ومثله قول قتادة معجلون إلى النار ، وقال ابن العباس وابن جبير ومقاتل منسيون متروكون فى النار يقال أفرطت فلانا إذا خلفته ونسيته وقرأ مفرطون بفتح الراء مشددة وفتح الفاء أى مقدمون إلى النار معجلون إليها كما يقال فرطته إلى الماء بالتشديد وقرىء مفرطون بكسر الراء مشددة أى مضيعون للطاعة .

﴿ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ رسلا ﴿ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ بالأمر بالإيمان والتوحيد والطاعات ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى وسوس لهم بتحسين أعمالهم الخبيثة من الشرك والمعاصى فأصروا وكذبوا الرسل ﴿ فَهُوَ ﴾ أى الشيطان ﴿ وَلِيُّهُمُ ﴾ أى ولى الأمم أى قرينهم ومتولى أمورهم

وبئس القرين ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ أى فى الدنيا وعبر عن زمانها باليوم أو المراد باليوم زمان التزيين لهم على حكاية الحال الماضية قدرها كأنها حاضرة أو المراد يوم الحشر على حكاية الحال المستقبلة تنزيلا لها منزلة الحاضر ويجوز كون ال للعهد الذهنى أى فى اليوم المشهود الذى هو يوم القيامة ويجوز أن يكون معنى كونه وليهم أنه ناصرهم يوم القيامة أى إن كان لهم ناصر فما هو إلا الشيطان ومن كان الشيطان وليه فهو مخذول مغلوب مقهور وذلك نفى للناصر لهم على أبلغ وجه أو سمى ولياً لطاعتهم إياه أى تلوه اليوم فى الدنيا بالطاعة ويجوز كون الهاء فى وليهم لكفار قريش واليوم الزمان الذى هم فيه يغرهم ويغويهم بالمعاصى والتكذيب أو اليوم يوم القيامة ويجوز تقدير مضاف أى ولى أمثالهم ،والأولى على الأوجه كلها أن يراد باليوم الدنيا أو وقت التزيين ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة وذلك تسلية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ووعيد لهم .

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من التوحيد والقدر والبعث والجزاء وغير ذلك من أمر الدين وكان فيهم من يذكر ذلك وكان عبدالمطلب يقوى البعث ، والضميران فى قوله تعالى إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه للناس

فيما قيل والظاهر أنهما لكفار قريش والتبيين لهم تبيين لغيرهم لأنه إذا بين لهم بين من آمن منهم للناس مطلقا أو يؤخذ التبيين لغيرهم من غير هذه الآية ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾منصوبان على التعليل معطوفان على مجموع الجار والمجرور فى قوله لتبين وأعنى بالمجرور المصدر الذى يسبك من الفعل وإنما نصبا لأن فاعل الهداية والرحمة وفاعل الإنزال واحد وهو الله سبحانه وتعالى بخلاف التبيين ففاعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فجر باللام وكأنه قيل وأنزلناه هداية ورحمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بالقرآن نفعنا الله الكريم به .

﴿ واللهُ أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بأن إخراج نباتها وما زرع فيها وموتها كناية عن يبسها وعدم تولد شىء منها وإحياءها كناية عن إخراج ما ذكر﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من إحيائها بعد موتها ، ﴿ لَآيَةً ﴾ دلالة على أن الله سبحانه قادر على إحياء الموتى ، ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع إنصات وتفكر فمن لم يسمع بقلبه كأنه أصم .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ عبورا من الجهل إلى العلم ومن الباطل إلى الحق وبين موجب العبرة بقوله ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ بفتح النون عند نافع وابن عامر وأبى بكر ويعقوب وضمها عند الباقين وكذا فى سورة المؤمنين ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ أفرد من تبعيضية لأن ما فى البطون بعضه اللبن ضمير الإنعام لأن الإنعام اسم جمع وقد عده سيبويه فى الأسماء المفردة الواردة على وزن أفعال بفتح الهمزة كثوب أخلاق وثوب أسمال وبرمة عشار وثوب اكياش مغزول مرتين فالإفراد والتذكير هنا باعتبار اللفظ والتأنيث فى سورة المؤمنين لدلالته على الجماعة وذلك قول أبى عبيد والأخفش وقيل جمع نعم فقال الكسائى أفرد وذكر للتأويل بما ذكر وقيل باعتبار الجنس فإن الجنس مفرد مذكر وقيل الضمير لواحده أو للبعض فإن اللبن لبعضها دون جميعها. ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ ﴾ما فى الكرش التفل ويسمى أيضاً فرتا بعد خروج الكرش لا ما خرج منه فإنه يسمى بعرا أو روثاً. ﴿ وَدَمٍ ﴾ ومن للابتداء لأن بين الفرث والدم محلا يبتدىء منه الإسقاء متعلقة بنسقيكم أو محذوف حال من بين قدم عليه لتنكيره وللتنبيه أنه موضع العبرة ويجوز كون من فى الموضعين معاابتدائية ؛ فيكون من بين فرث ودم بدلا من قوله مما فى بطونها وقوله ﴿ لَّبَنًا ﴾مفعول نسقيكم (خَالِصًا)

عن الدم والفرث ولونهما ورائحتهما وطعمهما وعما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه وهو ثقبات صغار ومشام ضيقة لا يخرج منها إلا ما لطف من اللبن بالمص أوالحلب ويحتبس الكثيف فى البدن واللبن متولد من أجزاء الدم المتولد من أجزاء الفرث اللطيفة المنهضمة بعض انهضام وذلك إنما أكلت إذا طبخ فى كرشها كان أسفله فرثاً وأوسطه لبنا وأعلاه دماً،كذا قيل عن ابن عباس بمعنى أن اللبن يتولد من الوسط والدم المغذى للبدن من أعلاه بأن يجذب الكبد خلاصة الطعام المنهضم ويهضمها ثانياً فيطلقها وقد أحدث فيها أخلاطا أربعة منها مائية وتمييز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من مدة هضم الطعام فى الكرش وهضمه مع الكبد ويدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقى على الأعضاء بحسب ما يليق بكل، وذلك كله بتقدير العزيز الحكيم والأنثى تزيد خلاطها على غذائها لتغلب البرد والرطوبة عليها فيندفع الزائد أولا إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها الغذذية البيض فيصير لبنا واللبن هو المسلط على ذلك يقسمها بتقدير الله عز وجل فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى التفل يخرج روثاً وبعراً فليس اللبن والدم متولدين فى الكرش .

قال الفخر الرازى عن الحكماء بدليل الحس فإن الحيوانات تذبح ذبحاً متوالياً وما رأى أحد فى كروشها لبنا ولا دماً بل يصل العلف إلى المعدة وإن كان الحيوان من الأنعام وصل إلى الكروش فإذا طبخ وانهضم فينجذب ما صفا إلى الكبد وينزل الكثف إلى الأمعاء وينهضم ما انجذب إلى الكبد انهضاماً ثانياً ويصير دماً ويخلط بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فتذهب الصفراء إلى الكلية ومنها إلى المثانة والدم إلى العروق البائنة من الكبد وبين الكبد والضرع عروق كثيرة يحصل أقول هضم ثالث فينصب الدم منها إلى الضرع والضرع لحم غدوى أبيض رخو فى قلبه فيقلبه الله عز وجل عند انصبابه إليه لبناً فاللبن تولد من بعض أجزاء الدم والدم بعض من الأجزاء اللطيفة من الأشياء المأكولة فاللبن تولد أولا من الفرث وثانياً من الدم فذلك معنى كونه من بين فرث ودم ، ﴿ سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ سهل المرور فى حلوقهم حتى أنه قيل لم يغص أحد باللبن قط ولا شىء أنفع للبدن من اللبن الذى لم يمخض ولا أشد مبادرة فى ظهور صلاحه ويليه اللحم واللحم سيد الطعام على الإطلاق والثريد سيد ما عدا اللحم من الطعام واللبن سيد الشراب . روى أبو داود والترمذى وابن ماجه وعن ابن عباس عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال ليس شىء يجزىء مكان

الطعام والشراب غير اللبن لأنه قال : من أطعمه الله طعاماً فليقل : « اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه » . ومن سقاه الله لبناً فليقل : «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه» وقرأ سيغا بفتح السين وإسقاط الألف بعدها وكسر الياء مشددة وبفتحها وإسقاط الألف وإسكان الياء والمعنى واحد . قال صاحب الكشاف وقد احتج بعض من يرى أن المنى طاهر على من جعله نجساً لجريه فى مسلك البول بهذه الآية وليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً .

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ﴾عطف على مما فى بطونها كأنه قيل ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب عصيراً أو نسقيكم من عصير ثمرات النخيل والأعناب أو متعلق بنسقيكم المحذوف مستأنفاً والمراد ما يتخذ من ذلك من أنواع الخمر والخل كما استؤنف فى بيان ذلك قوله ﴿ تتَّخِذُونَ مِنْهُ ﴾ أى مما ذكر وهو الثمرات أو من الثمرات لأنه فى معنى الثمر والثمر يجوز إفراده وتذكيره أو من العصير الذى قدر مفعولا أو مضافاً للثمرات كما رأيت ويجوز أن يتعلق من ثمرات بتتخذ محذوفا على الاشتغال أى وتتخذون من ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه أى مما ذكر أو من الثمرات بمعنى الثمر أو من

العصير المقدر مضافا للثمرات أو يتعلق بيتخذ المذكور بعده ومنه تأكيد لفظى أو بمحذوف خبر لمبتدأ موصوف بتتخذون أو موصول به أى ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه أو ما تتخذون منه أو يقدر هكذا ولكم من ثمرات النخيل والأعناب ثم تتخذون منه أو ما تتخذون منه فيتعلق من ثمرات باستقرار لكم والإشكال فى هاء منه على هذه الأوجه الأربعة﴿ سَكَرًا ﴾ خمراً سميت باسم المصدر . ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾الأشربة المتخذة من التمر والعنب كالخل والرب والنبيذ أو السكر الخمر والرزق الحسن تلك الأشربة ونحوها وما يدخر من التمر والزبيب أى تتخذون من ثمرات النخيل والأعناب خمراً ونفقة حسنة هى ما أبقى تمراً أو زبيباً وما عمل شراباً،وتفسير السكر بالخمر لقول ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد والنخعى وابن أبى ليلى والزجاج وابن قتيبة وهو قول الجمهور ، وبه قال ابن عباس وصححه ابن العرابى وإن قلت فى الآية امتنان والخمر محرمة كيف يمتن بها . قلت : قال بعض : إنها قبل تحريم الخمر فتحليل الخمر فيها منسوخ ولايرد على ذلك أن ذلك إخبار ولا يدخله النسخ لأن المنسوخ ما تفهمه الآية من إباحة الخمر وأيضاً هى بمنزلة قولك اشربوها فإنها حلال وهذا غير خبر ، قال ابن العرابى : الصحيح أن ذلك

قبل تحريم الخمر فإن هذه الآية مكية باتفاق العلماء وتحريم الخمر مدنى انتهى ، وحرمت فى سورة المائدة وبذلك قال الشعبى والنخعى : أو الآية جامعة بين العتاب والمنة على تقدير أنها نزلت بعد التحريم ، قال القاضى إن نزلت قبل تحريم الخمر فدالة على كراهيتها وإلا فجامعة بين العتاب والمنة . ا هـ . وفى دلالتها على الكراهة بعد وخفاء ولا مانع عندى من أن تكون امتناناً بعد التحريم بما قد حل لهم قبل وقيل السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب بلبابه ثم ينزل حتى يشتد وهو حلال عندنا وعند أبى حنيفة وأبى على الجبائى شيخ الزمخشرى وعند الضحاك والنخعى وقيل السكر الطعم فإن السكر فى كلام العرب أيضاً ما يطعم ورجحه الطبرى ، وبه قال أبو عبيدة يقال : هذا سكر لك أى طعم لك وقيل مايسد الجوع من قولك سكرت النهر أى سددته وسكر الله عنى بمنه وكرمه باب الشر أى غلقه وعلى هذه الأقوال الثلاثة يكون الرزق الحسن أثمان الثمرات أو هو سائر الأشربة غير النبيذ على تفسير السكر بالنبيذ أو سائرها مع ما يدخر من ثمار للأكل أو هو الأشربة على تفسير السكر بالطعم وعلى تفسيره بما يسد الجوع وما صدقهما واحد وذكر الموافى أن السكر الخل بلغة الحبشة ويجوز أن يكون السكر والرزق

الحسن شيئا واحداً بمنزلة عطف الصفة كما تقول جاء زيد العلامة والورع، تريد بالعلامة والورع زيداً كأنه قيل تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن. ﴿ إنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ المذكور وهو الثمار وما يتولد منها ﴿ لآيةً ﴾ دلالة واضحة. ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾أى يستعملون عقولهم بالتأمل فى كلام الله ومخلوقاته يستدلون بذلك على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى ووجوده ووحدانيته عز وجل فائدة ثبت فى بعض الأحاديث أنه يجعل التمر فى الماء صبحاً ويشرب عشاء وفى بعضها يجعل فيه ثلاثة أيام لا أكثر فيكون الحديث الأول بياناً لما يصنع لحاجة يوم لا حصراً.

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ ﴾أرسل إليها بالإلهام معانى فى نفسها وسخرها لرشدها وقرأ يحيى بن وثّاب بفتح الحاء كالنون. والنحل يُذكر ويُؤنث وقد أنث بعد. وقيل هو مذكر وإنما أنث فى الآية على معنى الجماعة والظاهر الأول ، قال بعض والتأنيث لغة الحجاز. قيل سمى نحلا لأن الله عز وجل نحل لنا العسل منه أى أعطاناه أو لأنها تنحله أى تعطيه موضعها إياه وهو زنبور العسل ويسمى الدبى أيضاً والهمها الله أيضاً إلى تجعل على أنفسها أميراً كبيراً نافذ الحكم فيها وهى تطيعه وتمتثل أمره ويكون أكبرها جثة ويسمى أميرها يعسوب

النحل وفى طبعها الطاعة لأميرها والانقياد والنظافة وما مات منها أخرجته ورمته ولتنظفها تجعل العسل فى الموضع النقى من بيوتها وعندها الطرب وتحب الأصوات اللذيذة ولها آفات تقطعها كالظلمة والغيم والريح والمطر والدخان والنار ، وكذا المؤمن له آفات تقطعه ظلمة الغفلة وغيم الشك وريح الفتنة ودخان الحرام ونار الهوى وليس لها نظر فى العواقب ولها معرفة بفصول السنة وأوقاتها وأوقات المطر والخطاب بالكاف للنبى - صلى الله عليه وسلم -ويلتحق به غيره ويسرى إليه الخطاب ،هو لكل من يصلح له من كل من له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وأنه المدبر بلطيف حكمته حيث ألهم حيوانًا ضعيفاً إلى بناء لا يقدر عليه إلا حذاق البنائين بآلات دقاق وأخرج منها العسل الذى هو من الحلاوة بمكان مع أن مطعمها ليس بأفضل من مطعم الإنسان ولا مساو ،﴿ أَنِ اتَّخِذِى ﴾ أن مفسرة لأن فى الإيحاء معنى القول دون حروفه أو هى مصدرية على تقدير الياء أى بأن اتخذى . ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾وقرأه قالون وابن كثير وعامر والكوفيون غير عاصم بكسر الباء لأجل الياء بعدها . ﴿ وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾بضم الراء . وقرأ ابن عامر وأبو بكر بكسرها أى ومما يبنى الناس لك لأنها إنما تأوى إلى بناء بنى لها لا إلى بناء لم يبن

لها وقيل المعنى ومما يرفعون من سقف أو شجرة عنب،والعطف على من الجبال وقوله بيوتاً فى نية التأخير أى أن اتخذى من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون بيوتاً أو فى نية التقديم أى أن اتخذى بيوتاً من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون والأول أولى لما قال بعض إن المفعول بواسطة الجار أحق بالتقديم من المفعول المنصوب بلا واسطة وإنما ذكر من التبعيضية لأنها لا تبنى فى كل جبل وشجر وعريش ولا فى كل مكان من ذلك،ولذلك لم يقل أن اتخذى الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ولا أن اتخذى فى الجبال بيوتاً وفى الشجر وفيما يعرشون ، وليس ما تبنيه لتتعسل فيه أولتسكن فيه بيتاً حقيقياً بل سماه بيتاً تشبيهاً للبيت الذى يبنيه الإنسان فى الشكل وحسن الصنعة وصحة القسمة التى لا يقوى عليها حذاق المهندسين إلا بالآلات وأنظار دقيقة ، قيل تبنى البيت على شكل مسدس من أضلاع متساوية لايزيد بعضها على بعض لمجرد طباعها ولو كان مدوراً أو مثلثاً أو مربعاً أو غير ذلك لكان فيما بينها خلل وفرجة ضائعة خالية قيل أنها تبنى من الشمع بيتاً مسدساً لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة قيل إنها تقسم الأعمال فبعضها يعمل البيوت وبعضها يعمل الشمع وبعضها يعمل العسل وهى وحشية وهى التى تسكن الجبال والشجر وإنسية وهى التى

تأوى إلى البيوت ويربيها الناس عندهم وقد ذكر ذلك فى الآية .
﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾أى التى تشتهيها لأَن من الثمرات ما لا تأكله فهو كقوله تعالى تدمر كل شىء أى كل شىء أُمرت به فخرج ما لم تؤمر به كالجبال فإن الريح لم تدمرها ، أوالمراد بكل الثمرات أنواعها كحلو ومر وأصفر وأبيض وأحمر أو المراد أنه أبيح لك كل ثمرة فكلى ما شئت وذكر بعض أنها إذا طارت ارتفعت ونزلت على الأَماكن النظيفة وأكلت نوار الزهر والأَشياء الحلوة وشربت من الماء الصافى ثم أتى فأخرج ذلك فأَول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء ثم العسل . ﴿ فَاسْلُكِي ﴾ ادخلى . ﴿ سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ أى طرقه فى طلبك المرعى ، ﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذليلة على تأْنيث السبيل أو دليل على تذكيره أو تأنيثه لأَن ذليلا فعيل بمعنى فاعل يصلح للمؤنث ولو بلا تاء والنصب على الحال من السبل أى ادخلى طرق المرعى غير مستصعبة عليك ولا عسرة بل سهلة مسخرة ولو توعرت ولا تضل عن مكانك إذا رجعت عنها ولو بعدت ذكروا أنها ربما أجذبت عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد فى طلب المرعى أو فاسلكى الطرق التى الهمك فى عمل العسل حال كون تلك الطرق غير مستصعبة عليك بل يسهل عليك عملها أو اسلكى من سلك المتعدى والسبل مسالك المرعى فى بطونها

التى يستحيل فيها النور المر مثلا عسلا بقدرة الله سبحانه وتعالى أى أدخلى بفتح الهمزة وكسر الخاء ما أكلت فى مسالكه التى يستحيل فيها عسلا حال كون تلك المسالك غير مستصعبة وبجواز كون ذلك على تلك الأوجه كلها حالا من الياء جمع ذليل أو ذليل وعلى وجه آخر وهو مطاوعتها الله عز وجل فيما أمرها به ولأربابها وانقيادها لهم حتى أنهم ينقلونها من مكان لآخر من مكان إلى مكان ولا تستعصى ، قال ابن زيد يخرجون بالنحل يطلبون المرعى وهى تتبعهم ، ﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ ﴾ هو العسل لأنه مما يشرب عدل عن خطاب النحل إذ لم يقل واخرجى من بطونك شراباً بفتح الهمرة وكسر الراء وألقى الكلام عنها إلى الناس لأنه محل الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه والظاهر من الآية أن ما تأكل يستحيل فى بطونها عسلا ثم تخرجه من بطونها لكن من فمها كاللعاب ولذلك يسمى فى الزنابير قىء الزنابير قال بعضهم تأكل الأزهار والأوراق العطرة فتستحيل فى باطنها عسلا ثم تقىء ادخاراً للشتاء ويدل ذلك أنه يوجد طعم ما تأكل وريحه قيل ولونه فى العسل وذلك قول الجمهور ، وقال بعضهم إنه يخرج من غير فمه وعلى كل من القولين أصله ما تأكل يستحيل عسلا ويدل له قصة المغافير التى سأذكرها إن شاء الله فى سورة التحريم من أن

النبى - صلى الله عليه وسلم - لما شرب العسل عند زوجته حفصة قال بعض أزواجه أكلت مغافير . فقال : لا . قالت : فما هذا الريح الذى أجد منك؟سقتنى حفصة شربة عسل. قالت : اكلت نحلة العرفط شجر الطلح والمغافير ، صمغه له رائحة كرائحة كريهة وزعم بعض الأطباء أنها تلتقط من شجرة مباركة فجىء بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرىء ومرض شخص فقال ائتونى بماء وعسل فأتوه بذلك فخلطه وشربه فشفى ومن خلط العسل الخالص بمسك خالص واكتحل به نفع من نزول الماء فى العين والتلطخ به يقتل القمل ولعقه نافع لعضة الكلب والمطبوخ منه نافع للمسموم وتنكير شفاء للتعظيم كأنه قيل شفاء عظيم،وقيل إن المراد فى الآية إلى أن العسل شفاء لبعض الأمراض وبعض الناس دون بعض فتنكير الشفاء للتبعيض وإطلاق الناس باعتبار أنه نافع فى الجملة وبهذا أيضاً يزول اعتراض المعترض ولا يخفى أن نفعه أكثر من مضرته وقل معجون من المعالجين إلا وبه تمامه والأشربة المتخذة منه نافعة لأصحاب البلغم والشيوخ المبرودين وهو كما قال السدى شفاء للأوجاع التى شفاؤها فيه وقيل إنه شفاء بنفسه كما فى الأمراض البلغمية أو مع غيره كما فى سائر الأمراض قيل أو بنفسه مع نية غيره فهو أيضا على ذلك شفاء لكل مرض ولكل

أحد. وزعم الروافض قبحهم الله أن المراد بالنحل على وقومه وذكر بعض الروافض بحضرة المهدى أن النحل بنو هاشم يخر من بطونهم العلم، فقال له رجل من الحاضرين جعل الله طعامك وشرابك يخرج من بطونهم، فضحك المهدى وحدث به المنصور واتخذه أضحوكة من أضاحيكهم وفى رواية قال له جعل الله سبحانه وتعالى ما يخرج من بطون بنى هاشم غذاء للأبعد يعنى ذلك الرافضى وفى رواية أن بعضهم حضر مجلس المنصور فقال: المراد من قوله تعالى يخرج من بطونها شراب ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أهل البيت فإنهم النحل والشراب القرآن فقال له بعض من حضر من اللطفاء جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بنى هاشم فضحك الحاضرون عليه وأبهته والصحيح ما ذكرنا من رجوع الهاء فى قوله سبحانه وتعالى فيه شفاء للناس إلى الشراب المذكور وهو العسل لأنه أقرب وهو قول ابن عباس وابن مسعود وقال مجاهد الهاء راجعة إلى القرآن لأنه شفاء من أمراض الشرك والجهل والضلالة والصحيح ما ذكرت ويليه أن يقال إنها عائدة إلى ما ذكر من أحوال النحل المبينة فى الآية فإنها داعية إلى التوحيد والعبادة فهى شفاء من الإشراك بالله سبحانه وتعالى وسيادة غيره ولا مانع من أن يقال إن العسل شفاء للشرك والجهل بالتفكر فيه وللمرض

بأكله وللجوع وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الحلوى والعسل، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها. والمراد بالحلوى كل حلو كالتمر والزبيب والتين والعسل فعطفه عليها عطف خاص على عام لمزيته وليس ذلك على معنى كثرة التشهى لها ونزع النفس إليها وتأنق الصنعة فى اتخاذها وإنما ذلك أنه إذا قدم إليه ذلك نال منه نيلا صالحا من غير تقدير فيعلم بذلك أنه قد أعجبه طعمها وحلاوتها وفهم بعض أن المراد بالحلوى خصوص أشياء تخلط فاستدل به على جواز اتخاذ الحلاوات والأطعمة من أخلاط شتى ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ دلالة عظيمة على وجود الله جل جلاله وعلى وحدانيته وكمال قدرته إذ ألهم الحيوان الضعيف علوماً دقيقة وأفعالا عجيبة ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ يتدبرون حق التدبر فى صنع الله تعالى.

﴿ وَاللهُ خَلَقَكُم ﴾ أوجدكم بعد العدم ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم ﴾ يميتكم بآجالكم واحدا بعد واحد ومقترنين صغارا وأوساطا وكبارا غير واصلين أرذل العمر ﴿ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أى أخسه لما فيه من هرم وخرف بنقص الحواس واللسان والقوى والجسم والعقل قال على بن أبى طالب أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون

سنة وقال قتادة تسعون سنة بالمثناة أولا وقيل خمس وتسعون كذلك وإنما قال يرد لأنه فى حال طفوليته والصغر مثله فى حال كونه فى أرذل العمر فالتعبير بالرد وهو الإرجاع إلى الشيء بعد الصرف عنه يتضمن أن عمر الطفولية أيضا أرذل عمر، وصرح بالرذالة فى أواخر العمر دون أوائله لأن الإنسان فى أوائله على زيادة قوة وعقل ونقص رذالة، وفى أواخره ينعكس ذلك ولا رجاء معها ولا ينحصر ذلك انحصاراً كليا فى مدة فرب ابن خمسين فى أرذل عمر ورب ابن تسعين ليس فى أرذله. قال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر بحيث لا يعلم شيئا فإنه إن رد لم يكن بهذه الحيثية، كما قال ابن عباس ليس هذا فى المسلمين لأن المسلم لا يزداد فى طول العمر إلا كرامة عند الله وعقلا ومعرفة. قال ابن عباس فى قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين يريد الكافرين وقال فى قوله تعالى: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم المؤمنون استثنوا من أرذل العمر وقال عكرمة هم الذين قرءوا القرآن وقيل عمر الإنسان أربع: سن النشوء وهو أول العمر إلى ثلاث وثلاثين وهو غاية سن الشباب وبلوغ الأشد وسن الوقوف وهو ما بعد الثلاث والثلاثين إلى أربعين وهو مدة لا يزيد فيها قوة بزيادة السن ولا ينقص بها وأما العقل فيتم بتمام الأربعين وسن الكهولة

وهو ما بعد الأربعين إلى ستين يشرع الإنسان فيه فى النقصان لكن ينقص نقصا خفياً لا يظهر وسن الشيخوخة وهو ما بعد ستين وفيه يتبين النقص ويقع الهرم والخرف فى الجملة. قال: أنس كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات. رواه البخارى ومسلم وفى صحيحى الذى جعلته تماماً لمسند الربيع بن حبيب زيادة فى ذلك﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ ﴾ اللام لام الصيرورة كما يدل عليه قول ابن قتيبة أن المعنى حتى لا يعلم﴿ بَعْدَ عِلْمٍ ﴾ أى بعد علمه بالأمور﴿ شَيْئًا ﴾ مفعول يعلم وذلك للهرم وكما يدل عليه قول الزجاج إن المعنى إن منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير جاهلا بعد أن كان عالما وتحتمل البقاء على التعليل أى يرد إلى أرذل العمر لأجل أن لا يعلم شيئا فيصير بذلك كحاله فى الطفولية فى نقص عقل وقوة وقلة حفظ وسوء الفهم وفى كثرة النسيان وإن قلت إن من كان فى أرذل العمر قد يعرف شيئاً فما معنى الآية ؟ قلت المعنى أنه لا يعرف شيئا ما من الأشياء التى يحتاج فى معرفتها إلى تدقيق وكذا أو النفى عبارة عن قلة علمه لا نفى للعلم البتة أو المعنى لئلا يعلم زائداً على علمه السابق له وقد

من كلام ابن عباس وقيل العلم العقل أى لئلا يزداد عقلا بعد عقله الأول﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بمقادير أعماركم وتدبير الخلق وبكل شيء وقيل عليم بما صنع بأوليائه وأعدائه ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على مايريد من إماتة الشاب أثناء الهرم وغير ذلك ولو حق الآية إلى أن تفاوت الآجال إنما هو بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم أو غلب بعضها تغليبا غير مفوت على قدر معلوم تنقضى حياتهم إلى ذلك القدر بتغليب بعض الأمزجة مع واسطة الملك ولو شاء لأحياهم مع عدم اعتدال المزاج ولو شاء لأماتهم مع اعتداله ولو كان الموت بمقتضى الطبيعة فقط كما قد يقوله كافر لم يبلغ التفاوت هذا المقدار من موت أحد شابا وآخر هرما.

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ وماينتفع به من مأكول أو مشروب أو غيرهما فوسع على بعض وضيق على بعض ووسط لبعض وجعل أهل كل درجة متفاوتين ورزق بعضا نوعا من المال وبعضا نوعا آخر وبعضا كلا النوعين وجعل رزق بعض لذيذا شهيا ورزق بعضا خشنا ورزق بعضا متوسط وجعل بعضا يلى رزقه ورزق غيره كعياله ومماليكه وبعضا يلى رزقه فقط كما خالف بينكم فى الأعمار والعلم والجهل والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح

وزمان الإيجاد وزمان الإماتة وغير ذلك تقتضى الحكمة ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ وهم السادات فإن السادات مع عبيدهم وإمائهم بعض مما شمله قوله :والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ومانافية والذين اسمها والباء فى قوله جل جلاله ﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ ﴾ صلة للتأكيد فى خبر ما . وهذا أولى من إهمال ما، وكون الباء صلة فى خبر مبتدأ ورادى جمع مذكر سالم حذفت نونه للإضافة والمفرد راد اسم فاعل ﴿ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ من عبيد وإماء والمعنى ليس السادات يردون من أرزاقهم على مماليكهم إذا أنفقوا عليهم بل ما ينفقون عليهم أرزاق لهم أجراها الله على أيدى ساداتهم ﴿ فَهُمْ ﴾ السادات والمماليك ﴿ فِيهِ ﴾ أى فى الرزق ﴿ سَوَاءٌ ﴾ مستوون فى أن لكل منهم رزقا مخصوصا هو به لا ينقص منه ولا يزاد فيه سواء كان سيدا ومملوكا وإن رازق كل هو الله، كذلك ظهر لى ثم ظهر لى أن القاضى ذكره والحمد لله تبعا للزمخشرى وجملة هم سواء من لوازم قوله فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم أو مقررة له كما قال القاضى والفاءان عاطفتان ويصح الاستئناف وقيل المعنى أن الله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فلم تردوا رزقكم على مماليككم بإشراككم إياهم فيه أوتمليككموهم إياه ولم يرضوا بذلك حتى تكونوا أنتم وهم فيه سواء بشركة أو أملاك

فكيف ترضون أن تجعلوا من هو مخلوق لله سبحانه ومملوك له شريكا له في العبادة والأنعام والحرث وهو الصنم فذلك كقوله تعالى ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت إلخ وهو قول ابن عباس وجرى عليه الطبرى وعليه فالفاء عاطفة كما مر أو الاستئناف أو فيها معنى حتى الابتدائية أو معنى قولك ماكان كذا فضلا عن أن يكون كذا ومعنى فاء السببية الواقعة قبل المضارع في جواب النفي ويجوز أن يكون المعنى أن الله فضل بعضكم على بعض في الرزق فلم تعطوا منه مماليككم مثل ما تعطون لأنفسكم فتستووا أنتم وهم فيه مع أنه ينبغى أن تفعلوا ذلك ولم تفعلوه قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إخوانكم خولكم جعلهم الله قنية تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ولا يكلفه ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه ، رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أبى ذر فما رأى أبو ذر بعد ذلك إلا رداء عبده كردائه وإزاره كإزاره من غير تفاوت والخول العبد مبتدأ وإخوانكم خبر والقنية ما ملك ليمسك ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أى يكفرون وإنما عداه بالباء مع أنه متعد بنفسه لتضمنه معنى المتعدى وهو يكفر أى يكفرون نعمة الله باتخاذ الشركاء فى العبادة وإثبات النصب لهم من حرث

وإنعام أو باعتقاد أن ذلك من شركائهم التى يعبدون لا من عند الله أو بالإعراض عن هذه الحجج وتركها بعد ما أنعم الله بها عليهم بإيضاحها إرشاداً لهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية وقرأ أبو بكر يجحدون بالمثناة فعلق للخطاب فى قوله سبحانه والله فضل بعضكم على بعض .

﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾من جنسكم ﴿ أَزْوَاجاً ﴾زوجات لتستأنسوا بهن ويكون أولادكم مثلكم ولولا ذلك لم يكن استئناس ولا مماثلة الأولاد والتفسير بما ذكر هو الظاهر وهو أولى من أن يقال المعنى جعل لآدم من نفسه زوجة هى حواء فكان ذلك الجعل جعلا لكم كما يقول خلقكم من تراب بخلق أبيكم آدم منه ولكنه جائز فيكون المعنى خلق لكم من أنفسكم أزواجا بخلق حواء من ضلع آدم وساير النساء من نطف الرجال والنساء ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ ﴾ ذكورا خصوا بالذكر لفضلهم ولا سيا عند من يقتل البنات وقيل المراد ما يشمل البنات ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ تفسير جمع حافد وهو المسرع فى الخدمة ككامل وكميلة وفى الطاعة كقول الداعى إليك نسعى ونحفد أى نسرع إلى طاعتك والحفد خبب فوق المشى قال الشاعر :

حفد الولايد بينهن وأسلمت بأكفهن أزمـــة الأجمـــال

والمراد فى الآية أولاد الأولاد. قال ابن عباس أولاد البنين وقد يطلق على أولاد الصلب وليس مراداً فى الآية لعطفها على البنين والعطف يقتضى المغايرة فى الجملة إلا بتنزيل التغاير بالوصف منزلة التغاير بالذات فيكون فى معنى عطف الصفة على أخرى لموصوف واحد كأنه قيل وجعل لكم من أزواجكم أولادهم بنون وحفدة بوفع حفدة كما مر فى سكر أو رزقا حسنا ،وفى رواية عن ابن عباس أنهم أولاد امرأة الرجل الذين من زوج آخر. وقال ابن مسعود والنخعى هم أزواج البنات وإخوانهن وأعمامهن وآباؤهم وسائر أقاربها من جهة الأب وهم أصهار وبه عبر ابن مسعود فهو لفظ دال على البنات بدخولهن فى لفظ البنين تغليباً أو بالتقدير أى بنين وبنات وحفدة منهن وقيل الحفدة البنات وهن يخدمن فى البيوت ويسرعن فى طاعة الأب كما أن جميع من ذكر من أولاد الأولاد والأصهار والأختان والربائب كذلك كما هو نكتة التعبير عنهم بالحفدة. وقال عطاءهم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه بإرادتهم أو بامتهانه إياهم للخدمة وقيل أولاده الذين يمتهنهم لها وعلى القولين قسم البنين قسمين أحدهما لغير الخدمة والثانى لخدمة وقال الكلبى ومقاتل البنون هم أولاده الصغار والحفدة الكبار الذين يعينونه على عمله، وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم

الخدم من البنين وغيرهم أقارب أو أجانب وقال مجاهد هم الأعوان والأنصار كذلك ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من اللذائذ المتخذة من الشجر والنبات والحيوان وكان من التبعيضية لأن كل ما فى الدنيا من الطيبات هو شىء قليل بالنسبة إلى ما فى الآخرة ولأن لكل إنسان بعضا منها فقط وقيل الطيبات أنواع الحلال والكلام على من فى هذا القول مثله فى القول الأول ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ الباطل ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها ويؤمنون يصدقون أى فيصدقون بما هو وهم باطل متخيل غير ثابت وهو منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها أو الباطل نفس الأصنام أو الشيطان يصدقونه فى إثبات الشركة والصاحبة والولد تعالى الله أو ما يوسوس لهم به من تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة أو كل ما اعتقدوه من كل أمر باطل والاستفهام إنكار أو توبيخ ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ بالإشراك وبإضافتها إلى الأصنام وتحريم ما حل وقدم قوله بنعمة الله على يكفرون للفاصلة وللاهتمام أو لذلك مع إيهام الحصر مبالغة كأنهم متفرغون بالكلية إلى كفر النعمة ومقتصرون على الكفر بها لايتجاوزونه.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ ﴾ كالمطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ كالنبات والثمار وذلك هو الأصنام لا تقدر أن ترزقهم

من السماء ولا من الأرض ﴿ شَيْئًا ﴾ مفعول مطلق بمعنى ملكا أى لا يملك لهم رزقا ملكا ما أو بدل مطابق لرزقا على أن المراد به الرزق وفائدة الإتيان به الإشارة إلى أنه لا يملك لهم ولو أدنى ما يسمى من الرزق شيئا أو تأكيد بمنزلة قولك لا يملك لهم رزقا رزقا كقولك ما قام زيد زيد ومن السماوات لغة لرزقا ويجوز تعليقه برزقا لأنه بمعنى الشىء المرزوق للإنسان ويجوز كونه فى معنى المصدر كالرزق بفتح الراء فيتعلق به من السماوات والأرض فيكون شيئا مفعولا به لرزقا من إعمال المصدر المنون كقوله تعالى أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى لايقدرون على شىء من إيصال نفع كرزق ودفع ضر ولا يستطيعون الرزق فكأنه قيل لا يملكونه ولا يستطيعون أن يملكوه والضمير عائد إلى ما والمراد الأصنام اعتبر لفظ ما فى قوله لا يملك ومعناه فى قوله لا يستطيعون فجىء بضمير الجماعة الذكور العقلاء لأن الأصنام عندهم كالعقلاء ويحتمل عود الضمير للمشركين كالذى فى يعبدون أى لا يستطيعون دفع ما أراد الله ولا جلب ما لم يرد الله من رزق أو غيره وهم أحياء عقلاء متصرفون فكيف تستطيع الأصنام ذلك .

﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلهِ الأَمْثَالَ ﴾ لاتجعلوا له أمثالا فإنه لا يشبهه

شيء كيف تشبهون ما لا يقدر على شيء بمن يقدر على كل شيء من خلق ورزق وإحياء وإماتة وغير ذلك وكيف تشركون به ما لا يقدر على شيء وكيف تقيسونه عليه وضرب المثل تشبيه حال بحال وهو مأخوذ من قولك هذا ضريب هذا أى مثله والضرب النوع ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ﴾أنه لا مثل له أو يعلم خطأكم فى التشبيه والقياس المذكور ويعلم عظم جرمكم أو يعلم كنه الأشياء من عقاب وغيره فى القياس الذى هو قولكم إن عبادة عبيد الملك أبلغ فى تعظيم الملك من عبادة الملك وكانوا يقولون الأصنام عبيدالله وعبادتها تعظيم له ،﴿ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ ﴾ ذلك الذى ذكر أن الله يعلمه فاتركوا رأيكم لو علمتم ما جسرتم على ذلك وإن وما بعدها تعليل للنهى أو المعنى لا تضربوا لله الأمثال لأن الله يعلم كيف يضرب المثل وأنتم لاتعلمون كيف تضربونها فعلمهم ضربها بقوله .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا ﴾بدل من مثلا وقيل إن الضرب فى الأمثال بمعنى التصيير ويتعدى لاثنين فيكون مفعولا أولا ومثلا مفعولا ثانياً ﴿ مَمْلُوكًا ﴾لبعض الناس وهذا مخرج للحر فإنه أيضاً عبد الله لكنه غير مملوك لأحد من الناس والمكاتب حر عندنا ولو لم يعط شيئاً ، ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ من التصرف فى المال لعدم ملكه شيئاً مع عدم تسريح مولاه إياه وعدم إذنه له فى التجرى فخرج المأذون

له والمسرح ، وقال المخالفون : إن المكاتب عبد ما بقى عليه درهم وعليه فهو خارج بقوله عز وجل لا يقدر على شئ ، روى أبو داود عن ابن عمرو عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المكاتب عبد ما بقى عليه من مكاتبته درهم ومقابلة العبد بالمالك وجعله قسيماً له يدلان على أن العبد لا يملك وهو مذهبنا ومذهب الجمهور وقيل يملك ، ﴿ وَمَن ﴾ عطف على عبداً وهى نكرة موصوفة أى وحرا .﴿ رَّزَقْنَاهُ ﴾ أو موصولة أى والذى رزقناه والأول أولى ليطابق عبداً ،﴿ مِنَّا ﴾ أى من عندنا أو من رزقنا وفيه عمل رزق فى ضميرين مرجعهما واحد والظاهر عندى أنه يجوز لنا أن نقيس على ذلك إذا توصل العامل إلى أحدهما بحرف الجر لكثرته فى القرآن وتأويل الكثير لا لا يحسن ، ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ حسن جودة وكثرة ﴿ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً ﴾ يتصرف فيه كما يشاء ولا يعارضه أحد لله سبحانه فيمنعه وذكر السر والجهر كناية عن كمال تمكنه من الإنفاق منه فإن من لا يتمكن من شئ جهراً يفعله سرا مثل نفسه بالحر المالك الذى رزقه الله مالا جيداً كثيراً يتصرف فيه كما شاء ومثل الأصنام بمملوك عاجز عن التصرف أصلا فكأنه قيل مثلكم فى إشراك الأصنام بالله كمثل من سوى بين العبد ومالكه وهذا لا يقبله العقل مع استواء المالك منكم والمملوك

فى الجنسية وأصل الاحتياج والعجز فكيف تستوى الأصنام التى هى أعجز من العبد إذ هى جماد فالله جل جلاله القادر الغنى على الإطلاق الرازق فى أعظم شىء وهو العبادة، وهذا قول مجاهد والضحاك والزجاج وهو أولى لمناسبته ما قبل وما بعد فى تبيين أمر الله والرد على أمر الأصنام . وقال ابن عباس وقتادة العبد المملوك الذى لا يقدر على شىء مثل للكافر والمرزوق رزقاً المتصرف فيه سراً وجهراً مثل للمؤمن وذلك أن الكافر محروم من عبادة الله والثواب عليها فهو كالعبد فى الذلة والفقر وأنه لم يقدم خيراً فيما رزقه الله من المال فهو فقير من حسنات الصدقة كأنه لم يملك شيئا والمؤمن مثاب بعبادة الله وصدقته فهو عزيز غنى . وقال عطاء العبد المملوك أبو جهل والحر المالك أبو بكر رضى الله عز وجل عنه. ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ عبر بضمير الجماعة عن اثنين وذلك مجاز على الصحيح وقيل حقيقة أو عبر به نظراً للمعنى فإن المراد جنس العبيد الذين لا يقدرون على شىء وجنس الأحرار المالكين والاستفهام توبيخ وإنكار أى لا يستوى الحر والعبد أو المؤمن والكافر أو أبو جهل وأبو بكر. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور الحجة أو الحمد لله وحده لا يستحقه غيره فضلا عن أن يستحق غيره العبادة فإنه مولى النعم كلها كامل القدرة. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر أهل مكة وأكثر

الكفار أو أكثر الناس . ﴿ لَايَعْلَمُونَ ﴾ الحجة أو لايعلمون أن الحمد لله وحده أو لايعلمون أنه مولى النعم فيضيفونها إلى غيره ويعبدون غيره لأجلها أو لايعلمون ما يصيرون إليه من العذاب ثم زاد مثلا ثانياً بقوله :

﴿ وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ ولد أخرس لايتكلم فهو لا يفهم بنفسه ولا يفهم غيره والأخرس من لا يتكلم ولد كذلك أو حدث إليه فهو أعم من الأبكم لأن الأبكم من ولد كذلك ﴿ لَايَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ من الصنعة والتدبير لأنه كما مر لا يفهم ولا يفهم فهو عاجز عجزاً تاماً وناقص نقصاً كاملا ، ﴿ وَهُوَ كَلٌّ ﴾ ثقيل المؤونة أو هو غليظ من قولك كل السيف إذا غلظت شفرته وكل وكل اللسان إذا عي ﴿ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ﴾ أى على من يقضى له ما يحتاج إليهويتضرر به ولا ينتفع منه بشيء ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ ﴾ أى يرسله فى جلب نفع أو دفع ضر ولو لنفسه ، وقرأ ابن مسعود اينما يوجه بالبناء للمفعول وهاء واحدة وقرىءيوجه بضم الياء وإسكان الواو وكسر الجيم بمعنى يتوجه كما قرىء أينما توجه بفتحات على الماضوية ، ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ بشيء حسن من جلب أو نفع فضلا عن أن يأتى به بلا توجيه وذلك كناية عن كونه لا يتوجه أصلا إلى ما وجه إليه

فضلا عن أن يأْتِ بخير لأَنه يفهم ولا يفهم فكيف يفهم التوجيه حتى يتوجه وإن فرضنا أنه توجه وفهم فهو لا يأْت بخير ،وفى الكلام حذف تقديره والله أعلم والآخر يبلغ النطق مستقل بنفسه يجلب النفع ويدفع الضر ودل على ذالك قوله عز وجل ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ ﴾أى ذالك الأَبكم الكل الذى لا يأْتِ بخير وذالك مثل للأَصنام إذ لا تنطق وتضر ولا تنفع ولا تعقل وهى ثقيلة على من يعبدها بالنقل والخدمة والذبح لها وقيل هو أبو جهل ،﴿ وَمَن يَأْمُرُ ﴾ غيره، ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾ الشامل للفضائل فهو نافع الناس بأمره به ،﴿ وَهُوَ ﴾ فى نفسه ،﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ سيرة حسنة من دين ومكارم الأَخلاق فى نفسه ولغيره ولذلك استقام له الأَمر بالعدل وهذا مثل لله وليس المراد أنه يوصف بالسيرة ومكارم الأَخلاق وهو مقابل للأَصنام ، وقيل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو مقابل لأَبى جهل وقيل الأَبكم الكافر والآمر بالعدل المؤمن وقيل الأَبكم أبى ابن خلف ومن يأْمر بالعدل حمزة وعثمان بن مظعون رضى الله عنهما زاد قومنا عثمان بن عفان ، وقيل هو والأَبكم مولى له بأَمره بالإسلام ويأْمره المولى بالإمساك عن النفقه ويجوز أن يكون الصراط المستقيم كناية عن أنه لا يتوجه إلى مطلب إلا بلغه بأَقرب سعى لاستقامة طريقه إليه بل هذا أنسب بقوله لا يأْتِ بخير فيكون قابل تلك

الصفات بالعدل والكون على صراط مستقيم لأنهما من أكمل ما يقابلها والاستفهام كما مر إنكار وتوبيخ .

﴿ وَلِلَّهِ ﴾ وحده لالغيره ، ﴿ غَيْبُ ﴾ أى علم غيب . ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علم ما غاب فيهن عن العباد ولم يحسوه ولم يدل عليه محسوس وقيل غيبهن قيام الساعة لأنه لا يعلم أحد بوقته على التعيين ، ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ ﴾ساعة موت الخلق كلهم أو ساعة بعثهم بعد موتهم أو ذلك كله أى ما أمرها فى السرعة والسهولة﴿ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ﴾ فتح العين أو إطباق الجفن الأعلى عليها فكما أن فتح العين أوإغلاقها لا يحتاج فيه إلى زمان طويل ولا يستصعب كذلك أمر الساعة سهل عند الله إذا أراده أوجده فى أقل زمان . قال الزجاج أو أن أمر الساعة وإن تراخى عندكم قريب عند الله كلمح البصر وهذا مبالغة فى استقرابه والبصر العين ويجوز كونه بمعنى النظر والرؤية أى كاختلاس الرؤية ،﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ أى بل هو أقرب من لمح البصر قاله الفراء فأو فيه للإضراب كبل وقيل للإبهام وقيل للشك مصروفاً إلى الرأى أى لو اتفق أن يقف على ذلك أحد لكان من السرعة بحيث يشك هل هو كلمح البصر أو أقرب ، وقيل للتخيير أى إن شاء الله أوقعه كلمح البصر وإن شاء أوقعه أقرب والمشهور أن مجىء أو للتخيير أو الإباحة

مختص بالطلب ولم يشترط ابن مالك فى شرح الكافية ولا سيبويه فيما حكاه ابن الشجرى الطلب ولا يصح ذلك عن سيبويه وتفسير الأقربية أن يكون أمر الساعة نصف زمان لمح البصر أو ثلثه أو ربعه أو غير ذلك ككونه الآن الذى يبتدىء فيه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو قادر على إماتة الخلائق دفعة وإحيائهم دفعة كما قدر على إيجادهم شيئاً فشيئاً ودل على قدرته بقوله جل جلاله .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ ﴾ وقرىء بكسر الباء ﴿ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ وقرأ الكسائى بكسر الهمزة تباعاً للنون فإذا ابتدأ بأمهات ضمها وقرأ حمزة بكسرها وكسر الميم باتباع الهمزة للنون والميم للهمزة وإذا ابتدأ بأُمهات ضم الهمزة وفتح الميم ، هذا ما نسب إليهما ويحتمل أنهما قرآ بلغة كسر الهمزة فلا يخلف كسرها وصلا ووقفاً والهاء زائدة وشذت زيادتها فى المفرد كقوله أمهتى خندف والياس أى وجملة قوله تعالى ﴿ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ حال من كاف أى اخرجكم من بطون أمهاتكم غير عارفين شيئاً ما مستصحبين جهل الجماد الذى هو أصلكم ، (وَجَعَلَ لَكُمُ) الواو عاطفة سابق على لاحق فان جعل السمع والأبصار والأفئدة متقدم على الإخراج ويحتمل أن تكون عاطفة لاحق على سابق باعتبار أن الانتفاع بالسمع والبصر والفؤاد إنما هو بعد الإخراج

فكأنها لم تجعل إلا بعده أو بتقدير محذوف أى وجعل لكم سمع السمع ونظر الإبصار وفهم الأفئدة أو منافع السمع والأبصار والأفئدة ويجوز كون الواو للحال المحكية بلا تقدير قد على مذهب وبتقديرها على آخر أى أخرجكم وقد جعل لكم قبل الإخراج .﴿ السَّمْعَ ﴾ أى قوة فى الأذن تدرك الأصوات بعد أو نفس الأُذن أو نفس الإدراك للأصوات وهذا مختص بما بعده وذلك لتسمعوا دلائل الكتاب والسنة ومصالح معايشكم﴿ وَالْأَبْصَارَ ﴾ العيون أو القوى المركبة فيها المدركة للألوان ألوان على الواقعة على الأجسام لتبصروا بها نعم الله سبحانه و كبر أجسامكم بعد صغرها وحدوث مايحدث فيكم وعجائب ومصنوعات الله سبحانه وتعالى فتستدلوا بها على وجوده ووحدانيته و كمال قدرته .﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾جمع قلة لفؤاد . والمراد الكثرة ولم يسمع لفؤاد جمع كثرة أى والقلوب لتفهموا بها عظمة الله ودلائل الكتاب والسنة ومصالح معايشكم ودلائل الوحدانية وكمال القدرة وعلى كل حال قد انتقلتم من الجهل الذى أخرجتم عليه من بطون أمهاتكم إلى العلم بهذه الحواس التى هى العيون والآذان وسائر الأعضاء التى تدرك جزئيا الأشياء وتتنبهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بين الأشياء بتكرر الإحساس حتى تتحصل لكم علوم بديهية تتوصلون بها إلى علوم كسبية بالنظر فيها وعلى

بكل حال قد أخرجكم من ضيق البطون إلى السعة ومن الجهل والرذالة إلى العلم والإنعام بتكميل الأعضاء ومنافعها وسائر النعم فالآية تتضمن استدلالا على القدرة كأمر وتتضمن امتنانا بالنعم واستدعاء للشكر كما صرح به فى قوله جل وعلا . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى لتشكروا ما يتعاقب عليكم من النعم وما يترادف بالإيمان واستعمال هذه الجوارح وغيرها فى العبادة .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ضمائر الخطاب قبل هذا وضمير الغيبة فى هذا، كلها للمشركين وقرأه ابن عامر وحمزة ويعقوب ألم تروا بالمثناة فوق خطاباً لهم تأكيداً فى وعظهم على طريق الالتفات أو خطاباً للناس عامة ، ﴿ إِلَى الطَّيْرِ ﴾عدى يرى بإلى لتضمنه معنى الامتداد والتوجيه أى ألم تمتد أبصارهم أو لم يوجهوها إلى الطير .﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ حال من الطير أى مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب الموافقة للطيران . ﴿ فِى جَوِّ السَّمَاءِ ﴾فى الهواء المتباعد من الأرض إلى جهة السماء ومثله اللوح والسكاك أبعد منهما . كذا قيل والظاهر أن الجو الهواء بين السماء والأرض قرب أو بعد ، وقال بعض الحبو ما يلى الأرض منه . وعن كعب الأحبار رضى الله عنه الطير ترتفع فى الجو اثنى عشر ميلا ولا ترتفع أكثر من ذلك ، ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أى الطير فى

قبضهن وبسطهن ووقوفهن فى الجو ﴿ إِلَّا اللهُ ﴾ بقدرته فإن طبع أجسامها لثقلها يقتضى سقوطا إذ لا شىء تتعلق به فوقها ولا شىء تعتمد عليه تحتها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من تمكين الطير بالطيران فى الجو وإمساكها فيه مع أن طبعها الوقوع ﴿لَآيَاتٍ﴾ على أن لها ممسكاً أمسكها بالقدرة وذللها لما يصادر منها .﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات تفكراً واعتباراً .

﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم فى الحضر كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر ومن للتبعيض ، فإن من البيوت ما لا يعد للسكنى بل يخزن فيه المال وينزل فيه متاع الضيف ودابته أو دوابكم أو دواب غيركم بل بعض البيت الواحد لا يسكن مثل ظهرد وما ليس صالحاً للسكنى منه ويجوز أن يكون المعنى من جنس بيوتكم ويجوز كون أن للبيتان المقدم على المبين وهو السكن ، أى جعل لكم سكناً هو بيوتكم والسكن فعل بفتحتين بمعنى مفعول كنجا بمعنى منجو أى مسلوخ بمعنى ما يسكن ويصلح أن يكون مسكوناً من السكون فى موضع بمعنى اللبث فيه وهو الظاهر هنا أو من السكون إلى كذا أى الاطمئنان إليه لألفة كما يسمى من تألفه بالسكن ولا يخفى أن بيت الإنسان أيضاً مألوف ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن

جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ كالخيام والقباب والأخبية والفساطيط المتخذة من الجلود المدبوغة وغير المدبوغة والمصبوغة وغير المصبوغة ويجوز أن يراد بالبيوت أنواع البيوت المتخذة من نفس الجلود كما ذكرنا ومما ينبت عليها من صوف ووبر وشعر فإن ما ينبت على الجلد يصدق عليه أنه من الجلد . ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ تجدونها خفيفة أو تعتقدون خفتها أو تعدونها خفيفة وهى كذلك يخف عليكم حملها ونقلها ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ارتحالكم للسفر من الحضر لتجر أو جلب نفع أو دفع ضر أو من موضع فى البادية إلى آخر لطلب ماء أو نبات أو غيرهما من المنافع أو دفع ضر فلا يشق عليكم حملها والانتقال بها . وقرأ الكوفيون وابن عامر بإسكان العين وذلك لغتان﴿ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ يخف عليكم إذا أقمتم فى سفر أو حضر فيها وضعها فى الأرض أو ضربها ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أصواف الأنعام الضأن منها فقط وأضيف إليها لأن الضأن من جملتها ،﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أوبار الأنعام وإنما الوبر للإبل منها فقط وأضيف للأنعام لأن الإبل منها ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ أشعار الأنعام وإنما الشعر للمعز منها وأضيف إلى الأنعام لأنه منها ،﴿ أَثَاثًا ﴾ ما يلبس ويفرش ويتغطى به ويجعل ستر البيت أو غيره وجلالا للدواب وغير ذلك . وقال ابن عباس الأثاث المال وهو ما ذكرناه من لباس وفراش وغطاء

وستر وجلال وغير ذلك وما يتجر من أثمان ذلك ببيع واكتراء ومن أثمان الصوف والوبر والشعر غير معموله ، وقال مجاهد الأثاث المتاع أى ما يتمتع به أو نفس التمتع فإن فسرنا متاعاً بعده بما فسره به كان عطفه عليه تفسيراً على قوله،وإن فسرنا أحدهما بما يتمتع به والآخر بالتمتع لم يكن تفسيراً ، وقال ابن قتيبة وأبو زيد الأنصارى الأثاث المال كله فيشمل ما ذكرناه وما يشترى به من دابة وعبد وغيرهما ، وقيل الأثاث ما ينتفع به فى البيت ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ ما يتمتع به أو ما يتجر به أو تمتعاً وذكر بعض أن الأثاث ما كثر من الأث البيت وحوائجه وغير ذلك من قولك أث به الشعر أو النبات، أى كثر والتف والمتاع ما ينفع فى البيت خاصة ، قال أبو زيد الأثاث واحده أثاثه ، وقال غيره : لا واحد له من لفظه ، ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ متعلق بمتاعاً لأنه إما بمعنى تمتعاً أو ما يتمتع به والمراد بالحين حين انقضاء أوطاركم أو حين الموت أوحين فناء ذلك ورثته وبلاه أوزمان مديد لأن مايعمل من صوف أو وبر أو شعر يبقى مدة مديدة لصلابته وقوته وقيل يوم القيامة وما جعل الله سبحانه وتعالى من قطن وكتان أكثر نفعاً وألين وأكثر من الوبر والشعر ولكن خاطبهم بما يليق بهم فى الخطاب ويعرفونه فإنهم أعراب بادية أصحاب ماشية أصحاب صوف ووبر وشعر كما قال

وننزل من السماء من جبال فيها من برد فإن الثلج أكثر لكنهم لا يعرفونه أو لم يذكر القطن والكتان إعراضاً عما هو لذة وشرف ولباس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف وما خشن ، قال ابن العربي فى قوله تعالى لكم فيها دفء دليل على لباس الصوف فهو أولى لباس وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وإشارة الصحابة والتابعين واختيار الزاهدين والعارفين وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية لأنه لباسهم فى الغالب ، انتهى .

﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ﴾ من شجر وجبال وأبنية وسحاب وغير ذلك كغيران فى الأرض ﴿ ظِلالاً ﴾ تتقون بها حر الشمس وهى جمع ظل وما جعله يقى البرد أكثر وأعظم نفعاً لأن تحمل الحر أهون من تحمل البرد ولكنهم لما كانت أرضهم حارة خاطبهم بما يستظلون به عن الحر وكذا الكلام فى قوله بعد تقيكم الحر مع أنه يحتمل أنه لم يقل تقيكم الحر والبرد لذكر الوقاية عن البرد فى أوائل السورة إذ قال لكم فيها دفء فحذفه هنا لذكره وللعلم به وأنه يحتمل أن يكون المراد بحر أو برد بإظلال ما يشرف عليك ويقيك ما يضرك من حر أو برد ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ جمع كن وهو مايختفى

فيه من بيت منحوت فى جبل وغار والاكتنان بالبيوت المنحوتة فى الجبال وبالغيران والشجر ونحو ذلك يعرض للأغنياء إذا خرجوا بلا بيوت أو خرجوا بها ثم إذ تفصلوا عنها ويطابق الفقراء الذين لا بيوت لهم ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ثيابا من الصوف والكتان والقطن أو غير ذلك وهو جمع سربال وهو الثوب مطلقا من جبة أو قميص أو شملة أو سراويل وغير ذلك ﴿ تَقِيكُمُ ﴾تمنعكم ﴿ الْحَرَّ ﴾ والبرد وتقدير فى البرد بيان للواقع واشتهر أنه من حذف العاطف والمعطوف فى النحو ،وبحث فيه ابن هشام بأن الحذف الذى يلزم للنحوى النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة وذلك أن يجد خبرا بدون المبتدأ أو بالعكس أو شرطاً دون جزاء أو بالعكس أو معطوفا دون معطوف عليه أو معمولا دون عامل نحو ليقولن الله ونحو قالوا خيرا ونحو خير عافاك الله وأما قولهم فى نحو سرابيل تقيكم الحر أن التقدير والبرد وفى تلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل أن التقدير ولم تعبدنى ففضول فى علم النحو وإنما ذلك للمفسر انتهى . وخص الحر بالذكر لما مر أو لأن وقاية الحر كانت عندهم أهم لأن بلاد الحجاز حارة وما يهمهم البرد لكونه يسيرا يحتملونه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لبس ثوبا جديدا فقال الحمد لله الذى كسانى

ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى، ثم عمد إلى الثوب الذى خلق فتصدق به، كان فى كنف الله وفى حفظ الله وفى ستر الله حيا وميتا رواه الترمذى عن عمر رضى الله عنه وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما اشترى عبد ثوبا بدينار أو نصف دينار فحمد الله عليه إلا لم يبلغ ركبتيه حتى يغفر الله له، رواه الحاكم عن عائشة ﴿ وَسَرَابِيلَ ﴾ دروعاً من حديد ومايلبس للحرب ﴿ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ حربكم أو أن يصيبكم السلاح ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كإتمام هذه النعم التى تقدمت أو كما خلق هذه النعم ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يتم نعمته عليكم كما رأيتم أويتم عليكم نعمته بالدين والإتمام هو بعثه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمر بالدين ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ تؤمنون إذا نظرتم فى النعم وفيما يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو تنقادون لحكمه وتخلصون العبادة والألوهية لله سبحانه وتعالى والخطاب لأهل مكة والمضارع فى يتم نعمته للحال وتسلمون للاستقبال. وقرأ ابن عباس تسلمون بفتح التاء واللام من السلامة أى تنجون من العذاب إذا شكرتم وآمنتم أو من الشرك أو تنجون من الجراح بلبس السرابيل التى هى الدروع فى الحرب. وهو المروى عن ابن عباس.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الإيمان بك والنظر فى النعم والآيات

والجواب محذوف أى فلا يضرك إعراضهم أو توليهم . هو مسبب أنيب عنه سببه وهو قوله عز وجل﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ وهو علة لذلك الجواب أى لا يضرك لأنه ليس عليك إلا التبليغ فبلاغ اسم مصدر أو أن يبلغهم منك ما أمرت به فهو مصدر والمبين من إبان اللازم أى البلاغ الواضح أو من إبان المتعدى أى البلاغ الموضح لما أبهم عنهم قبل ذلك منسوخ بالقتال والظاهر أنه ليس المراد فيه النهى عن القتال فضلا عن أن ينسخ به بل المراد به أنك قد قضيت ما عليك فلا يلحقك من تقصيرهم شىء .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ﴾أى نعمه التى عددها فى هذه السورة وغيرها يعترفون بأنها منه (ثُمَّ يُنكِرُونَهَا) بعبادة غير الله سبحانه وتعالى فإن عبادة غيره بمنزلة قولهم أنها ليست من الله سبحانه وتعالى بل يقولون هى شفاعة آلهتنا أو بسبب كذا كقولهم مطرنا بنوء كذا أو ينكرونها بعدم شكرها أو بقولهم ورثنا من آبائنا إذا قيل لهم تصدقوا منها وامتثلوا أمر الله وقيل بقولهم لولا فلان لما كان كذا وقيل نعمة الله بنبوة محمد ورسالته - صلى الله عليه وسلم - يعرفونها بالمعجزات ثم ينكرونها عنادا وثم للتراخى فى الذى هو بمعنى الاستبعاد دلت على أن إنكارهم بعد المعرفة بعيدا فى العقل غريب شبه هذا البعيد بالمهملة

بين فعلين، فعبر عنه بثم الموضوعة لها وإنما يكون قول الإنسان لولا فلان لكان كذا إذا لم يعتقد أنه من الله ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ الجاحدون لرسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وللنعم عناداً وعبر بالأكثر لأن منهم أطفالا ومجانين وناقصى العقل بحيث لا يكلف وذلك على أن الضمير لكفار مكة ومن يتعلق بهم لكن بدون قيد الكفر، كأنه قيل أكثركم أيها الفريق المكى والقرشى أو عبر بالأكثر لأن بعضا فرط فى النظر فلم ينظر أو نظر نظرا ضعيفا فلم يصدق عليه فى اللغة أنه جاحد ولو صدق عليه شرعا أو عبر بالأكثر مريدا به الجاحد المعاند وبعضهم ليس معاندا بالجحود ولو جحد وكفر وقيل أراد بالأكثر لكل كما هو أحد أوجهه فى قوله تعالى بل أكثرهم لا يعلمون .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ أى واذكر يوم نبعث للشهادة أوخوفهم يوم نبعث للشهادة فيوم مفعول به لمحذوف أو يحيق بهم ما يحيق من الذل والعذاب يوم نبعث ويقعون فى أمر عظيم يوم نبعث فيوم ظرف وذلك اليوم يوم قيام الناس من قبورهم والبعث الإقامة من القبر أو من بين الناس فى المحشر أى ويوم نبعث﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يشهد عليها ولها بإيمان من آمن منها وكفر من كفر منها وبالتبليغ وهو

نبيها ويجوز أن يبعث الله شهودا مع الأنبياء من الصالحين قيل إن شهداء
كل أمة يشهدون لرسولها بالتبليغ وكما قال بعض الصحابة إذا رأيت
أحدا على معصية فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيدا عليه يوم القيامة
وإن قلت كيف يقال على الوجه الأول ويوم نبعث من القبر شهيدا
من كل أمة مع إيهام أن الأمة لا تبعث قلت لا إيهام لأن البعث إنما هو
لجزائهم بما عملوا فبعثه دليل على بعثهم ،ولأن السياق وغيره من
الآى نص فى بعثهم ولكن خص بذكر البعث لمزيته ونظم
أمر الشهادة بعده﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى الاعتذار لأنه لا عذر
لهم وفى الكلام أصلا وذلك فى بعض مواطن المحشر ولا اعتذار ولا كلام
يومئذ إلا بإذن وليس كاليوم فتح الله للناس باب الكلام فتحاً كليا
ويجوز أن يراد بعدم الإذن لهم الإشارة إلى أنه لا حجة لهم ولا عذر
وقيل لا يؤذن لهم فى الرجوع إلى الدنيا وقيل لا يؤذن لهم فى معارضة
الشهود معارضة صحيحة فمعارضتهم إن وقعت كلامعارضة لأنهم
يفتضحون فإنهم إذا كذبوا الأنبياء فى التبليغ بعد شهادة الأنبياء عليهم
كذبوهم فتشهد عليهم الشهداء والصلحاء وإن كذبوا الشهداء والصالحين
أقام لهم الله ما يصحح شهادتهم وقيل لا يكذبون الشهود من الأنبياء
والشهداء والصالحين أصلا بل يقرون بما شهدوا به عليه ، وثم للتراخى

منزلة منعهم من الاعتذار والكلام والرجوع إلى الدنيا عن منزلة شهادة من يشهد عليهم يومئذ في العظم فإن منعهم من ذلك أشد إيقاعا فى الهم والغم من الشهادة عليهم لأنه قناط كلى ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾السين والتاء للطلب والعتبى الرضى ،أى لا يطلب منهم أن يوقعوا لله الرضى أى أن يفعلوا ما يرضى بهِ الله عنهم بل يبقيهم فى عدم الرضى عليهم أو العتبى الرجوع إلى ما يرضى به أى لا يطلب ذلك منهم ولا يجدونه ولا يقبل عنهم لأن الآخرة ليست بدار الأعمال بل دار ثواب وعقاب ولا رجوع إلى الدنيا بعد وصول ذلك اليوم أو السين والتاء للتأكيد كأنه قيل ولا هم يعتبون أى لا يكفيهم الله ما عاتبهم الرسل وغيرهم عليه فى الدنيا أو فى الآخرة أيضا بالشهادة عليهم أو ما من شأنه أن يعاتبهم الله عليه ،أو ما عاتبهم عليه عتاب توبيخ وقطع عذر ،يقال أعتبته إذا كفيته ما عقب فيه كما يقال شكوت إليه فأشكانى أى كفانى المهم الذى شكوت إليه به أو السين والتاء باقيتان على الطلب العتبى الغضب والهمزة من أعتب الرباعى للسلب أى لا يطلب منهم إزالة الغضب الواقع عليهم من الله جل جلاله بالتوبة وليس ذلك خارجا فى المعنى عما رجح بعضهم من قول الطبرى أن المعنى لا يعطون الرجوع إلى الدنيا فتقع منهم توبة وعمل﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

كفروا أوظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى ﴿ الْعَذَابَ ﴾ عذاب جهنم ورؤيته المباشرة له ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ أى العذاب والجملة جواب إذا لا كما قيل إن إذا معطوف على يوم بالأوجه السابقة فيه أو يقدر له عامل كعامل يوم لما فى ذلك من إخراجها من الصدر والشرط مطلقا وعن الظرفية إذا جعلت مفعولا به بالعطف على المفعول أو بتقدير عامل ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ يؤخرون عن العذاب بأن يبقوا فى جهنم غير معذبين أو يخرجوا منها، كل ذلك لن يكون وقيل المعنى إذا رأوا العذاب بأعينهم بعد سوقهم إليه أو مجيئه ليخلفهم ولم يمهل عنهم وقيل المعنى لا يردون إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا صالحا.

﴿ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ أى أصنامهم التى يدعون أنها شركاء لله وإضافتها إليهم بعنوان لفظ الشركة للملابسة وكونهم هم المسمين لها بشركاء لله فى العبادة والحرث والأنعام تعالى عن الشركة أو المراد بالشركاء الشياطين فإنها تشاركهم فى الأموال والأولاد، وفى الكفر بحملهم على الكفر يعرف كل إنسان الشيطان الذى كان يضله فى الدنيا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ ﴾ نطلبهم فى قضاء الحوائج أو نعبدهم أو نطيعهم فيما أمر ونابه من المعاصى والكفر وهذا الأخير إذا فسرنا الشركاء بالشياطين ويحتمل أيضا أن يكذبوا

على الأَصنام ،أمرتهم بالشرك والمعاصى فأطاعوها وإنما قالوا ما ذكر الله عنهم حين رأوا شركاءهم اعترافا بخطأهم فى ذلك ولا ينفعهم ذلك الاعتراف أو التماساً بأَن يلقى العذاب على الشركاء كله أجمع ،لأنها المعبودة والآمرة بالعبادة أو المطاعة والآمرة بالطاعة أو المدعوة فى الحوائج والآمرة بالدعاء فيها أو التماساً أن يلقى عليها شطر العذاب لذلك أو أكثره فيخفف عنهم وتذنيبا لها﴿ فَأَلْقَوْا ﴾ أى طرحوا ﴿ إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ الواو فى ألقوا للشركاء فإن كانت الشياطين فظاهر وإن كانت الأَصنام فإن الله سبحانه وتعالى ينطقها ويقدرها على إلقاء القول والهاء فى إليهم للمشركين وهم الذين ظلموا وإنكم لكاذبون مفعول للقول أو لأَلقوا فإن إلقاء القول قول وهو أولى ولا سيما أن إعمال المصدر المقرون بأَل شاذ أى فقالت الأَصنام أو الشركاء إنكم لكاذبون فى قولكم إننا شركاء لله سبحانه وتعالى أو فى قولكم إنكم عبدتمونا حقيقة ،وإنما عبدتم أهواءكم كقوله عز وجل كلا سيكفرون بعبادتهم وقوله تعالى: ماكنتم إيانا تعبدون أو فى قولكم إنا حملناكم على الكفر والمعاصى وألزمناكم إياها كقوله سبحانه وتعالى : وماكان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى، وهذان الوجهان فى الشياطين ولا مانع منه أيضا فى الأَصنام أو تقول الأَصنام إنكم كاذبون

فى ادعائكم إنا أمرناكم بعبادتنا أو بطلبنا أو بطاعتنا ولسنا نتكلم حتى نأمركم وفى مواجهة الأصنام أو الشياطين لهم بذلك ازدياد غم وحسرة وغاية حقارة وذلة وقيل الواو فى ألقوا عائد إلى المشركين والهاء فى إليهم إلى الشركاء أى كاذبون فى الدنيا غارون لنا وعليه فتكون الفاء غير سببية وما ذكرته أولى .

﴿ وَأَلْقَوْا ﴾ أى المشركين وهم الذين ظلموا ﴿ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ الخضوع لله والانقياد لحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا ولم تغن عنهم شيئا من دفع العذاب ولا من رد إلى الدنيا لإقامة حدود الله ﴿ وَضَلَّ ﴾ ضاع وبطل وما ضاع فهو غائب ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن من شركاء وإنهم يشفعون لهم .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ﴾ منعوا الناس ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً ﴾ أى كتبنا لهم عذابا زائداً أو أوقعنا عليهم عذابا زائدا على تنزيل المستقبل بمنزلة الواقع تصوير له ليهاب أو يؤخذ الحذر عنه وذلك العذاب المزيد عقارب وحيات لها أنياب كالنخل الطوال قاله ابن مسعود وقال ابن عباس رضى الله عنهما ومقاتل هو خمسة أنهار من نحاس مذاب كالنار يعذبون فى ثلاثة منها قدر الليل وفى اثنين قدر النهار وقال عبد الله ابن عمر وابن العاص حيات وعقارب فى أسراب

أى على سواحل جهنم إذا فر الكافر إلى الساحل خرجت الحيات والعقارب فيفر إلى النار وتتبعه حتى يحسون حر النار وقال سعيد بن جبير حيات كالنوق العظام وعقارب كالبغال إذا لسعت إحداهن كافرا وجد إحمتها أربعين عاما وقيل الزمهرير يخرجون إليه من النار وهو أشد عليهم حتى أنهم يستغيثون منه بالنار فيرجعون إليها . وقال الحسن يضاعف لهم العذاب من جنس ما هم فيه ﴿ فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ أى عذابا فائقا فى الشدة على العذاب الذى استحقوه بكفرهم أنفسهم ﴿ بِمَا كَانُوا ﴾ ما مصدرية أى بكونهم ﴿ يُفْسِدُونَ ﴾ وإفسادهم هو صدهم الناس عن دين الله .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهو نبيهم فإن نبى كل أمة بعث منهم والأنبياء أعدل الشهود والكلام هنا كالكلام فى ما مر معنى وإعرابا وإنما إعادة تأكيد أوزيادة تهويل ولزيد يذكر قوله من انقسم فإن من كان من نفس المشهود عليه أعرف بحاله فهو أقوى شهادة ليزيد يذكر قوله ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ الكفرة من أُمتك للعقاب والمؤمنين للثواب أو أعاد ذكر ذلك على أن المراد بالشهيد فى أحد الموضعين بنبى كل أمة وفى الآخرة صلحاؤها الذين يشهدون عليها فإذا قلناه فى الموضع الأول إن المراد

الأنبياء وفى الثانى صلحاؤهم كان ذكر قوله وجئناك إلى آخره زيادة على ما أُريد فى الموضع الثانى وإذا عكس ذلك كان ذكره بيانا للشاهد والمشهود عليه فى هذه الأُمة ولك أن تقول المراد فى أحدهما النبى والصالح وفى الآخر أحدهما فقط﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ كلام مستأنف أو حال محكية أى جئنا بك شهيدا عليهم والحال إنا نزلنا عليك القرآن ﴿ تِبْيَانًا ﴾تبيينا﴿ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾من أمر الدين فلايبتغى المرء كفر عذر والجملة الماضية الواقعة حالا إذا كانت مثبتة قيل لابد من قد معها ظاهرة أو مقدرة وقيل تصح بلا قد والتبيان مصدر بين وقيل مصدر بان وأجاز الزجاج فتح تاءه فى غير القرآن وهو الذى يقاس عليه عند من قال بقياس تفعال، والكسر محفوظ فى بعض الأَسماء كهذا وتلقاء وتمساح وإن قلت ليس فى القرآن بيان كل شيء قلت فيه بيان كل شيء إذا أنزل الله سبحانه وأمر فيه رسوله أن يبين للناس ما أنزل فيه كما قال تعالى :وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم فإن بعضا من الدين مفصل فيه وبعضا مفصل فى السنة وبعضا فى القياس وبعضا بالإجماع وكل من القياس والإجماع مأَخوذ من السنة الموكول إليها الأَمر فى القرآن فكأَنهما مأَخوذان من القرآن ﴿ وَهُدًى ﴾من الضلالة هدى تسليم وإرشاد فهو يعم الشقى والسعيد .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾إنعاما به على الفريقين أيضا وحرمان الشقى إنما هو لتقصيره ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾خاصة وقيل رحمة لمن آمن به وهم المسلمون وقيل هدى عصمة للمسلمين ورحمة لهم وبشرى لهم وهذا يتم على كون نزلنا مستأنفة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾الإتيان بالقدر الواجب من الطاعات فإن نقص منه كان النقص جورا وهو ضد العدل والجور الميل عن الحق ﴿ وَالْإِحْسَانِ ﴾التأنق فى الواجب والاجتهاد فى تصفيته والنفل هذا ما ظهر لى فى العدل والإحسان. وقال ابن عيينة العدل استواء السر والعلانية والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته وقيل العدل الإنصاف والمساواة فى الأقوال والأفعال والإحسان أن تعفو عمن ظلمك وتحسن إلى من أساء إليك والمنكر أن تسيء إلى من أحسن إليك وقيل العدل التوسط فى الأمور اعتقادا وعملا وخلقا فالاعتقاد كالتوحيد فإنه متوسط بين جحود الله وإشراك غيره به تعالى ،وكقولنا بأن المخلوق كاسب لأفعاله والله مقدر وخالق لها فإنه متوسط بين القول بأن المخلوق مجبر على فعله والقول بأنه خالق له والعمل كالتعبد بأداء الواجبات وهو متوسط بين البطالة والترهب وهو خروجك عن المباحات كلها إلا القدر الذى لابد منه خوفا من الله جل جلاله وهذا لا يحسن

لهذه الأُمة بل لا يجوز لأَن منها ترك التزوج اللهم إلا إن جاز لمن قدر عليه فى مثل هذا الزمان والخلق كالجود فإنه متوسط بين البخل والإسراف وأما الاحسان فاحسان الطاعات بالعدد كإكثار أعدادها كإكثار النفل وكالتقليل منه والتوسط فإنهما زيادة على الفرض فكانا إحسانا من حيث أنهما مزيدان على الواجب وإحسان للطاعة بحسب الإتيان بها على الوجه الأَكمل كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك والآية دليل على أن النفل مأمور به لكن أمر ندب والمراد مطلق الأَمر فى الآية لا يقيد وجوبه ولا يقيد عدمه فلا يلزم استعمال الكلمة فى معنييها أو حقيقتها ومجازها وهو لفظ يأْمر وإنما علق الأَمر بالفرض والنفل معا المعبر عنهما بالعدل والإحسان لأَن الفرض لابد أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب ولذلك قال الربيع عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد بلغنى عن طلحة ابن عبيد الله جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى إذا دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمس صلوات فى اليوم والليلة قال هل غيرهن ؟قال: لا إلا أن تطوع فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصيام شهر رمضان ثم قال هل على

غيره؟ قال: لا إلا أن تطوع ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والزكاة
قال: هل على غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع. فأدبر الرجل وهو يقول والله
لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ
أفلح الرجل إن صدق. فقيد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط
وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ استقيموا ولن تحصوا أى لن تطيقوا حق
الفرض فما ينبغى أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل. وعن
ابن عباس رضى الله عنهما العدل التوحيد والإحسان أداء الفرائض
وعنه الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب
لنفسك إن كان مؤمنا تحب أن يزداد إيمانا وإن كان كافراً تحب أن
يكون أخاك فى الإسلام وعنه الإحسان الإخلاص وقيل العدل الإنصاف
والإنصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بإنعامه والإحسان أن تحسن
إلى من أساء إليك، وقيل العدل فى الفعل والإحسان فى القول فلا تفعل
إلا ماهو عدل ولا تقل إلا ما هو حسن ﴿ وَإِيتاءِ ذى الْقُرْبَى ﴾ أى وإعطاء
ذى القربى حقه وما يحتاج إليه والمراد صلة الرحم القريبة والبعيدة
تصلها بمالك وإن لم يكن فدعاء حسن وتودد بالقول والإعانة قال
الحسن حق الرحم أن لا تحرمها ولا تهجر. وذكر بعض أنه كان يقال
إن لم يكن لك ما تعطيه فامش إليه برجلك وعن رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم - أن الرحم معلق بالعرش وليس الواصل بالمكافىء ولكن من إذا انقطعت رحمه وصلها . والقربى مصدر يعنى القرابة وألفه للتأنيث وعطف إيتاء ذى القربى على ماقبله عطف خاص على عام لتأكيد ذلك الخاص ،وحذف المفعول الثانى لإيتاء للتعميم ،أى إيتاء ذى القربى حقه أو ما يحتاج إليه كما مر ،وهذا على تضمين الإيتاء معنى الأخطاء وإما على إبقائه على معناه من أنه جعل الشىء إيتاء كذا وبالغا إياد فالمحذوف المقدر هو المفعول الأول ، وعلى كل حال فالمفعول الآخر بفتح الخاء هو ذى أضيف إليه المصدر﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ المبالغة فى اتباع الشهوة وذلك فعل المعصية التى هى أكبر كبار الذنوب كالزنى وقتل الإنسان المحرم القتل والبهتان وأما المبالغة فى الشهوة المباحة فلا تسمى فحشاء وكذا فعل المعاصى الصغار والكبار التى ليست بأكبر لا يسمى فحشاء إلا إن أكثر منها ،ولو كان كل ذلك محرما معاقبا عليه والمبالغة فى الشهوة إذا كانت حراما هى أقبح أحوال الإنسان وأشنعها وقيل الفحشاء كل ما قبح من قول وفعل . وقال ابن عباس الزنى﴿ وَالْمُنكَرِ ﴾ مالا يعرف فى الشريعة ولا فى السنة فالعقول السليمة يكون عندها غير مألوف وتنفر منه. وعن ابن عباس هو الشرك وقيل الكذب وقيل ما ينكر على متعاطيه فى إثارة القوة الغضبية

وما ذكرته أولى فعطفه عطف عام على خاص على ما ذكرته وهو شامل للصغيرة فإنها منكر ﴿ وَالْبَغْيِ ﴾ الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم وهى الشيطنة التى هى مقتضى القوة الوهمية فإن المخلوق ضعيف ولا سيما الإنسان،والقوة التى يعتقدها التوهم فقد يقع منها بعض وقد لا يقع قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم ، رواه الشيخ هود وأحمد والبخارى فى الأدب ، وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أبى بكرة زاد الطبرانى عنه فى كبيره والكذب وإن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم حتى أن أهل البيت ليكونون فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا . وعن مجاهد عن ابن عباس لو أن جبلا بغى على جبل لدك الباغى منهما ، وروى ابن لآل عن أبى هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو بغى جبل على جبل لدك الباغى منهما والبغى يكون فى البدن والمال والعرض،وعطفه عطف خاص على عام لزيادة التغير عنه ولا يوجد شر من الإنسان إلا تولد من أحد الثلاثة : الفحشاء والمنكر والبغى ، ولذلك قال ابن مسعود : هذه الآية أجمع آية فى القرآن للخير والشر وقيل البغى الشرك والظلم . قال ابن عيينة:

الفحشاء المنكر والبغى أن تكون علانيته أحسن من سريرته ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ يأمركم وينهاكم ويميز لكم بين الخير والشر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون وكانت هذه الآية أن الله يأمر بالعدل الخ ، سبب إسلام عثمان بن مظعون حين سمعها رضى الله عنه ، وروى أنه لما آمن قالها على أبى طالب فعجب أبو طالب وقال : يا آل غالب يعنى قريشاً اتبعوه تفلحوا فوالله أن الله أرسله ليأمر بمكارم الأخلاق ، وروى عكرمة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالها على الوليد بن المغيرة فقال له : يا ابن أخى أعد على فأعادها . فقال له الوليد : والله إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه بمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر . قال القاضى ما معناه إنه ما من شىء يحتاج الناس إليه فى أمر دينهم مما يجب أن يؤتى أو يترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية ولذلك أوردت عقب قوله تعالى : ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء ،ولو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شىء وهدى ورحمة للعالمين وكان على بن أبى طالب يلعن على المنابر ولما انقضت دولة لاعنيه وزالت أقيمت هذه الآية على المنابر مقام اللعنة .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ ﴾ ماجعله الإنسان على نفسه من طاعة أو أمر مباح عقده على نفسه لأحد قصد به التقرب فيدخل فى الطاعة أو لم يقصد

الطاعة وكل من الطاعة والمباح ينسبان لله عز وجل إذ لم يمنعهما بخلاف ولذا أضافهما الله بخلاف المعصية والمباح المقصود به ما لا يجوز فلا يجوز الإيفاء بهما ،وقيل عهد الله مبايعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الإسلام لقوله سبحانه وتعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » ويدخل به كل مبايعة للإمام العدل والقائم بأمر الإسلام على الأمر الدينى وقيل العهد الإيمان بالله تعالى الذى عاهدوا الله عليه إذ كانوا ذرا وقيل النذر وقيل اليمين وإن كفارته كفارة يمين وقيل مغلظة وإنما يجب الوفاء به إذا كان صلاحاً أما إذا كان فساداً دينياً أو دنيوياً فيجب عليه تركه ولا تلزمه الكفارة وقيل تلزمه وإن لم يكن كذلك،لكنه ظهر له ما هو خير منه فليتركه ويفعل ما هو خير منه ويكفر يمينه وعلى هذا يكون تخصيص العهد بذلك من تخصيص الكتاب بالكتاب لأنه قد نهى فى جل القرآن على المعاصى فلا يتوهم أحد أنه يجوز أو يجب الوفاء بعهد المعصية وأما إذا ظهر ما هو خير منه فتخصيص بالسنة ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه ، رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة ومثله عنه للربيع عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد وقيل أيضاً فى اليمين على المعصية

أنه مخصوص من إطلاق الوفى فى الآية بالسنة ، وقد يقال إن التخصيص فى الآية نفسها لإضافة العهد لله وعهد المعصية لا يضاف إليه تعالى اللهم إلا أن يقال إنه يضاف إليه من حيث أنه يحلف به الحالف وأوفيها ، وقيل العهد حلف الجاهلية قال : صلى الله عليه وسلم — كل حلف فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة . وقيل كل ما وجب على الإنسان من الفرائض ويرده قوله تعالى :﴿ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ لأن ما وجب عليه لا يشترط فيه معاهدته بل لزمه فعله عاهد أو لم يعاهد لكنه يصح أن يقال إذا دخلتم فى الدين فدوموا فيه ولا تخرجوا منه ولا من جزء آياته فيصح معنى الآية ولو فسر بذلك القول : ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ ﴾ جمع يمين وهو الحلف .﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ أى توثيقها بالله وتشديدها والمراد مطلق اليمين أو يمين البيعة ونقضها تركها والحنث فيها وهذا يشير إلى أن العهد غير اليمين وإلا كان هذا تأكيداً لذاك وتأسيس أولى من التأكيد ووكد وأكد نعتان،الأصل الواو والهمزة بدل منها . ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ مشاهداً على يمينكم وعهدكم فإن الكفيل مراع الحال المكفول به رقيب عليه ومعنى جعلهم إياه كفيلا حلفهم به ومعاهدتهم به والجملة حال من واو أوفوا أو واو وتنقضوا وقيل جعلتم الله كفيلا لكم بالجنة إن تمسكتم بعهده الذى هو

دينه وباليمين عليه ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فى نقض اليمين والعهد وفى غيره وذلك تهديد لهم .

﴿ وَلَا تَكُونُوا ﴾فى نقض العهد واليمين .﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ أى مغزولها فهو مصدر بمعنى اسم مفعول والمراد ضرب المثل لناقض العهد واليمين بأن نقضه لهما كنقض امرأة ما غزلته لو فرضنا أن امرأة غزلت فنقضت غزلها وذلك أنها لم تكف عن الغزل ولما غزلت لم تبق الغزل بحاله بل نقضته ، فنهاهم عن نقض العهد الشبيه بذلك . وقال لزمخشرى قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن . ا . هـ . وهو قول الكلبى ومقاتل وذكر أنها من قريش وأن سعد المذكور هو ابن كعب بن زيد مناة بن تيم فالزمخشرى إنما نسبه إلى جده الثانى والخرقاء الحمقاء وهى قليلة العقل وذكر أنها تغزل الصوف أو الوبر أو الشعر هى وجواريها وأن نقض ما غزلت هو دأبها تغزل هى وهن وتأمر بنقض الكل ، وقيل امرأة حمقاء من أهل مكة تغزل طول يومها ثم تنقضه ، وروى أنها تغزل الشعر ، ﴿ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أى من بعد إحكام وإبرام متعلق بنقضت . ﴿ أَنكَاثًا ﴾بفتح الهمزة جمع

نكث وهو ما ينكث أى يحل من طاقات الجبل أو الغزل بعد الإبرام وهو حال من غزلها أو مفعول ثان لنقضت على تضمينه معنى صيرت ﴿ تَتَّخِذُونَ ﴾حال من الواو فى ولا تكونوا أو من الضمير المستتر فى قوله كالتى أو خبر ثان المكون أى لا تكونوا ثابتين كهذه المرأة متخذين ،﴿ أيْمَانُكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ فساداً وهو الخيانة والخديعة بنقض العهد واليمين،وأصل الدخل ما يدخل فى الشىء وليس منه أريد به هنا ما يدخل العهد واليمين على سبيل الإفساد وقيل هو إظهار الوفاء وإبطال النقض ولا يصح فى تفسير الآية به إلا على الزيادة على التشبيه فإن تلك المرأة لاتبطن فى حال الاشتغال بالغزل أن تنقضه بل يبدو لها إلا أن ينزل ما يبدو لها من النقض منزلة نقض أبطنته من حيث إن مآلها النقض أو أريد الإبطان الحادث المتصل بالنقض أو كانت تبطن ذلك من أول الأمر ، وقال أبو عبيدة كل ما لم يكن صحيحاً فهو دخل ﴿ أن تَكُونَ ﴾أى بأن تكون أو لأن تكون متعلق بتتخذون أو بلا تكونوا و بلا تنقضوا ، ﴿ أُمَّةٌ ﴾جماعة﴿ هِيَ أَرْبَى ﴾ أزيد وأكثر ، ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ كانوا يعاهدون قوماً ويتحالفون معه على السلم والعافية وإذا رأوا قوماً أكثروا عظم قوة من ذلك القوم حالفوهم وعاهدوهم وتركوا الأول فإن حاربوا الأول حاربوا معهم وذلك واقع فى قريش يتركون

من عاهدوه وحالفوه وينتقلون إلى من هو عدوه إذا كان أكثر وأقوى وواقع إليهم بترك غيرهم من حالفه وعاهده وينتقل إليهم لقوتهم وكثرتهم وواقع فيما بينهم وكذا غيرهم .﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ أى يختبركم بكون أمة أربى من أمة لينظر أمتمسكون بالوفاء بالعهد واليمين فى بيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعهدها أم تغترون بكثرة قريش وقوتهم وقلة المؤمنين وضعفهم فالهاء عائدة على مصدر تكون من قوله أن تكون سواء جعلناها تامة وهى أربى نعت أمة أو غير تامة وهى أربى خبر لأن التحقيق أن الناقصة مصدر كالتامة وقيل الهاء عائدة إلى الرباء المفهوم من أربى وهو زيادة أمة على أخرى وقيل إلى الأمر بالوفاء .﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بياناً يتصل به الثواب للمسك والعقاب للناقض ﴿ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا من أمر العهد وغيره ككفر وإيمان .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى متحدة الدين متفقة وهو دين الإسلام بتوفيق الجميع إليه ولكن اقتضت حكمته أن يوفق بعضاً ويخذل بعضاً أو بالإلجاء والجبر عليه ولكن اقتضت حكمته أن بعضاً يعصى باختياره وبعضاً يطيع باختياره ليعاقب ويثيب كما قال ، ﴿ وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ أى يخذله أى لا يوافقه فيعصى

باختياره بعد أن يبين له وليس ذلك جبراً تعالى عنه ﴿ وَيَهْدِى ﴾ يوفق ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ ولا يسأل عما يفعل ، ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يوم القيامة سؤال تبكيت ومجازاة ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر النهى عن اتخاذ الإيمان دخلا تأكيدا عليهم ومبالغة فى تقبيح ذلك وتعظيم أمره ولكن بين النهيين مخالفة فالأول بالتضمين والعرض لأنه ذكر اتخاذ الايمان دخلا فى الكلام الأول بعبارة تجعل حالا مما تسلط عليه النهى كما مر والثانى بالتصريح والذات لإدخال ذات النهى على مادة الاتخاذ وذلك من باب الترقى فمن لم ينتبه بالأول تنبه بالثانى ومن تنبه به ازداد بالثانى ورسخ فيه وقيل الأول فى نقض مطلق العهد والإيمان والثانى فى نقض بيعة الإسلام بعد الدخول فيه والسياق اللاحق أنسب به وهو زلل التمدم بعد الثبوت وذوق السواء بالصد عن سبيل الله عز وجل وثبوت العذاب العظيم كما قال . ﴿ فَتَزِلَّ ﴾ تزلق ﴿ قَدَمٌ ﴾ عن طريقة الإسلام الواضحة والمراد فتزل أقدامكم بالجمع والتعريف بالإضافة ولكن أفرد ونكر للدلالة على أن زلل قدم واحدة عظيم فكيف بزلق قدمى الإنسان معاً أو على أن من زلقت له قدم واحدة لا ينتفع بالأخرى فى نفس ذلك الزلق فكيف يزلق قدمين أو على أن هلاك الإنسان واحد

أمر عظيم فكيف بجمع عظيم . ﴿ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ على طريقة الإسلام الواضحة شبه الخروج إلى النفاق والشرك عن الإسلام بزلق القدم فى نحو الأَرض المبتلة التى تزلق الأَقدام والعرب تقول لمن وقع فى بلاء بعد عافية زلت قدمه ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾ وقرئ بفتح السين وإسكان الواو حياً أى العذاب فى الدنيا بالقتل والسلب والغنيمة ، ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ ﴾ ما مصدرية أى بصدكم أى بإعراضكم وبمنعكم غيركم ﴿ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ الذى هو الإسلام أو الوفاء بالعهد والإيمان ومن نقض عهد الإسلام فقد جعل النقض سنة لغيره ﴿ وَلَكُمْ ﴾ فى الآخرة ، ﴿ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ على زلل القدم زين الشيطان نعوذ بالله منه لقوم أسلموا بمكة أن ينقضوا عهد الإسلام لجزعهم من غلبة قريش واستضعاف المسلمين وإيذائهم ولما يعدهم قريش على النقض ويوعدونهم على الوفاء فثبتهم الله عز وجل بذلك والله أعلم . قدم وفد كنده وحضرموت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فبايعوه على الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولم يهاجروا فيما قيل ولعله قبل نزول فرض الهجرة لما ظهر أن المراد لم يهاجروا من بلادهم ثم إن رجلا من حضرموت قام فتعلق برجل من كندة يقال له امرؤ القيس . فقال يارسول الله : إن هذا جاورنى فى أرضى فقطع طائفة منها فأدخلها فى أرضه . فقال له رسول الله – صلى الله

عليه وسلم ـ هل لك بينة على ما تزعم . فقال له : القوم كلهم يعلمون أنى صادق وأنه كاذب ولكنه أكرم عندهم عنى . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا امرؤ القيس ما يقول هذا . قال : ما يقول إلا الباطل . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقم فاحلف بالله الذى لا إله إلا هو ، ما له قبلك شىء مما يقال وإنه لكاذب فيما يقول . قال : نعم . قال الحضرمى : يارسول الله إنه رجل فاجر لا يبالى بما حلف عليه . فقال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه من قطع مال رجل مسلم بيمين كاذبة أتى الله وهو عليه ساخط .فقام امرؤ القيس يحلف فنزل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ﴾أى بالحلف بالله جل جلاله ،﴿ ثَمَنًا ﴾ عرضاً محرما من الدنيا وسماه ثمناً لأنه يكون فى الجملة ثمناً وأشار به إلى الأرض التى اقتطعها امرؤ القيس إشارة وشمل غيرها وفى الآية دلالة على أن كل ثمن يصح تسميته مثمناً من حيث أنه أطلق فى الآية الشراء عليه .﴿ قلِيلاً ﴾ أشار إلى أن الدنيا كلها قيل فأيا ما اشترى أحد منها بالعهد فقد اشترى قليلا ولو عظم فى العيون القلوب ، ﴿ إِنَّمَا عِندَ اللهِ ﴾من الخير فى الآخرة لمن اتقى الله وفى الدنيا ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ مما تتوصلون إليه باليمين أو غيرها وهو حرام ، ﴿ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ تميزون المصالح من المضار وفضل ما بين العوضين .

﴿ مَا عِندَكُمْ ﴾من أموال الدنيا . ﴿ يَنفَدُ ﴾ ينقضى .﴿ وَمَا عِندَ اللهِ ﴾ فى الآخرة ،﴿ بَاقٍ ﴾ لا ينقضى أو ما عنده فى الدنيا باق بمعنى أن خزائنه لا تنفد والجملتان تعليل للحكم السابق ، ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على طاعة الله والمصائب من ضيق العيش وغيره وعن المعاصى وقرأ أبو كثير وعاصم بالنون وكذا روى النقاش عن الأخفش عن ابن ذكوان قال أبو عمرو الدانى هو وهم لأن الأخفش ذكر ذلك عنه فى كتابه بالياء﴿ أَجْرَهُم ﴾ مفعول ثان على تقدير الباء أو تضمين يجزى معنى يوفى أو يعطى﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بحسنه ويعفو عن قبيحه أو يجزيه بأحسنه الذى يكون جزاؤه أعظم شىء فكيف لا يجازيه بحسنه الذى هو دون ذلك فى الجزاء أو يجازيه على حسناته كلها بجزاء أحسنها قيل أو بجزاء أحسن من أعمالهم فقام الأشعث بن قيس فأخذ بمنكب امرىء القيس فقال ويلك يا امرؤ القيس إنه قد نزلت آيتان فيك وفى صاحبك خيرهما له والأُخرى لك وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قطع مال رجل مسلم بيمين كاذبة لقى الله وهو عليه ساخط ، فأقبل امرؤ القيس فقال : يارسول الله ما أنزل فى ؟ فتلا عليه الآيتين، فقال امرؤ القيس : أما ما عندى فينفد، وأما صاحبى فيجازى بأحسن ما كان يعمل ، اللهم إنه لصادق فإنى أشهد الله أنه صادق ولكنى والله ما أدرى ما بلغ ما يدعى من أرضه فى أرضى

قد أصبتها منذ زمان فله ما أدعى فى أرضى ومثله معه فنزل قوله تعالى :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ يتناول الذكر والأُنثى وإنما ذكرها بقوله : ﴿ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ دفعاً لتخصيص الذكر لأَنه المطابق للفظ ومبالغة فى تقرير الوعد وتعميمه ، ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مخرج للكافر فإنه لا يثاب على عمله الصالح فى الآخرة بل فى الدنيا فقط ويخفف عنه العذاب به فى الآخرة بعض تخفيف فيما قيل فدركات الكفار مختلفة كما روى قومنا من تخفيف عذاب أى طلب بالنسبة إلى غيره أنه فى النار إلى كعبه أو أن نعليه من نار أوأن تحت رجليه جمرتين . وروى أنأبا لهب أثيب بأَن يسقى فى النار بنقرة الأَبهم لعتقه أمة لما بشر بولادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولعل مثل هذه الإثابة للمشرك مختصة به - صلى الله عليه وسلم - ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرطولنحيينه جواب قسم محذوف والقسم وجوابه جواب الشرط أى فو الله لنحيينه ﴿ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ فى الدنيا بالقناعة وذهاب ضيق الصدر وبالرزق الحلال كثيراً وقل ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ ﴾ فى الآخرة عطف على لنحيينه واختار أبو حبان أنه جواب قسم مقدر والقسم المقدر وجوابه معطوفان على القسم المقدر وجوابه لأَنه بالياء التفاتاً ونحيينه بالنون وقرأ عاصم

وابن كثير ولنجزينه بالنون أيضاً ﴿ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾
فقال امرؤ القيس : إلى هذه يارسول الله ، فكبر وحمد الله وشكره ،
وقيل إن الآيات الثلاث متصلات بما قبلهن من النهى عن نقض العهد
واليمين على العموم أى لا تشتروا بنقض عهد الله أو لا تستبدلوا
بعهد الله ثمناً قليلا ، مثل ما كانت قريش تعده لمن نقض بيعة رسول
الله – صلى الله عليه وسلم – إنما عند الله من نصر وتغنيم فى الدنيا وثواب
فى الآخرة خير لكم مما تعده على النقض وعرض الدنيا فإن بأسره
وليجزين الله من صبر على أذى الكفار ومشاق التكليف. قال سعيد بن
جبير ، وعطاء وابن عباس فى رواية عنه : الحياة الطيبة الرزق الحلال ،
وقال الحسن وعلى بن أبى طالب : القناعة ، وقال مجاهد وقتادة :
حياة الجنة ، ورواه عوف عن الحسن ، وقال: لاتطيب حياة إلا فيها
غنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلاك وسعادة بلا شقاوة ،
وقال السدى: حياة القبر ، لأن المؤمن يستريح فيه من نكد الدنيا ،
وقال مقاتل : العيش فى الطاعة ،وقيل :حلاوة الطاعة والتوفيق فى قلبه،
وقيل رزق يوم بيوم ، واعلم أن طيب حياة الصالحين إنما هو بنشاط
نفوسهم ونبلهم وقوة رجائهم ، والرجاء للنفس أمر ملذ،فبهذا طابت
حياتهم وأنهم احتقروا الدنيا فزالت همومها عنهم ولو كانوا فقراء

لرضاهم بالقسم وقناعتهم ورجاؤهم ثواب الآخرة فإن كانوا أغنياء زاد طيب إلى طيب ،بخلاف الكافر فإنه لا يرجو ثواب الآخرة ، ولا يرضى بالقسم فإن كان غنياً لم يتركه حرصه أن يتهنا بعيشه ، وإن كان فقيراً ازداد تنغصاً إلى تنغص ، روى أحمد والحاكم عن أبى موسى الأشعرى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ولما كانت القراءة من العمل الصالح بل أعظمه ،ذكرهاعقب ذكر العمل الصالح وذكر الاستعاذة عقبه أيضاً ، بذلك ولتسلم القراءة من الوساوس بأن أمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يسأل الله أن يمنعه من وسواس الشيطان وذلك السؤال هو معنى الاستعاذة فقال :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾إذا أردت قراءته فعبر بالقراءة عن إرادتها لأن إرادتها سبب لها وملزومة لها . هذا مذهبنا ومذهب الجمهور فى الاستعاذة من أنها قبل القراءة متصلة بها غير مفعول له ؛ فذلك كقوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة » أى إذا أردتم القيام إليها ، وكقولهم : إذا أكلت فقل بسم الله ، وإذا سافرت فتأهب ، أى إذا أردت الأكل وإذا أردت السفر ،وذلك مذهب أكثر الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة وفقهاء الأمصار وذلك أن الوسوسة تحصل فى أثناء القراءة فتقدم على

القراءة لتذهب الوسوسة فلا تؤخر عن وقت الحاجة وسواء كان ذلك في الصلاة أو غيرها ، وقال أبو هريرة وجماعة من الصحابة والتابعين : إن الاستعاذة بعد القراءة فى الصلاة وغيرها ، وهو قول مالك وجماعة وداود الظاهرى فى أحد قوليه وابن سيرين فى إحدى الروايتين عنه والنخعى لأن قارئ القرآن يستحق ثواباً عظيماً ، وربما حصلت الوسوسة فى قلبه هل حصل ذلك الثواب أم لا ، فإذا استعاذ اندفعت وخلص الثواب ولظاهر الآية وحجة الجمهور ما روى عن ابى سعيد الخدرى ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا قام إلى الصلاة بالليل كبر ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك . ثم يقول : الله أكبر كبيرا ، ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزة ونفخه ونفثه ، أخرجه الترمذى . وقال : الحديث أشهر حديث فى الباب وتكلم فى بعض رجاله ، وقال أحمد : لا يصح . ولا أبى داود والنسائى عن أبى سعيد نحوه لكن قد نهاه جبريل عن هذا التعوذ ، فقال : قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وأخرج أبو داود عن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصلى صلاة . قال عمر : ولا أدرى أى صلاة هى . قال : الله أكبر كبيرا ثلاثاً ، والحمد لله كثيراً ثلاثاً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثاً ،

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه ، قال عمر : نفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه المؤتة أى الجنون وهمزه وسوسته فى الصلاة ونفحه إلقاء الشبه فى الصلاة ليقطعها ، وقيل إذا قرأ الآية الأولى استعاذ والخطاب للنبى – صلى الله عليه وسلم – ويلتحق به غيره من أمته لأنها مخاطبة بما خوطب به إلا ما قام دليله ،ولأنه إذا احتاج إلى الاستعاذة فغيره أحق بها . ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أى قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كما هو المتبادر من لفظ الآية فأعوذ طلب للإعاذة كما أن استعذ بمعنى اطلب الإعاذة فإن العين والتاء زائدتان للطلب ،ولفظ أعوذ خبر ومعناه دعاء وطلب وقولك بالله من الشيطان الرجيم مذكور بلفظه فى الآية وكذلك قال صاحب الدرر اللوامع : وغير ما فى النحل لا يختار فجعل قولك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنه مذكور فى هذه السورة بلفظه ، وقيل أعوذ مأخوذ من قوله تعالى : وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وبالله من الشيطان الرجيم مأخوذ من آية النحل هذه وكذلك مذهبنا ومذهب الشافعى وأبى حنيفة لفظا الآية ، وحديث مطعم بن جبير المذكور ، روى أنه – صلى الله عليه وسلم – قال عند جبريل : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فنهاه من ذلك ، وقال له الذى أخذته من اللوح المحفوظ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا الذى نهاه عنه هو تعوذ النكار تمسكوا لجهلهم عما هو منسوخ منهى عنه ،وروى أنه أول ما نزل جبريل على نبينا عليهما السلام ، قال له : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . فقال له : ثم قال له : قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيه دليل أيضاً على تقدم التعوذ على القراءة وكان بعض المقرئين يقول : أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد ، وعن عبد الله ابن مسعود قرأت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . فقال لى : يا ابن أم عبد قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا اقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ ،وروى عن اللوح المحفوظ عن القلم وهو أظهر . وكان جماعة من السلف يتعوذون كتعوذ النكار المنهى عنه وعن حمزة أستعيذ ونستعيذ واستعذت واختاره صاحب الهداية من الحنفية لمطابقة القرآن فى السين والتاء مع الإفراد ولكن أستعيذ مثله وعن حميد بن قيس أعوذ بالله القادر من الشيطان الغادر . وعن أبى السماك أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوى وعن قوم أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم وعن آخرين منهم أحمد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أنه هو السميع العليم ، وبه قال الثورى والأوزاعى جمعاً بين هذه الآية ، وقوله فاستعذ بالله أنه هو

السميع العليم ولحديث أبي سعيد المذكور وبذلك تمسك أيضاً أحمد فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وروى نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة وجهر به جهراً . وروى أنه أول ما نزل جبريل قال : قل يامحمد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . فقال : ثم قال : قل بسم الله الرحمن الرحيم ، اقرأ باسم ربك الذي خلق . . الخ . وقيل : يقال أعوذ بالله وكلماته من الشيطان وهمزاته ، وقيل : أعوذ بالله بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، وفيها ألفاظ أخر . قال الحلواني في جامعه : ليس للاستعاذة حد ينتهي إليه من شاء زاد ، ومن شاء نقص ، والمختار عند أئمة القراء الجهر بها ، وقيل يسر بها مطلقاً ، وقيل يسر بها فيما عدا الفاتحة وأطلقوا اختيار الجهر وقيده أبو شامة بقيد لابد منه ، وهو أن يكون بحضرة من يسمعه ، قال : لأن الجهر بالتعوذ إظهار شعار القراءة كالجهر بالتلبية وتكبيرات العيد ، ومن فوائده أن السامع ينصت للقراءة من أولها لا يفوته منها شيء ، وإذا خفي التعوذ لم يعلم السامع بها إلا بعد أن فاته من المقروء شيء وهذا المعنى هو الفارق بين القراءة في الصلاة وخارجها ، والجمهور على أن المراد بإخفائها التلفظ مع إسماع النفس فقط .

وقيل الذكر في القلب بلا تلفظ وإذا قطع القراءة إعراضاً أو تلقينا
أوبكلام أجنبي ولو رد السلام استأنفها أو يتعلق بالقراءة فلا ولايكفي
استعاذة واحد عن غيره من واحد أو جماعة لأن المقصود اعتصام القارىء
والتجاؤه بالله من الشيطان الرجيم فلا يكفي تعوذ أحد عن أحد . ذكر ذلك
ابن الجزرى . قال النووى : لو مر القارىء على قوم فسلم عليهم وعاد
إلى القراءة حسن أن يعيد التعوذ ومذهبنا الجهر بها إن قرأها في غير
الصلاة قدر ما يسمع من يليه أو أكثر بلا مبالغة في الجهر وفيما قبيل
تكبيرة الإحرام قدر ما يسمع من يليه أو قدر ما يسمع نفسه فقط
بلا فساد صلاة إن صدر منه الجهر أكثر من ذلك لعدم الدخول فيهما
وإن استعاذ بعد الدخول تلفظ بها وأسمع نفسه فقط وقيل يتلفظ
ولا يسمع نفسه وفي النقض إن جاوز ذلك خلاف ، وإن تلفظ بها في
غير الصلاة ولم يسمع نفسه أجزأه أيضاً ولا يجزيه إن لم يتلفظها
واقتصر على قلبه . وروى إسحاق والمسيب عن نافع أنه يخفيها في جميع
القرآن . وروى سليم عن حمزة أخفاؤها في جميعه إلا الفاتحة فيجهر
بها أو لها . وروى عنه خالد جواز الإسرار والجهر ووجه الإخفاء أن لا يظن
أنها من القرآن والفرق بين ما جلس إليه وما لم يجلس إليه ووجه
الجهر أنه قد يثبت أنه ليس من القرآن بالإجماع وهو دعاء والدعاء

يجوز إسراره وإجهاره . قال الله تعالى : ادعوا ربكم تضرعاً . قيل : برفع صوت وخفته أى بإسرار ، وأجمع العلماء أن نحو قول أحد : أعوذ باللهمن الشيطان الرجيم ليس آية من القرآن .بل الأمربه من القرآن والاستعاذة عندنا واجبة فى الصلاة وغيرها ويجوز وصل التعوذ والبسملة والسورة وقطعهن وقطع التعوذ وحده ووصل البسملة مع قطعهما عن السورة وكذا قال قوم : وهو الصحيح لظاهر الأمر فى الآية ولا تعوذ إلا فى قراءة الركعة الأولى عندنا ، وعند الشافعى وأبى حنيفة ذهابا إلى أن قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة . وقال ابن سيرين والنخعى وقوم :يتعوذ فى كل ركعة وهو المتبادر من ظاهر الآية لأن الحكم المرتب على شرط يتكرر بتكرر الشرط قياساً ،فكلماتكررت إرادة القراءة تكررت الاستعاذة وذلك للفصل بين قراءة الركعتين بما ليس متعلقا بالقراءة ، وقال الجمهور : الاستعاذة مستحبة فى الصلاة وغيرها واجبة وكان مالك لا يرى التعوذ فى الصلاة المفروضة وقرأه فى قيام رمضان وكان غير حافظ عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه تعوذ فى صلاة ومعنى أعوذ بالله أعتصم به فالاستعاذة تطهير القلب عن كل ما يشغل عن الله وأقرار بالعجز والضعف واعتراف بقدرة البارىء عز وجل وأنه الغنى القادر على دفع المضرات واعترافا بعداوة إبليس وكل شيطان والمزاد

بالشيطان كل الشيطان لا إبليس فقط والشيطان عند الحذاق فيعال من شطن إذا بعد لأنه بعيد من الخير والرحمة أو من شطن إذا خالف أمر الله جل وعلا ،فلو سمى أحد شيطان بدون ال لصرف الإمالة النون وقيل فعلان من شاط يشيط فلو سمى به لمنع الصرف فلزيادة الألف والنون والعلمية ،والرجيم فعيل بمعنى فاعل لأنه يرجم الناس بالوسوسة أو الشر أو بمعنى مفعول لأنه مرجوم بالشهب عند استراق السمع ،وقيل مرجوم بالعذاب . وقيل بالشتم كما قيل فى قوله تعالى : « لئن لم تنته لأرجمنك» وقيل مطرود على الرحمة والخير ومنازل الملأ الأعلى ولما كان الأمر بالاستعاذة ربما توهم متوهم منه أن للشيطان ولاية على أولياء الله نفى ذلك بقوله :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط وهو الولاية والرياسة وهذه الجملة تعليلية . ﴿ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ عطف على آمنوا أى ليس له سلطان على الذين هم آمنوا ويتوكلون على ربهم أى على الجامعين بين الإيمان والتوكل فإنهم لا يطيعونه ولا يقبلون وساوسه إلا على ندور وغفلة فأمروا بأن يدفعوا مايعرض لهم منه بالاستعاذة .

وقال سفيان بن عيينة ليس له سلطان أن يحملهم على ذنب لا يغفر .

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ ﴾رياسته النافذة أو حمله على ذنب لا يغمر من غير أن يستطيع وإكراههم ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾يتخذونه ولياً أو يلونه بالحب والطاعة وهم المنافقون المنهمكون فى معصية الله سواء أسروا الشرك أم لا . ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾أى مشركون بسبب الشيطان أو مشركون بالله غيرد فالضمير عائد إلى الشيطان وإلى الله جل جلاله ، والوجه الأول هو المتبادر ويحتمل أن يريد بالذين يتولونه والذين هم به مشركون فريقاً واحداً وهم المشركون كأنه قيل إنما سلطانه على الذين جمعوا بين توليه والإشراك به ويحتمل أن يريد بالسلطان الحجة أى لا حجة له على المؤمنين المتوكلين يوم القيامة بعصيانهم إياه إنما حجته على متوليه والمشركين وهى أنه دعاهم بغير دليل فأجابوه .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ﴾بالنسخ فجعلنا آية ناسخة مكان آية منسوخة لفظاً أو حكماً أو قيماً ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾جملة معترضة بين الشرط والجواب وهو قالوا توبيخاً للكفار على قولهم وتقريعاً عليهم وتنبيها على فساد قولهم أو حال من الضمير فى بدلنا

على طريق الالتفات من التكلم للغيبة والمعنى وإذا نسخنا آية بآية ونحن أعلم بما ننزل من المصالح من نسخ آية بأُخرى وغيره، بحسب الحوادث بالشىء مصلحة أمس مفسدة اليوم فينسخه اليوم، ورب شىء مفسدة أمس نهى عنه، مصلحة اليوم أمر به، وقد كان ينسخ الأَهون بالأهون والأَشق بالأَشق والأَهون بالأشق والأَشق بأَهون للمصلحة، ألا يرون الطبيب الماهر يأْمر بدواء فى وقت وينهى عنه فى وقت وبالعكس باعتبار أنه مصلحة فى وقت مفسدة فى آخر. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وينزل بإسكان النون وتخفيف الزاى والمعنى واحد، ومنع بعض المعتزلة نسخ الأهون بالأشق لأَنه لا مصلحة فى الانتقال من سهل إلى عسر، وهو مبنى على أنه لابد من مراعاة مصلحة المكلف فالتحقيق أنه لا يلزم ذلك، وقيل لا يلزم تفصيلا لا عموماً ولئن سلمنا لنقولن أن فائدة الانتقال من سهل إلى عسر كثرة الثواب، ومن نسخ أهون بأهون نسخ التوجه لبيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة، ومن نسخ الأَشق بالأهون نسخ العدة بالحول فى الوفاة بأَربعة أشهر وعشر، ونسخ بثبوت الواحد لعشرة بثبوته لاثنين فى: إن يكن منكم عشرون . الآية ـ ومن نسخ أهون بأشق نسخ التخيير بين صوم رمضان والفدية بتعيين الصوم، قال الله تعالى: « وعلى الذين يطيقونه فدية » . الخ .

وقيل التقدير لا يطيقونه ومن ذلك قوله تعالى: واللذان يأتيانها منكم - الآية ، ثم قال : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم . . إلى قوله سبيلا . . ثم أنزل الزانية والزانى الخ . . أول ما نزل آية الأذى ثم آية الحبس ، ثم آية السبيل. كذا قيل فى تمثيل ويجوز النسخ بلا بدل لكن لم يقع عند الشافعى وقيل وقع ،كنسخ وجوب تقديم الصدقة على مناجاة النبى - صلى الله عليه وسلم - وأجيب بوقوع البدل وهو الجواز باستحباب ، وقال بعض المعتزلة لا يقع لأنه مصلحة فيه ،وأجيب بعدم لزوم مراعاتها وعلى لزومها فهى موجودة إذ فى الراحة من التكليف بذلك الحكم مصلحة وهى السلامة من عدم الإخلال به والتهاون فيترتب عليه الذم عاجلا والعقاب آجلا ﴿ قَالُوا ﴾أى كفار مكة ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ كاذب على الله سبحانه وتعالى تأمر بشىء اليوم وتنهى عنه غداً يسخر باصحابك فتأتيهم بما هو أهون صر فاً للمشقة عليهم ،ولو كان ذلك من الله لم يختلف ولقد كذبوا فإنه ينسخ الأهون بالأشق والأشق بالأهون والمثل بالمثل ولكنهم بعدوا عن العلم بمصلحة النسخ وحكمته ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ فى التعبير بالأكثر مثل ما مر ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة النسخ ومصلحة وحقيقة القرآن أو لايعلمون الخطأ من الصواب .

﴿ قُلْ ﴾لهم يا محمد﴿ نَزَّلَهُ ﴾ أى القرآن ﴿ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ أى روح الطهر وهو جبريل وإنما أُضيف اسمه وهو روح للقدس كما يقال حاتم الجود وزيد الخير وطلحة الخير والأَصل الروح المقدس بالنعت ثم أُضيف للمصدر وقرأ ابن كثير بإسكان الدال تحقيقا،والإنزال والتنزيل معنى واحد والإنزال عام والتنزيل خاص بالتدريج كما أن القرآن منزل بالتدريج على حسب المصالح مما يقتضى التبديل ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ مقتضى الظاهر أن يقول من ربى فعدل عنه إلى الخطاب تأسيا له وتقوية،فإنما يفيده إضافة رب إليه بالخطاب أكثر مما يفيده إضافته إليه بالتكلم أو إيذان بأَن له أن يعبر بما شاء إذا خاطبهم بما أمر به مثل أن يقول من ربى أو من ربكم أو من الله أو من الرب وهو ذلك بحسب من يظهر له أنه يؤثر فيهم بخلاف ما لو قالوا له قل نزله روح القدس من ربى فإنه نص فى أن يقول من ربى، بالإضافة للياء فقط أو خاطب بذلك من يصلح أى :قل يا محمد نزله روح القدس من ربك يا أبا لهب أو يا أبا جهل ونحو ذلك فمن يقول أنت مفتر﴿ بِالْحَقِ ﴾ملتبسا بما هو صحيح وحكمه﴿ لِيُثَبِّتَ ﴾ روح القدس ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ به فيزدادوا إيمانا ويرسخ الإيمان به فيهم بل المؤمن يزداد يقينا بنفس النسخ إذا تدبر رعاية الصلاح والحكمة﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى ﴾ بالنصب على التعليل

عطفا على معنى يثبت وذلك لأن فاعل التثبيت والهداية والتبشير وهو روح القدس تثبيتا للذين آمنوا بالنصب فصح بذلك من قبيل عطف التوهم فى غير القرآن أو هما بالجر عطف على المصدر أو بالرفع أى هود والمجرور باللام ﴿ لِلْمُسْلِمِيْنَ ﴾ المنقادين لحكمه وهم الذين آمنوا المثبتون وعبر عنهم بالمسلمين لا بالضمير يصفهم بالانقياد للحكم، وفى الآية تعريض بأن ضد الهدى والبشرى الضد المؤمنين المسلمين وفسره ليثبت بإسكان الثاء المثلثة وتخفيف الموحدة بعدها.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ أى أهل مكة ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ ﴾ أى يعلم محمدا ما يزعم محمد أنه قرآن من الله ﴿ بَشَرٌ ﴾ فما يقوله إنما هو قصص ووعظ يتلقفه من ادعى لا من الله كما يزعم ويريدون بالبشر غلاما نصرانيا لبعض قريش فى مكة يسمى بلعام كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمه الإسلام ويرومه عليه وكان يدخل على الغلام ويعرفه، قاله ابن عباس رضى الله عنهما أو غلاما لبنى المغيرة يقال له يعيش كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقريه ويعلمه وكان الغلام يقرأ الكتب . قاله عكرمة أن غلاما روميا نصرانيا لعامر ابن الحضرمى يسمى جبر وكان كاهنا وكان يقرأ الكتب وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرا ما يقعد إليه عند

المروة قاله مجاهد وابن إسحاق والحسن أو جبر المذكور وعبد آخر يسمى يسار أو يكنى أبا فكيهة وهما من أهل عين النهر كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا مر عليهما يقرآن وقف عليهما يسمع. قاله عبد الله بن مسلم قيل لأحدهما إنك تعلم محمد. فقال بل هو يعلمني. وعن الضحاك أنه كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أذاه الكفار قعد إليهما يتروح بكلامهما، والبشر يطلق على الواحد فصاعدا ويسار المذكور وحده قاله بعض أو ما يشاء غلاما لحويطب بن عبد العزى أسلم وحسن إسلامه، وكان ذا كعب قاله الفراء أو عداس غلام عتبة بن ربيعة قاله بعض أو سلمان الفارسى قاله بعض أو عداس المذكور وكان يهوديا فأسلم وجبر المذكور وكان يقرأ من التوراة والإنجيل بالعبرانية. قاله الكلبي واستأنف الله الرد على المشركين فى قولهم إنما يعلمه بشر بقوله عز وجل ﴿ لِّسَانُ الَّذِى ﴾ أى لغة البشر الذى وإنما يطلق اللسان على اللغة لأنه آلتها أو الأصل لغة لسان البشر الذى بحذف المضاف ﴿ يُلْحِدُونَ ﴾ يميلون قولهم عن الصواب الذى هو كون القرآن كلام الله ﴿ إِلَيْهِ ﴾ بأن قالوا كلامه لا كلام الله. قال أبو عمرو الدانى قرأ حمزة والكسائى هنا بفتح الياء والحاء والباقون بضم الياء وكسر الحاء

وهو ملحد بكسر الحاء والشيء ملحد بفتحها أي ممال ولحده فهو لاحد والشيء ملحود ومن ذلك سمى الشق فى جانب القبر لحدا والميل عن الدين إلحادا لأن كلا من ذلك إمالة ، وقرأ الحسن اللسان الذى يلحدون إليه ﴿ أَعْجَمِىٌّ ﴾ غير متبين لأنه ليس بلغة العرب ويسمى أيضا من لغته لغة العرب أعجم إذا كان فى نطقه عجمة ،ومن ذلك سمى زياد الأعجم وهو من العرب والعجمى والأعجمى نسبة إلى العجم والأعجم وهو من لغته غير عربية ويطلق أيضا على من نسبته فى العجم ولو كان كلامه عربيا فصيحا والجملة كما علمت مستأنفة كما فى قوله تعالى: الله أعلم حيث يجعل رسالاته ،بعد قوله جل وعلا: وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ﴿ وَهَٰذَا ﴾ أى هذا اللسان أى اللغة وهى لغة القرآن نفعنا الله به أو هذا اللسان الذى هو لسان فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وهذا الرجل على حذف مضاف أى ولسان محمد الذى فى فمه أو لغة محمد وقيل الإشارة إلى القرآن ﴿ لِسَانٌ ﴾وقيل هذا سرد لسان أنطق لسان﴿ عَرَبِىٌّ ﴾ منسوب إلى العرب وهم أعم من الأعراب فإن الأعراب سكان البادية فقط ،وقيل العرب سكان القرى فقط﴿ مُّبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة وبلاغة لا يتكلم بالعجمية ولا يطيق تعلمها لبعد مكانه فى البلاغة والفصاحة العربيتين

عنها بخلاف ذلك البشر الأعجم فبأنه يمكنه أن يتعلم لغة رسول الله
ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن لغة العرب أسهل اللغات ،فما يسمعه من ذلك
البشر الأعجم لا يفهمه ولا أنتم تفهمونه والقرآن مفهم فكيف يتلقفه
ولئن سلمنا أنه تلقف المعنى منه فعبر عنه بالعربية لم يسلم أن عبارة
مخلوق تكن معجزة هذا الإعجاز الذى شاهدتموه لا من جهة اللفظ
ولا من جهة المعنى ،وإن سلم لم يسلم أن هذه العلوم الكثيرة التى
فى القرآن التى لا تحصل إلا بمدة طويلة مع معلم ماهر يحصل من غلام
سوق يسمع منه فى بعض أوقات مروره أو حين يريد التروح به عن
أذى الكفار كلمات أعجمية لا يعرف إلا بعضها لركة لسان ذلك
البشر فى العربية جدا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لايصدقون﴿ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أى بأنها منه
﴿ لَايَهْدِيهِمُ اللهُ ﴾ أى لا يوفقهم إلى الحق وإلى سبيل النجاة وقيل
إلى الجنة﴿ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على كفرهم وهذا تهديد
بعد ما أبطل شبهتهم ولما تضمن قولهم إنما يعلمه بشر أن محمدا ـ صلى
الله عليه وسلم ـ مفتر على الله بنسبة كلام البشر إلى الله، قلب الأمر
عليهم بقوله :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ﴾ الخ و هذا قلب لقولهم إنما أنت مفتر أى ليس

مفتريا إنما يفترى ﴿ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾لأنهم الذين لا يخافون عقابا يردعهم بخلاف محمد فإنه مؤمن يخافه فلا يكذب ﴿وَأُولَئِكَ ﴾الذين كفروا والقريشيون﴿ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ على الحقيقة لا أنت أو الكاملون فى الكذب دون غيرهم من مطلق من يكذب لأن تكذيب آيات الله بمثل قولهم أنه يعلمه بشر أعظم الكذب أو أولئك هم الذين عدتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة كأنه قيل كذبتم فيما قلتم وأنتم كاذبون فى العادة كقولك لرجل كذبت وأنت كاذب، أى من عادتك الكذب وأولئك هم الكاذبون فى قولهم:إنما أنت مفتر إنما يعلمه بشر وأولئك هم الذين ظهر كذبهم وعجزهم إذ طعنوا فى القرآن بمثل قولهم إنما يعلمه بشر فإن الطعن بما لا يتم دليل على غاية العجز،راموا الطعن بشىء والتستر به فكان آلة الطعن عليهم وفاضحا لهم كمن حفر لأخيه جبا فوقع فيه منكبا،وفى الآية دليل على أن الكذب من أفحش الكبائر لأن الكاذب المفترى هو الذى لا يؤمن بآيات الله. قال عبد الله بن جراد يا رسول الله المؤمن يزنى أى يعتاد الزنى. قال قد يكون ذلك،أى قد يعتاده فيزول عنه الإيمان ثم يتوب فيرجع الإيمان إليه قلت المؤمن يسرق أى يعتاد السرقة. قال قد يكون ذلك والمعنى على ما مر،قلت المؤمن يكذب أى يعتاد الكذب وينهمك

فيه. قال: لا. قال الله: إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون.

﴿ مَن ﴾ بدل من الذين فى قوله : « إنما يفترى الكذب الذين » . الخ وما بينهما معترض أي إنما يفترى الكذب من ﴿ كَفَرَ ﴾ من قلبه ﴿ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ به كقيس بن ضبابة ممن ارتد بقلبه ولسانه وكان قد ارتد كذلك بلا إكراه وليس من ارتد من قلبه بمعذور ولو أكره أو من بدل من أولئك أى ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون ومن الكاذبون أى وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه أو مفعول لمحذوف أو خبر لمحذوف ،أى أعنى من كفر أو هم من كفر أو مبتدأ شرطية أو موصولة محذوفة الخبر . الجواب أى لهم عذاب شديد أو فلهم عذاب شديد ، دل عليه قوله ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ استثناء من كفر وهو متصل لأن الكفر لغة يعم الكفر باللسان والكفر بالقلب والكفر بهما فاستثنى من كفر باللسان فقط لإكراه من لا يطيقه له على الافتراء ، وكلمة كفر فإنه لا بأس عليه إذا اطمأن قلبه إيماناً وخالف لسانه كما قال . ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ ﴾ ساكن ثابت . ﴿ بِالإِيمَانِ ﴾ لم تتغير عقيدته زعم بعض أن هذه الآية نسخ منها المستضعفون فأبيح لهم بقوله تعالى :

« إلا المستضعفين » وزعم بعض أن فى الآية من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان فلا جناح عليه ولكن من شرح بالكفر صدراً من غير كره فعليهم غضب،وفى الآية دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب لكن لابد من النطق بكلمة الشهادة مرة عند الجمهور حتى أنه غير خارج عن الشرك إن لم ينطق بها عند الجمهور وقيل لا يشترط النطق بها وإنما هو بإجراء أحكام عليه ويعلم بأنه مؤمن ، وذكر النووى فى شرح مسلم أن أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين اتفقوا على أن من آمن بقلبه ولم ينطق بلسانه مع قدرته كان مشركاً ، واعترض بأن لكل من الأئمة الأربعة قولا ، إنه مؤمن عاص بترك التلفظ ، بل الذى عليه جمهور الأشاعرة وبعض محققى الحنفية أن الإقرار شرك لإجراء أحكام الدنيا ،ومذهبنا اشتراط الإقرار وعلى اشتراطه يكفى أن يسمع نفسه واتفق القائلون بعدم اشتراطه على اشتراط ترك العناد بأن يعتقد أنه متى طولب به أتى به ، وفى الآية أيضاً تصريح بأن للمكره على الكفر أن يتلفظ به إن اطمأن قلبه بالإيمان ترخيصاً من الله سبحانه والأفضل أن يصبر على ما يحل به ولا يتلفظ إعزازاً للدين ، كما روى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ــ صلى الله عليه

وسلم ـ فقال : ما تقول فيّ ؟ قال : أنا أصم . فأعاد عليه ثلاثاً ، وفي كل ذلك يقول أنا أصم ، فقتله . فبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك فقال : أما الأول فقد أخذ برخصة الله تعالى ، وأما الثاني فقد صدع بأمر الله بالحق فهنيئاً له وقد أخذ بالأفضل ، أيضاً أبوعمار بن ياسر وسمية رضى الله عنهم ، وذلك أول من أظهر الإسلام سبعة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبو ياسر وأمه سمية ومهاجر ، فأما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمنعه الله من أذى المشركين بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله عز وجل بقومه وعشيرته وأخذوا الآخرين وألبسوهم أدراع الحديد وأجلسوهم في حر الشمس بمكة فكانوا يعذبون بلالا وهو يقول أحد . . أحد . . حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه . قال خباب : لقد أوقدوا لي ناراً ما اطفأها إلا ودك ظهري ،وربطوا سمية بين بعيرين وطعنوها في قلبها بحربة وقالوا : إنك أسلمت من أجل الرجال وماتت وقتلوا زوجها ياسراً وهما أول قتيلين في الإسلام وأخذ بنو المغيرة عماراً فغطوه في بئر ميمون ، وقالوا له : اكفر بمحمد ، فتابعهم على ذلك وقلبه كاره ، فأخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن عماراً كفر . فقال : منكر الكفرة أكفرك إلا أن عماراً ملىء إيماناً من قرنه

إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبكي ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمسح عينيه . وقال : ما لك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت . وفي رواية أنه جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشكوه ما صنع به من العذاب وما سامح به من القول ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كيف تجد قلبك . قال : أجده مطمئناً بالإيمان . فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم فأجبهم بلسانك فإنه لا يضرك ، وإن عادوا فعد فنزلت الآية ، وذكروا أنه قال : أخذني المشركون فلم يتركوني حتى شتمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكرت آلهتهم بخير ، فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما وراءك ؟ قلت : شراً يارسول الله ، والله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، فقال لي : كيف تجد قلبك . قلت : أجده مطمئناً بالإيمان . قال : فإن عادوا فعد . والرخصة عامة كما يعطيه عموم اللفظ باقية ولو كان سبب النزول خاصاً وممن كفر بلسانه واطمأن قلبه بالإيمان جبر مولى عامر الحضرمي اكرهه عامر على الكفر فكفر بلسانه ثم أسلم عامر فأحسن إسلامه وأسلم جبر وهاجر إلى المدينة ، وقد قال مقاتل: إن الآية نزلت في جبر وليس كما قيل عن مجاهد أنها نزلت في ناس من أهل مكة آمنوا فكتب

إليهم بعض أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - حين نزل وجب الهجرة أن هاجروا إلينا فإنا لأبركم منا حتى تهاجروا فخرجوا يريدون المدينة فأدركتهم قريش فى الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا بألسنتهم كارهين قيل فنزل :الم أحسب الناس -الآيات فكتبوها إليهم أيضاً فتبايعوا أن يخرجوا أيضاً فإن لحقهم المشركون قاتلوهم حتى يلحقوا بالله أو ينجوا فنزل سبحانه ثم إن ربك للذين هاجروا . . الخ . وهذا القول ضعيف لأن الآية مكية فى أول الإسلام قبل أن يؤمروا بالهجرة ، وشرط التقية بالشرك أن يقهر بعذاب لا يطيقه كالتخويف بالقتل والضرب الشديد والإيلامات القوية كالتخويف بالنار ، وقال ابن مسعود ما من كلمة ترفع عنى سوطين إلا تكلمت بها ، وليس الرجل على نفسه بأمين إن ضرب أو عذب أو حبس أوقيد ، ومراده بسوطين ضربتان وهما مثال ، فإن الضربة الواحدة المؤلمة كذلك ، وقد روى أنه قال ضربة سوط وكذلك إن خاف سلب المال المؤدى إلى تلف النفس وقيل وعلى التلفظ بالاشتراك لإكراه التلفظ بكل ما هو معصية بإكراه مع إضمار مع هو الحق إلا ما يؤدى التلفظ به إلى ظلم الغير كشهادة الزور والدلالة على مال الغير وحد الإكراه أن يهدد المكره قادر على الإكراه بعاجل من أنواع العقوبات يؤثر العاقل لأجله الإقدام على ما أكره عليه وغلب على ظنه أنه يفعل

به ما هدده إن امتنع مما أكره عليه وعجز عن الهرب والمقاومة والاستعانة بغيره ونحوها من أنواع الدفع ويختلف الإكراه باختلاف الأشخاص والأسباب المكره عليها فى فروع وقيل لا يبيح التقية على أصولنا إلا ضرب يقع عليه فى ذاته أو قتل خاصة ولعل سلب المال المؤدى إلى الموت داخل فى القتل والتحقيق أن التخليد فى السجن يبيح التقية ، وقيل إذا خاف وظهرت القرائن الدالة على ذلك التهديد وإحضار السوط وإشهار السيف وإشراع الرمح ، وقيل إذا علم منه فى الماضى إيقاعه وبطشه والايذاء باللسان لا يبيح التقية ولو عظم ، وقيل إذا خاف ضربا فله التقية ولو لم تظهر القرينة ولا حضرت آلة الضرب إن كان قادراً على الإكراه ولا يشترط فى التقية المعرضة بل اطمئنان القلب بالحق على الصحيح واشترطها بعضهم وأجمعوا على وجوبها على من هو ثابت العقل عارف بها إن حضرت له فى تلك الحال وهى أن توهم السامع بمعنى فى نفسك خلافه واستدل من قال بوجوبها بقوله — صلى الله عليه وسلم — قبل موته بشهر لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب ولا تشركوا بالله شيئاً ولو عذبتم أحرقتم بالنار ، والجواب أن المراد لا تشركوا من قلوبكم ، كما قال الربيع عن أبى عبيدة عن جابر فى قوله — صلى الله عليه وسلم — قل الحق ولو كان مراً ، ولا تشرك بالله شيئاً

وإن عذبت أو حرقت ، وقيل تجوز له التقية إذا خوف بقتل غيره ممن لا يجوز قتله ولا أن يبقى له وكذا له الوجهان إذا كان يلقى على إنسان أو يسحب عليه فيتضرر الإنسان أويموت وكان موته مفضياً إلى موت غيره ولا إثم عليه ولا عزم فى الفعل ولا فى الترك ولا تجوز التقية بالفعل كشرب الخمر والزنى واختلف فى إفطار المقيم تقية وأجاز بعض المعتزلة التقية فى الفعل كله قياساً على القول إلا ما فيه ظلم أحد ، وبه قال ابن الحسين من النكار فلو أكره على قتل إنسان فقتله للزمه الإثم والقود بإجماع ، إلا ما روى عن بعض المعتزلة وذكر بعض العلماء أن الزنى لايتصور فيه الإكراه لأن الإكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع من انتشار الذكر ،وليس كذلك على الإطلاق فإنه قد ينعم لهم بالزنى فيأمن أو يؤخر عن تلك الحال فينتشر ، وأيضاً وقوعه عليها زنى ولو لم يقع إيلاج ومن أكره على طلاق أو إعتاق أو بيع أو نحوه ففعل لزمه عند أبى حنيفة ولم يلزمه عندنا وعندنا وعند الشافعى وأكثر العلماء لقوله تعالى: لا إكراه فى الدين ، أى لا عبرة ولا أثر لما يفعل من أموره بكره كذا فسره هؤلاء ولا تجوز التقية بقذف المحصنات طلاقاً على الصحيح وأجازها ابن بركة وتجوز بإنكار الزوجية وإثباتها وإثبات العبودية للنفس أو الغير ونفيها والبهتان

عند بعض ولا تجوز فى الفتوى بغير حق وشهادة الزور خلافاً ولا فى إلقاء سلاح أو لباس ، وقيل بجوازها إن كان له آخر وأجازها بعض بأكل المحرمات كقذر الآدمى والدم والخنزير وما الغير بشرك نية الضمان وأجاز بعض المعتزلة التقية بكل محرم ولو بزنى أو قتل غيره ، وزعمت بعض الصفرية أن هذه الآية المبيحة للتقية منسوخة بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماتنتفعوا من الميتة والصواب أن المراد فيه لا تشركوا بقلوبكم كما مر ومن أكره على مباح فعلا أوقولا أومسنون فله أن يفعل وله أن لا يفعل ويموت وإن أكره على واجب كصلاة الظهر أو على تركه وجب عليه فعله ولو يموت لكن له أن يوصى أو يمر عليه فى قلبه فينجو إذا أكره على تركه ومن أكره على الزنى فزنى لزمه الحد والصداق وقيل لا يحد ولا صداق عليه إن أكرهته هى ومن أكره على قتل إنسان فقتله لزمه القود وقيل لزمه ومكرهة . وقال أبو يوسف : لا شىء عليه والقود على من أكرهه وليست تقية الصاحب والجار والرحم ومن خيف منه ضر فلهذا فى مال أو نفس أو عرض ونحو ذلك على حد التقية بالشرك بل معناها أن تتلفظ لمن ذكر بما يوهم أنك راض عنه وأنه فى ولايتك مثل أن تقول لرحم كوالد وأخ وصاحب وجار رحمك الله وتريد رحمة الدنيا ونجاك من النار وتريد نار الدنيا ، وأعانك الله

وتريد على مباح وآجرك الله أجر المحسنين وتريد أن يعطيه أجراً دنيوياً كأجر من أحسن عملا دنيوياً يستحق به أجرة دنيوية ولم يكونوا بحد من يضرك بقتل أو ضرب إذا احتجت إلى ذلك لتسهيل العشرة وإزالة النفرة ومشقة العداوة والفرقة إذا كنت إن لم تقل له ذلك صفت العشرة أو تفر أو شقت عداوته أو فارقك وأجاز بعض أيضاً مثل تلك المعارض لجلب نفع مستغنى عنه ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أى من فتح صدره ووسعه بمعنى طابت به نفسه واعتمده فى حال إكراه أو فى غيره ﴿ فَعَلَيْهِمْ ﴾ فى الآخره والدنيا ﴿ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ ﴾ فى الآخرة ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لو فيها وفى الدنيا بالسيف لأنه لا أعظم من جرمه .

﴿ ذَلِكَ ﴾ الوعيد الذى هو غضب الله وعذابه العظم أوذلك الكفر بعد الإيمان ﴿ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا ﴾ بالغوا فى الحب ، ﴿ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ عدى الحب بعلى لتضمنه معنى الاختيار والباء سببية ﴿ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ أى لايوفق للإيمان من سبقت له الشقاوة .

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أى من صفة ذلك ﴿ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ خذلهم ﴿ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ شبه ترك التوفيق بالربط على الشىء والختم عليه كأنهم قد ألقى بستر على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فكانبوا

لايدركون الحق ولا يتأملون فيه والسمع مصدر فلذا أفرده أو بمعنى الإذن وعلى هذا فأفرده لإرادة الجنس بقرينة أضافته لضمير الجماعة ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ عما يراد بهم من غضب الله عز وجل وعذابه أو عن تدبر العاقبة أو مما خلقوا له من العبادة كما قال صاحب لامية العجم.

قد رشحوك لأمر لو فطنت له   فارب بنفسك أن ترعى مع الهمل

وأل الكمل أى كاملو الغفلة إذ لا أغفل ممن يغفل عما يوقعه فى النار مخلداً.

﴿ لَا جَرَمَ ﴾ لابد أوحقاً ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لأعمارهم إذ أفنوها فيما يوجب الوقوع فى النار تخليداً و الخاسرون بتضييع النعيم المخلد والحور العين ﴿ ثُمَّ ﴾ عطف بثم لتباعد حال من يذكر عن حال من ذكر وتفاوت ما بينهما.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ لله ولرسوله من مكة إلى المدينة كعمار أى إن ربك ثابت لهم بالولاية والنصر أو ناصرهم أو غفور لهم ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ صدهم المشركون عن الإيمان بالعذاب كعمار أو من بعد ما أخرجوهم عن التوحيد بإكراههم على التلفظ بالكفر حتى تلفظوا به

مطمئنة قلوبهم بتوحيد أو من بعد ما ردوا للكفر فارتدوا من قلوبهم ثم تابوا وهاجروا أو من بعد ما صنعوا من الهجرة فامتنعوا وهم قادرون عليها ثم هاجروا،وقرأ ابن عامر من بعد مافتنوابفتح الفاء والتاء **أى** من بعد ما فتنوا الناس عن الإيمان كعامر بن الحضرمى أكره غلامه جبر المذكور على الكفر ثم هاجر وأسلم مع جبر أو من بعد ما فتنوا أنفسهم بالكفر ،﴿ ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ على الجهاد وما يصيبهم من المشاق وعلى الإيمان والهجرة والطاعة ،﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أى من بعد الفتنة المدلول عليها بقوله فتنوا أو من بعد جملة ما ذكر من مهاجرة وجهاد وصبر أومن بعد الهجرة أو الفعلة قيل أو من بعد التوبة ، والكلام يعطيها وإن لم يجر لها ذكر صريح وهو صحيح ﴿ لَغَفُورٌ ﴾ لذنوبهم السابقة ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم يجازيهم على ما فعلوا بعد من الخير ، قال ابن اسحاق نزلت هذه الآية فى عمار بن ياسر وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ، قال عياض : ذكر عمار فى هذه غير قويم فإنه أرفع من طبقة هؤلاء وإنما هم ممن تاب ممن شرح بالكفر صدراً فتح الله به باب التوبة فى آخر الآية ، وقال الحسن وعكرمة : نزلت فى عبد الله بن أبى سرح كان قد أسلم وكان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أملى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غفور

رحيم كتب عليم حكيم وإذا أملى عليه سميع حليم أو سميع بصير ونحو ذلك والنبي - صلى الله عليه وسلم - ينظر إليه ولا يغيره لأنه - صلى الله عليه وسلم - أمى لا يحسن الكتابة فشك عبد الله بن أبى سرح فى الإسلام فقال : كتبت غير الذى قال فلم يعبه على، فأزله الشيطان وألحقهُ بالكفر فارتحل لمكة فلما كان يوم فتح مكة أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بقتله فاستجاره عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة وقيل لأمه فأجاره النبي - صلى الله عليه وسلم - فأتى به فأسلم ، قيل وحسن إسلامه وهذا القول إنما يثبت على القول لبقاء الهجرة بعد فتح مكة وعلى أن الهجرة هنا هجر المعاصى وعلى أن الآية مدنية فى سورة مكية وكل ذلك ضعيف وكان بعض يسميه عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو الأصل فإنما نسبته إلى أبى سرح نسبة إلى الجد وهو من بنى عامر ابن الوليد ، وقيل نزلت فى عياش بن ربيعة أخى أبى جهل من الرضاعة وقيل هو أخوه لأمه وفى أبى جند بن سهل بن عمر بن الوليد بن الوليد ابن المغيرة ومسلمة بن هشام وعبد الله بن سنيه الثقفى فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا وزعم بعض أن قوله تعالى ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب أليم :نزل فى عبد الله بن أبى

سرح وأنه منسوخ بقوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا » الخ لما تاب ويرد هذا القول أن الأخبار لا تنسخ ، وذكر بعضهم أن قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه » . . الخ . فى مولى عامر بن خلف الجمحى كان يهودياً سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يقرأ سورة يوسف فأتاه حين أصبح فأسلم فاطلع عليه أهله فضربوه حتى عاد إلى يهوديته ، وعمار بن ياسر وأصحابه يعذبون بمكة فأعطاهم عمار وغيره بعض ما أرادوا فأنزل الله جل جلاله « إلا من أكره » . . الخ . نزل ولكن من شرح بالكفر صدراً الخ . فى عبد الله بن سعد عن أبى سرح وعياش بن ربيعة كانا قد أسلما ثم كفرا ثم انصرفا إلى مكة ثم أسلما ثم رجعا إلى المدينة فنزل فيهما ثم إن ربك للذين هاجروا . . الآية من بعد ما فتنوا ثم هاجروا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم

﴿ يَوْمَ ﴾ متعلق برحيم فليس الوقف على رحيم أو مفعول لمحذوف أى اذكر يوم فالوقف على رحيم .

﴿ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ ﴾ إنسان . ﴿ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ أى عن ذاته أو المراد بالنفس المضافة للضمير مطلق النفس وبالضمير واحدة من المطلق وعلى كل حال ليس من إضافة الشىء إلى نفسه أى يسعى فى خلاص ذاته لا يهمه إلا نفسه حتى الأنبياء فكل يقول نفسى نفسى

وذلك يوم القيامة المراد بالجدال الاعتذار بما لا يقبل فقط، كما قال بعضهم بل المراد الاعتذار بما يفيد والاعتذار بما لا يفيد والاهتمام بالأمر فهى فى المؤمنين والمشركين والمنافقين لا كما قال به ذلك البعض أنها فى المشركين وأما ذلك كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين، وعن الحسن كل نفس توقف بين يدى الله للحساب ليس يسألها عن عملها إلا الله قال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار رضى الله عنهما خوفنا قال يا أمير المؤمنين والذى نفسى بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تارة وأنت لا يهمك إلا نفسك فإن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم الخليل يقول: يارب لاأسألك إلا نفسى، وإن تصديق ذلك فيما أنزل عليكم لله سبحانه يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وورد الخبر باستثناء رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك العموم وأنه يهمه أمر منه وروى عكرمة عن ابن عباس ماتزول الخصومة بين الخلق حتى أن الروح والجسد يتخاصمان يقول الروح يارب لايد لى أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولا عين أبصر بها، فجاء فيقول الجسد: يارب أنت خلقتنى كالخشبة لا حركة ولا رؤية فجاء هذا الروح فكان ذلك فضرب الله مثلا لهما أعمى ومقعد فى بستان، فالأعمى لايبصر الثمرة

والمقعد لا ينالها فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمار فعليهما العذاب ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ يحضر لها ماعملته من خير أو شر على الكمال بأن يتذكر لها فتجازى عليه يحضر لها جزاء ما عملت ، فأما المشرك والمنافق فقد استوفيا ثواب ما عملاه من خير فى الدنيا فلا يبقى لهما فى الآخرة إلا السيئات ، وأما المؤمن فالتحقيق فيما ظهر لى أن منهم من تذهب عنه سيئاته كلها بالعبادة والمصائب أو بالعبادة وهو تائب منها فما له فى الآخرة إلا الحسنات ومنهم من تاب وقبل الله توبته ولكن لم يأت عليه من المصائب ما تقابل مرارتها حلاوة معاصيه ولم يجهد نفسه ويضيق عليها بالعبادة فيشدد عليه فى خروج الروح أو فى القبر أو فى الموقف أو فى الحساب أو فى متعدد من ذلك أو فى كل ذلك حتى يوافى الله ولا ذنب له ، ومنهم من عفى الله عنه وقد كتبت بعض ذلك فى غير هذا الكتاب ثم رأيت فى كلام الشيخ هود رحمه‌الله الإشارة إليه فالحمد لله . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ لا يزاد فى ذنوبهم ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا ﴾لكل من أبطر النعمة الواسعة وكفر فانتقم الله منه أو لأهل مكة ، ﴿ قَرْيَةً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهى مكة على أن المضروب لهم المثل غير أهلها ممن أبطر النعمة

فأهلك خوفهم بالسنين التى أصابت أهل مكة أو على أن المضروب لهم المثل هم أهل مكة ، خوفهم بالسنين التى أصابتهم ليزدجروا فلا تصيبهم مرة أخرى ،والذى يفهم من كلام حفصة رضى الله عنها أن القرية غير مكة ،خوف أهل مكة أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل تلك القرية من السنين ،وذلك قيل هو قبل أن تصيبهم سنون فلما لم يزدجروا أصابتهم ، وقيل بعده خوفهم أن يعود إليهم مثلها وهذه القرية التى هى غير مكة ذكرت على سبيل الفرض والتقدير لا قرية موجودة معينة ويحتمل أن تكون معينة لأن المثل يضرب بالموجود وغيره والمعين والمبهم واختار بعضهم أنها مكة ، وقال الحسن إنها قرية للأوائل وسع الله على أهلها حتى أنهم يستنجون بالخبز أى يزيلون به النجو وهو البول أو الغائط يعنى يتمسحون به ويستجمرون به ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ من الغارات والقتال والإخراج ، ﴿ مطْمَئِنَّةً ﴾ ثابتة لا تحتاج للانتقال لضيق أو خوف أو طلب كلأ وإسناد الأمن فى الاطمئنان إلى القرية مجاز عقلى لأن الآمن المطمئن فى الحقيقة هو أهلها وأسند ذلك إليها لأنها محلهم أوذلك مجاز بالحذف أى آمنا أهلها مطمئناً أهلها فحذف المضاف وكذا فى قوله فكفرت وكذا النسبة الإيقاعية فى قوله يأتيها رزقها وقوله فأذاقها الله فى ذلك كله الوجهان وزعم بعض أن القرية تطلق

على أهلها حقيقة أيضاً ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً ﴾ أى واسعاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها براً وبحراً كما قال الله يجبى إليه ثمرات كل شىء فى شأن مكة والحرم بدعوة إبراهيم وارزقهم من الثمرات ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ جمع نعمة بإلغاء التاء فى المفرد كدرع وأدرع وجمع نعم بضم فإسكان كبؤس وأبؤس ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ فالخوف بالسنين التى دعا بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم إذا قال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف عليه السلام حتى اكلوا العظم المحرق والجيفة والكلب والوبر المعالج بالدم . يرى أحدهم الجو كالدخان من الجوع وقالوا إن زال ذلك عنا آمنا . فزال فلم يؤمنوا وذلك قبل الهجرة وقيل إنه بعدها وأنه أمر أيضاً بقطع الميرة عنهم فأرسل إليه رؤساء مكة :عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن للناس فى حمل الطعام إليهم وأما الخوف فعلى أن ذلك قبل الهجرة فبغير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو بعدها فسراياه التى تغير وتقتل بقتال بدر وقد علمت أن بعضاً يقول القرية غير مكة ،وإن قلت ما وجه لباس الجوع والخوف قلت رويت عن شيخنا الحاج إبراهيم بن يوسف حفظه الله فى شرح السمرقندية وغيره عند قراءتى عليه قراءة تحقيق أنه شبه النحافة واصفرار اللون من جوع وخوف باللباس بجامع الاشتمال

فإن النحافة والاصفرار يشتملان على الجسد كاشتمال اللباس عليه فاستعير لهما لفظ اللباس استعارة أصلية تحقيقية تصريحية وشبه ما يدرك من الألم بالطعم المر بجامع الكراهة، تشبيها غير مصرح به فيكون لفظ اللباس استعارة مكية على مذهب السكاكى فقد اجتمعت المصرحة والمكنية ، وأما على مذهب السلف فالمكنية هى لفظ المشبه به غير المذكور، وأما على مذهب الخطيب القزوينى فالمكنية التشبيه المضمر وإثبات الإذاقة للباس بطريق النسبة الإيقاعية تخييل فقد اجتمعت المصرحة والمكنية والتخييلية، وأعلم أنى قد أطلق النسبة الإيقاعية على نفس وقوعه الفعل على المفعول، وقد أطلقها على نفس صدور الفعل المتعدى لفظه وقوله أذاق بمنزلة الأظفار للمنية فلا يكون ترشيحاً وكلام الكشاف مشعر بأنه لفظ اللباس استعارة تحقيقية ويحتمل أن يكون عقلية، ويحتمل أن يكون حسية لأنه قال شبه ما غشى الإنسان وألبس به من بعض الحوادث باللباس لاشتماله على اللابس والحادث الذى غشيه يحتمل أن يريد له الضرر الحاصل من الجوع، فيكون عقلية وإنما يريد به امتقاع اللون ورثاثة الهيئة ، قال نظر هنا إلى لفظ المستعار له فعبر بالإذاقة ولو نظر إلى لفظ المستعار لقال فكساهم لباس الجوع والخوف، وذكر القاضى وغيره أن الذوق مستعار لإدراك أثر الضرر

واللباس للجوع والخوف مشتملين على الإنسان وذكر الإذاقة نظراً للمستعار له كقول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال

فإنه استعار الرد المعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه،وأضاف إليه الغمر الذى هو وصف المعروف والنوال غمر الرداء كناية عن كثرة العطاء والغلق بالمعجمة الاستحقاق أى إذا ضحك المسئول ضحكة أيقن السائل أنه بذلك التبسم استغلق رقاب ماله ولو نظر إلى المستعار لقال سابغ الرداء وقد ينظر إلى المستعار كقوله :

أينازعنى ردائى عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر
لى الشطر الذى ملكت يمينى ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء لسيفه فقال فاعتجر نظر إلى المستعار ولو نظر إلى المستعار له لقال فاقتطع منه بشطر والاعتجار بالراء المهملة لف العمامة على الرأس أى يجاذبنى سيفى عبد عمرو ويريد أن يأخذه منى فقلت رويدك فلى النصف الأعلى الذى هو فى يمينى وخذ أنت النصف الآخر منه فلفه على رأسك ويجوز فى الآية أن يقال أن المذوق هو العظام فلما فقد صاروا كأنهم يذوقون الجوع،وأن يقال ذلك أن الجوع شديد كأنه أحاط بهم من كل جهة إحاطة اللباس وأن يقال معناها عرفها الله أثر الجوع والخوف،يقال ناظرنى فلان وذقت ما عنده أى عرفته وأن يقال

أمنها الله أثر الجوع والخوف،وقرأ بعضهم لباس الخوف والجوع بتقديم الخوف وقرأ بعضهم لباس الجوع والخوف بنصب الخوف أى ولباس الخوف،فحذف المضاف وناب عنه المضاف إليه﴿ بِمَا كَانُوا ﴾ ما مصدرية أى بكونهم﴿ يَصْنَعُونَ ﴾من الكفر والظلم والمعاصى أو بمعنى الذى أى بما كانوا يصنعونه من ذلك نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة كما فعل بهم وذكره فى قوله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أى أهل تلك القرية المضروب بها المثل مكة أو غيرها ﴿ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾من أهل تلك القرية يعرفون نسبه وصدقه سواء قلنا إنهُ رسولنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو غيره من الرسل قبلهُ إلى غير أهل مكة،وقيل الكلام هنا عائد إلى أهل مكة ورسولنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد ذكر مثلهم﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الجوع والخوف وقيل القتل يوم بدر وقيل الجوع ويوم بدر ونحو ذلك إن كانت الآية مدنية وإن كانت مكية فالجوع فقط قيل والأول أولى ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾أى حال التباسهم بالظلم وعدم إقلاعهم عنه والظلم كفر والمعاصى لما وعظ أهل مكة بما ذكر من حال القرية وما وقع بها لسوء صنيعها وكفرها وصل ذلك بالفاء فقال :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً ﴾ لا حرام﴿ طَيِّباً ﴾ مستلذا أو بمعنى

حلال كرر تأكيدا، وذلك عام. وقال الكلبى المراد الطعام الذى أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحمله إليهم بعد منعه عنهم كما مر ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ ﴾بتوحيده وعبادته وقيل النعمة النبى ﴿ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ تريدون عبادته فان عبادته لا تكون إلا بالتوحيد وامتثال الأمر واجتناب النهى، أوالمعنى إن صح زعمكم أنكم ماتقصدون بعبادة الأصنام إلا عبادته فتشفع لكم عنده لأن عبادته لا تمكن مع عبادة الأصنام. وقال ابن عباس رضى الله عنهما الخطاب فى فكلوا مما رزقكم الله إلخ للمؤمنين والرزق ما أحل الله لهم بفضله من الغنائم ونسب للجمهور وصحح، والصحيح عندى لما ذكرته أولا وأما أمرهم بالأكل مما رزقهم الله حلالا ذكر لهم ما حرمه ليعلم أن ما عداه حلال فقال :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ رفع الصوت لغير الله به، كقول المشرك عند الذبح أو النحر باسم اللات أو باسم العزى فإن رفع الصوت باسم غير الله فى التذكية رفع بالمذكى لأن الاسم ذكر فى شأنه أو كانوا يذكرون اسم المذكور ويرفعون به صوتهم ويتقربون به للصنم ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ الجئ إلى أكل ذلك بالجوع المردى إلى موت أو زوال عضو أو منفعته ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾

على مضطر مثله ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ مجاوز فى الأكل قدر الضرورة المنجية ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وتقدم الكلام على الآية فى محله، ثم أكد حصر المحرمات بالنهى عن التحليل والتحريم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع ما شرع الله على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ تفسير مامصدرية والكذب مفعول تصف واللام للتعليل وذلك أنهم يقولون هذا حلال وهذا حرام ويكررونه لأن ألسنتهم قد قالته أولا ، فداموا عليه فنهاهم الله أو بمعنى عن أو فى وللتعليل طريق آخر هو أن المعنى لاتحكموا بحل أو حرمة بمجرد قول فانطق به ألسنتهم ، وأجاز بعضهم كما قال ابن هشام أن يكون الكذب بدلا من مفعول محذوف على أن ما اسم أى لما تصفه فالكذب بدل من الهاء ويدل له قراءة بعضهم بجر الكذب على أنه بدل من ما اسم لا مصدرية وبرفع الكذب وضم كافه وذاله على أنه نعت للألسنة جمع كذوب بفتح الكاف وضم الذال كرسول ورسل وقرىء بالنصب وضمهما ، جمع كذوب واقع على الألسنة كذلك وهو مفعول لمحذوف ، أى أعنى الألسنة الكواذب أو واقع على الكلمات أى كلمات الكاذبات فيكون بدلا من الهاء المحذوفة على ما اسم وقال ابن جنى إنه جمع كذاب بكسر الكاف وتشديد الذال وهو مفعول مطلق

لتقولوا ،على حد قعدت جلوسا﴿ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ جملتان مفعول
للقول المذكور ويجوز أن تجعلا بدلا من الكذب بالنصب وبفتح
الكاف وكسر الذال على أنه مفعول به لتقولوا كما ذكره ابن هشام
وأجاز أن تكونا مفعولا للقول والكذب مفعول لمحذوف أى فتقولون
الكذب، وما ذكرته من كون الكذب مفعول تصف والجملتين مفعول
القول أولى،لأن وصف ألسنتهم الكذب مبالغة فى وصف كلامهم
بالكذب كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة حتى وصفتها ألسنتهم
فذلك أفصح كلام ومن فصيحه قولهم وجهها يصف الجمال وعينها
تصف السحر، أى هى جميلة وعينها لها تأثير فى الحب كالسحر
ولما أرادوا مبالغة فى جمال وجهها وسحر عينها عبروا بأن الوجه يصف
الجمال والعين تصف السحر؛وللسلامة من الحذف ومعنى قولهم هذا
حلال وهذا حرام أنهم كانوا فى الجاهلية يحرمون ويحللون أشياء
من عند أنفسهم ويضيفون ذلك إلى الله كتحريمهم السائبة والبحيرة
والوصيلة والحامى. وقولهم ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا
ومحرم على أزواجنا،وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء،ومنع مالك أن يقول
أحد هذا حلال أو هذا حرام،عندى بل يحكى ذلك عن الله أو نبيه
وإن أراده اجتهاده إلى إباحة أو حظ قال يسوغ عندى أو يجوز أو يمتنع

أوأكثره كراهة تحريم ﴿ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ﴾ هذا تعليل لايتضمن معنى الغرض المترتب على قولهم فيه اللام للصيرورة وإنكار البصريين ومن تابعهم لام الصيرورة فيقال إنها للتعليل المجازى وهو التحقيق وقيل هى هنا تتضمن غرضهم الفاسد وقيل لتفتروا الخ بدل من لما تصف الخ ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لا يفوزون بخير الآخرة بل يخسرون بالخلود فى النار أو لا يفوزون بحصول ما افتروا لأجله من أمور الدنيا أو لا ينجون من عذاب الله عز وجل .

﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾خبر لمحذوف أى متاعهم فى الدنيا متاع قليل أو ماهم فيه متاع قليل أو ما افتروا لأجله متاع قليل أو مبتدأ لمحذوف أى لهم متاع قليل،وقلة متاع الدنيا قلته فى ذاته وقصر مدته فإن الدنيا بأسرها تنقطع عن قريب ﴿ ولَهُمْ عذَابٌ أَلِيمٌ ﴾فى الاخرة .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾انتسبوا لليهودية أو تسموا بها ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾فى سورة الأنعام إذ قال وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية ومن قبل متعلق بقصصنا والقبلية باعتبار النزول وباعتبار ترتيب السور على ما قالوا إن ترتيبها بالوحى ويجوز تعليق من قيل بحرمنا ﴿ وَمَاظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بتحريم ذلك ﴿ وَلَكِن كَانُوا

أنفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾ فى تحريم ذلك بفعل ما عوقبوا به عليه وفى الآية فرق بين اليهود وغيرهم فى تحريم ذلك عليهم بالعقوبة وإن التحريم قد يكون لذلك وقد يكون مصلحة ودفع مضرة .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ ﴾كالافتراء على الله سبحانه والشرك وسائر المعاصى﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ الباء للسببية متعلقة بعملوا أو للإلصاق،متعلقة بمحذوف حال أى متلبسين بجهالة والجهالة الجهل وتعم الجهل بالله سبحانه وتعالى والجهل بعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة عليهم،وتعم الجهل بحرمة الشىء وتعمده مع العلم بحرمته،فإن الجهل كما يطلق على عدم إدراك الشىء يطلق على تعدى الحد مع العلم،يقال جهل عليه فلان أى نال من قدره وعدا طوره عليه ومنه ما ورد فى الحديث اللهم إنى أعوذ بك أن أجهل أو يجهل علىَّ وإن كثيرا ممن يفعل السوء إنما يفعله مع علمه بتحريمه بل قيل قل ما يوجد فى العصاة من لم يتقدم له علم يحضر المعصية التى يواقع،وذكر بعض أن العاصى يعصى لجهله أو لجهل العقاب أو لجهل قدر من يعصيه ومر كلام فى ذلك﴿ ثُمَّ تَابُوا ﴾ من الجهالة وعمل السوء ﴿ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾أى بعد عمل السوء﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ عملهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أى بعد الجهالة التى تابوا منها أو بعد التوبة

منها﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يثيب على الإنابة ولكون إبراهيم هو رسول الموحدين المجادل للمشركين المبطل مذاهبهم بالحجج عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن فى النبوة وتحريم ما حل فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾أى جماعة عظيمة من الناس لاستكماله خصائل من العبادة ومكارم الأَخلاق لا توجد فى فرد واحد بل توجد متفرقة فى أشخاص كثيرة ونظيره من المعرف بأل قولك زيد الرجل أى الجامع ما تفرق من الخصال فى الرجال فلما اجتمع فى إبراهيم ما يتفرق فى الجماعة العظيمة سمى باسمها وفى معنى ذلك قال أبو نواس فى مدح ابن الربيع :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

أى من الجائز أن يجمع الله تبارك وتعالى خصال العالم بفتح اللام فى رجل واحد. وقال مجاهد سمى أُمة لأَنه كان وحده مؤمنا وكان سائر الناس كفارا والمتميز عما سواه يسمى فى اللغة أُمة ،وأيضا هو المعتبر دون من فى زمانه من المشركين ،فكأَنه منفرد فى زمانه فكان أحق باسم الأُمة دون أهل زمانه إذ لم يعتبروا ،وأول من تبعه زوجته أسلمت ثم تزوجها وتسمى سارة. وفى البخارى أنه قال لسارة ليس على الأَرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك. وقال ابن مسعود سمى أُمة لأَنه يعلم الناس

الخير وأن الأُمة كل من يعلم الناس الخير الخ روى الشعبى عن قراءة ابن نوفل الأَشجعى عن ابن مسعود أنه قال إن معاذا كان أُمة قانتا لله فقيل له :غلطت إنما هو إبراهيم-صلى الله عليه وسلم - فقال الأُمة الذى يعلم الخير والقانت المطيع لله،وكان معاذ كذلك وعن عمر-رضى الله عنه-أنه قال حين قيل له ألا تستخلف لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته ولو كان معاذ حيا لاستخلفته ولو كان سالم حيا لاستخلفته فإنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول أبو عبيدة أمين هذه الأُمة ومعاذ أُمة الله قانت ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون وسالم شديد الحب لله ثم لو كان لا يخاف الله لا يعصيه وقيل أُمة فى الآية فعلة بضم الفاء وإسكان العين بمعنى مفعول كالهمزة بضم الهاء وإسكان الميم بمعنى المهموز من أُمه يؤمه إذا قصده أو اقتدى به قال الناس كانوا يقصدونه فى زمانه وبعده للاستفادة ويقتدون بسيرته فهو إمام لهم كما قال الله عز وجل إنى جاعلك للناس إماما،وهذا القول والذى قبله مترادفان فى المعنى فإن معلم الخير يقصد ويقتدى به أو الأَخير أعم من حيث أنهُ يشمل الاقتداء به ولو بلا تعليم وذكر ولأَنه ما من أهل دين إلا يتولونه ويرضونه وكان محبباً فى الناس مقربا عند الملوك والعظماء وقيل أُمة هى هذه الأُمة لأَن إبراهيم هو الأَصل

السابق فى كون هذه الأمة أُمة ممتازة عن الأُمم بالتوحيد فسمى باسم المسبب﴿ قَانِتًا للهِ ﴾ مطيعا لله قائما بأوامره منتهيا عن مناهيه دائما على العبادة ولله متعلق بقانتا ويحتمل تعليقه بقوله ﴿ حَنِيفا ﴾ أى مائلا لله أى إلى دينه عن سائر الأديان وهو أول من ضحى وأقام مناسك الحج واختتن ورد على المشركين من قريش وغيرهم فى زعمهم أنهم على دين إبراهيم بالفرق بأنه ليس مشركا وهم مشركون وهو شاكر لأنعم الله وهم كافرون لها فقال﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشرِكِينَ ﴾ بل من الموحدين المخلصين فى صغره وكبره وقوله﴿ شَاكِراً ﴾ من إخبار كان فى قوله أن إبراهيم كان إلخ﴿ لِأَنْعُمِهِ ﴾ جمع قلة مراده به الكثرة ويجوز بقاؤه على معنى القلة فيدل على شكر النعم الكثيرة بالأُولى فإن من يشكر النعم القليلة جدير بشكر الكثيرة والمراد نعم الدين والدنيا روى أنه لا يتغدى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فإذا هو بفوج من الملائكة فى صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فتكلموا له كلاماً ما يتوهم منه أن يهم جذاما مثل أن يقولوا ولو كان بنا جذام فقال الآن وجبت مواكلتكم شكراً لله تعالى على أنه عافانى وابتلاكم ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ اختاره للنبوة والخلة والجملة مستأنفة أوحال من الضمير فى شاكرا أو خبر آخر لكان على تقدير قدأوبدونه﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو دين الإسلام الذى عليه محمد وأصحابه وقيل الجنة

﴿ وَآتَيْنَاهُ ﴾ هذا على طريق الالتفات من الغيبة للتكلم ﴿ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ أي أشياء حسنة أو المراد الجنس والله أعلم وذلك أنه مرضى عند الناس معرب كما مر مثنى عليه مرزوق أولاد طيبة وعمرا طويلا فى السعة والطاعة يدعى كل أحد دينه، وعن قتادة الحسنة تنويه لله جل وعلا بذكره حتى تولاه أهل كل دين وقال بعضهم الرسالة والخلة وقيل الأموال والأولاد وقيل ولادته أولادا أبرارا على الكبر، وقيل قولك اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبعض يقول هذا فى التحيات ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين هم الجنة فان الصالحين هم أهل الجنة لا غيرهم، فكأنه قال لمن أهل الجنة وقد سئل ذلك بقوله : وألحقنى بالصالحين وقيل من تعنى فى على تقدير الإضافة أى لفى أعلى مقامات الصالحين فى الجنة وقيل المعنى لمع الصالحين .

﴿ ثُمَّ ﴾ ذكر لفظ ثم الموضوع للدلالة على التباعد تعظيما لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – بعلو درجته كما ترى جسما بعيدا فى الجو لا يناله أحد وتنبيها على أن أجل ما أوتى إبراهيم – صلى الله عليه وسلم – اتباع الرسل ملته أو ذكر لفظ ثم لتراخى أيام سيدنا – محمد – صلى الله عليه وسلم – عن أيام سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوْحَيْنَا

﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد﴿ أنِ ﴾ مفسرة﴿ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾طريقته فى العقائد من توحيد الله عز وجل والإيمان بكتبه ورسله وأنبيائه ويوم القيامة والجنة والنار والملائكة ونحو ذلك،وقيل طريقته فى التوحيد والدعاء إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد بحسب فهمه وقيل كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مأمورا بشريعة إبراهيم عليه السلام كلها من فعل واعتقاد إلا ما نسخ منها ﴿ حَنِيفاً ﴾حال من المضاف إليه لكون المضاف كجزء منه أو من الضمير فى اتبع ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ مستأنفة على أن حنيفا حال من الضمير فى اتبع وحال أخرى على أن حنيفا حال من المضاف إليه وهو إبراهيم أو الجملة حال من الضمير فى حنيفا على هذا الوجه وإنما كرر لتأكيد الرد على زعم اليهود والنصارى وغيرهم أنهم على دينه ثم هدد الله عز وجل المشركين على مخالفة أمر الله كما هددهم بضربه القرية مثلا بأنه جعل وبال السبت وهو المسخ على اليهود لاختلافهم فيه على نبيهم فقال :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ ﴾ وقرىء بالبناء للفاعل وهو الله سبحانه ، ونصب السبت وقرأ ابن مسعود إنا أنزلنا السبت ، ﴿ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أى إنما جعل الله وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه بأن أحل الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وكان الواجب عليهم أن

يتفقوا فى تحريمه على كلمة واحدة بعد ما حتم عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه ،وذلك أن الله أوجب على اليهود الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه على لسان موسى فاحتالوا للصيد فكان بعض يقول إنما نهينا عن أكله فكانوا يصيدون ولا يأكلون إلا بعد السبت وبعض يقول ؛ إنما نهينا عن أخذه فكانوا يتخذون حياضاً على الساحل يجتمع فيه يوم السبت فيأخذونه بعده وبعض لا يصيد فيه فمسخ الذين يصطادون قردة وخنازير فى زمان داود ، وقيل إن الله تعالى أمرهم أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة فأَبوا إلا طائفة منهم ، فقالوا نريد يوم السبت، لأَنه سبحانه فرغ فيه من خلق السماوات والأَرض فألزمهم الله السبت وشدد الأَمر عليهم فذلك هو اختلافهم على نبيهم موسى ، وقيل إن موسى هو المعين لهم يوم الجمعة فبدلوه بالسبت إلا قليلا فهم راضون بالجمعة فأَذن لهم فى السبت فشدد عليهم بتحريم الصيد فيه فرضى به الراضون بالجمعة فلم يصيدوا وكذا المختارون للسبت ثم جاءت أعقابهم فصادوا فمسخوا ، وقيل اصطاد أيضاً مختار السبت ، وقيل لما رضى القليل بالجمعة راجعهم الجمهور فاتبعوهم فى اختيار السبت وعن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن موسى أمرهم بتعظيم الجمعة والتفرغ فيه عن الأَشغال للعبادة فأَبوا إلا السبت ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة ، فقالوا : لا نريد أن يكون عيدهم عيدنا ،

فاتخذوا الأَحد فأعطى الله تبارك وتعالى هذه الأُمة الجمعة فقبلوها ، فبورك لهم فيها . قال الربيع بن حبيب ، عن أبى عبيدة ، عن جابر ابن زيد عن أبى هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحن الأَولون والآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهداه الله إليه والناس فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد . ومثله للبخارى ومسلم والظاهر أن الاختلاف المذكور فى الحديث هو الذى فى الآية . وقيل الذى فيها بين اليهود ، والذى فى الحديث بين اليهود والنصارى وفى رواية لمسلم نحن الآخرون الأَولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة وفى رواية له أيضاً ، أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا وكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأَحد ، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأَحد ولذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون فى الدنيا الأَولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق ، وهذه رواية له عن حذيفة وفيها تفسير التأْخير والسبق وذكر ابن حجر أننا أول من يحشر ويحاسب ويقضى بينهم ويدخل الجنة . وآخر الأُمم وجوداً فى الدنيا . قال النووى الآخرون وجوداً السابقون للفضل ودخول الجنة وبيد بفتح الموحدة وإسكان الياء بمعنى غير منصوبة على الاستثناء من باب تأْكيد المدح بما يشبه الذم ووجه

التأكيد ما أدمج فيه من معنى النسخ لأن الناسخ هو السابق فى الفضل وإن تأخر فى الوجود وكون بيد بمعنى غير هو مذهب الخليل بن أحمد رحمه الله وجماعة من أهل اللغة وقال المازنى حرف جر وتعليل ، وبه قال الشافعى واستبعده عياض ولا بعد فيه بل المعنى سبقنا للفضل إذ هدينا للجمعة مع تأخرنا فى الزمان بسبب أنهم ضلوا عنها مع تقدمهم وتدل له رواية أبى صالح عن أبى هريرة نحن الآخرون فى الدنيا ونحن أول من يدخل الجنة لأنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وقيل بمعنى على . وقيل بمعنى مع فهو منصوب على الظرفية والكتاب الجنس فهو التوراة والإنجيل فى جنب اليهود والنصارى ، والقرآن فى جنبنا . قال ابن بطال : ليس المراد أن يوم الجمعة فرض عليهم بعينه فتركوه لأنه لا يجوز لأحد أن يترك ما فرض الله وهو مؤمن بل فرض عليهم يوم يقيمون فيه دينهم ووكل إلى اختيارهم فاختلفوا فيه ولم يهتدوا ليوم الجمعة ،واختاره عياض وقواه بأنه لو فرض بعينه لقيل فخالفوا بدل فاختلفوا ، قال : وفرض الله تبارك وتعالى على هذه الأمة معيناً ففازوا بفضيلته وأجيب بأنه قيل اختلفوا لأنهم أمروا به معيناً فاختلفوا هل يجب إبقاؤه أو يجوز إبداله واختلفوا فيه فبعض عصى فاصطاد وبعض أطاع وذلك اختلاف على نبيهم موسى عليه السلام قال : الفخر اتفقت اليهود على أن المأمور به هو السبت وإنما اختلفوا فيما ذكر .

وقيل إن الاختلاف هو قول بعض اليهود أن السبت أعظم الأيام حرمة لأنه يلى يوم الفراغ من خلق الأشياء ، وقول بعض اليهود إن الأحد أعظم ، لأن الله تبارك وتعالى ابتدأ الخلق فيه ،ورد بأن الأحد إنما اختاره النصارى بعدهم بزمان طويل ، ويدل على التعيين رواية الكلبي السابقة ، ورواية أن الله فرض على اليهود الجمعة فأبوا وقالوا : ياموسى إن الله لم يخلق يوم السبت شيئاً فاجعله لنا فجعل عليهم وليس ذلك بأعجب من مخالفتهم لمثل قوله تعالى « ادخلوا الباب سجداوقولوا حطة» وغير ذلك وهم القائلون سمعنا وعصينا وما تقدم من أن الجمعة عينت لنا لا ينافى ما روى أن الأنصار قالوا : هلم نجعل لنا يوماً للعبادة كما جعلت اليهود السبت والنصارى الأحد فاجعلوه الجمعة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم وذلك قبل قدوم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة لأنه لا مانع من أن يكون ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالوحى وهو بمكة ولم يتمكن من إقامتها ولما قدم المدينة صلاها فتحصل الهداية بالبيان وبالاختيار ، وقد نزل : إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ـ الآية ، قيل الحكمة فى اختيارهم الجمعة خلق آدم عليه السلام فيها والإنسان إنما خلق للعبادة فناسب أن يشتغلوا فيه بالعبادة وأن الله جل جلاله أكمل فيه الموجودات وأوجد فيه الإنسان الذى ينتفع بها فناسب أن يشكر بالعبادة فيه على ذلك وحصول الكمال يوجب الفرح والسرور

ولأن آدم وذريته أفضل المخلوقات وقد خلق فيه ولأنه تاب عليه فيه لأن الله جل جلاله أعطاه لنا فكان ما أعطاه أفضل مما اختاره البشر وقيل بعث موسى بتعظيم السبت ثم نسخ بالأحد ثم نسخ الأحدبالجمعة فهي أفضل الأيام كما أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته أفضل الأنبياء والأمم والسبت آخر الأسبوع والأربعاء رابعه وقيل السبت أوله والأربعاء خامسه وعليه الاكثر والشافعية وهو الذى صح به الخبر فيما قيل . قال السهيلي : لم يقل إن أوله الأحد إلا ابن جرير ، روى مسلم عن أبي هريرة : أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيدى فقال خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكر يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار ولذا صوب السهيلي وابن عساكر والإسنوى أن أوله السبت ، وقال النووى : في يوم الأثنين اسمى به لأنه ثانى الأيام وهو يقتضى أن أوله الأحد وبه قال القفال : والخبر السابق تفرد به مسلم وقد جعله البخارى وغيره من كلام كعب وإنما سمعه أبو هريرة منه واشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا وأجيب بأن من حفظ حجة على من لم يحفظ ، ولا حجة في اشتقاق الأحد من الواحد هكذا لأن هذه التسمية لم تثبت بأمر من لله ولا من رسوله ـ صلى الله عليه

وسلم فلعل اليهود وضعوها على مذهبهم فأخذتها العرب منهم ولم يرد فى القرآن إلا الجمعة والسبت وليسا من أسماء العدد بل لو ثبتت هذه التسمية لم يكن فيها دليل إلا أن العرب تسمى خامس العدد أربعا ، وهكذا . ومن ذلك قال ابن عباس : يوم عاشوراء تاسع المحرم وتاسوعا ثامنه وهكذا وخلق الله جل وعلا آدم بعد الفراغ من الخلق إشارة لكونها خلقت لمصالحه ومصالح بنيه ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴾ يامحمد ، ﴿ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر السبت بإثباته الطائع وتعذيب العاصى المنتهك لحرمة السبت .

﴿ ادْعُ ﴾ الناس وكل من بعثت إليه وحذف المفعول إيذانا بالعموم ﴿ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ دينه ﴿ بِالْحِكْمَةِ ﴾ المقالة المحكمة المزيحة للشبهة الموضحة المحق من كلام الله أو من كلامك وقيل هى القرآن ، وقيل النبوة والرسالة والصحيح الأول والذى هو أولى بالدعاء بالحكمة من كمل عقله وصح وطلب الأشياء على حقيقتها فهم المتبعون بالدلائل القاطعة والنافعون بها ، كما ظهر فى خواص الصحابة ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ ﴾ القول الرقيق المقنع مطلقاً أو مواعظ القرآن المرغبة المرهبة ﴿ الْحَسَنَةِ ﴾ التى لا يخفى أنك تنصحهم بها لظهور حسنها ونفعها والذى هو أولى بالدعاء بها ذو النظر السليم وهو غالب الناس وعامتهم الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم يكونوا لحد النقصان ، وقيل المراد بالحكمة والموعظة الحسنة

القرآن كأنه قيل ادع بالقرآن الجامع للحكمة والموعظة الحسنة ، ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي ﴾أى بالقولة أو بالخصلة أو بالمجادلة أو بالطريقة التى ﴿ هِيَ أَحْسَنُ﴾ أفضل طرق الجدال بأن تكون جامعة للرفق واللين مشتملة على الوجه الأيسر والمقدمات التى هى أشهر فإن ذلك هو المؤثر: فى المعاند وذلك كالحجج العقلية وقيل الدعاء إلى الله سبحانه بآياته وحججه والذى هو أولى بالجدال بالتى هى أحسن من هو معاند مجادل مخاصم وذلك نزل بمكة ، قيل ونسخ بآية السيف من حيث إنها أمر بالاختصار على الدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن والصحيح أن لا نسخ فى ذلك فإنه أمر حسن يتمسك به قبل الأمر بالقتال وبعده ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى فسبيل ذلك الضلال أى السبيل المأمور به ذلك الضال وسبيل ربك وهو الظاهر المتبادر فربك هو المعاقب له ،﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ فهو المثيب لهم فليست الإثابة والعقاب إليك إنما عليك أن لا تقصر فى الدعاء إلى سبيل ربك فمن كان فيه خير كفاه الوعظ ولو قليلا ومن لا خير فيهِ عجزت عنهِ الحيل حتى أن دعاءك لهُ فى عدم التأثير كالضرب فى حديد بارد وأعلم فى الموضعين اسم تفضيل على بابهِ فإن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد يحصل لهُ علم أيضاً لو خارج عن بابهِ أى عالم،ومعنى كونِهِ أعلم بمن ضل وبالمهتدى أنهُ أعلم بمن ضل

ضلالة لا يرجع عنها ومن يهتدى بعد ضلالته أو من أول الأمر أو أنهُ أعلم بمن ضل منك لأنك قد تحسب أحدا ضالا من جهة كذا ، والله سبحانهُ يعلمهُ ضالا منها ومن غيرها وبالمهتدى لأنك قد تحسبهُ مهتدياً من جهة والله يعلمه منها ومن غيرها أو تحسبهُ مهتدياً والله يعلمهُ أنهُ غير مهتد، ولما رأى المسلمون ما فعل المشركون من المثلة بقتلى أحد ولم يتركوا ميتاً ألا مثلوا بهِ غير حنظلة بن أبى عمر والراهب لأن أباه أبا عمر وكان مع المشركين ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما فعلوا بعمِه حمزة . قالوا : إن أظهرنا الله عليهم لنزيدن على ما فعلوا أو لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ، وقال - صلى الله عليه وسلم لأُمثلن بسبعين منهم مكان حمزة . فأنزل الله عز وجل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ فكفر رسول الله - صلى الله عليه وسلم-عن يمينه ، فقال : بل أصبر . فقال للصحابة : ما أنتم فاعلون . قالوا : نصبر كما صبرت وكما ندبنا فلم يمثلوا بأحد . روى أن هند بنت عتبة جاءت حمزة وقد جذع المشركون أنفه وقطعوا ذكره وشقوا بطنه فقطعت من كبده فمضغت ولم تطق أن تبلع ، وقيل بلعت ما قطعته ولم يلبث فى بطنها حتى رمت به،فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أما لو أكلتها لم تدخل النار أبداً حمزة أكرم على الله

من أن يدخل شيئاً من جسده النار ، وأسلمت بعد ذلك ، فكان قوله ذلك لظنه أنها تموت مشركة لا للجزم بأنها تموت مشركة لعلها مع إسلامها تموت غير موفية به . وروى أنه - صلى الله عليه وسلم - رأى عمه حمزة- رضى الله عنه-قد شق بطنه وجذع أنفه واصطلم أذناه فقال : لولا أن تحزن النساء أو تكون السنة بعدى لتركته حتى يبعث من بطون السباع والطير،لأقتلن سبعين سيداً مكانه منهم ثم دعا ببرده فغطى بها وجهه فخرجت رجلاه فجعل عليهما شيئاً من الإذخر فقدمه وكبر عليه عشراً و صلى عليه سبعين صلاة ، وروى سبعين تكبيرة ، وكان القتلى سبعين رجلا دفنهم من غير غسل ولا صلاة ، كذا زعم بعض ولا غسل دم . روى لما رأى حال عمه حمزة وقد مثلوا به بكى بكاء شديداً ولم ير شيئاً أوجع لقلبه منه ، فقال رحمة الله عليه كنت وصولا للرحم فعالا للخيرات ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أدعك أن تحشر من أجواف شتى ، أما والله لأن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك . وقيل : قال بثلاثين ، فنزلت الآية وذلك بالمدينة « وإن عاقبتم فعاقبوا » . الخ . قال كعب : أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة ، فقالت الأنصار : لأن أصبنا منهم يوماً لنزيدن فى الفعل والمثلة ، ولما كان فتح مكة أنزل الله تعالى « وإن عاقبتم » . الخ . فقالوا : بل نصبر ياربنا . وروى أن رجلا من

المسلمين قال : لا قريش بعد اليوم . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفوا عن القوم إلا أربعة : والذى قتل حمزة هو وحشى كان غلاماً لجبير ابن مطعم بن عدى وكان عمه طعيمة بن عدى أصيب ببدر فلما سارت قريش إلى أحد قال له : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق ، قال : وكنت حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشية ما أخطىء بها شيئاً فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة حتى رأيته فى عرض الجيش مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هداً ، مايقوم له شيء فوالله إنى لأتهيأ له وأستتر منه بحجر وشجر ليدنو منى إذ تقدم إليه سباع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له : يا ابن مقطعة البطون فضربه والله لكأنما أطاح رأسه وهززت حربتى فدفعتها إليه فوقعت فى ثديه حتى خرجت من رجله وتركتهُ حتى مات فأخذت حربتى ثم رجعت إلى الناس فقعدت فى العسكر ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلتهُ لأُعتق ولما قدمت مكة عتقت وأقمت بها حتى فشا فيها الإسلام فخرجت إلى الطائف ، فلما رجع منها قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرآه . فقال : أنت قاتل حمزة أنت وحشى . قلت : نعم . قد كان من الأمر ما بلغك وذلك بعد إسلامه ، فقال هل تستطيع أن تغيب وجهك عنى . قال : فخرجت فلما قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج الناس إلى مسيلمة الكذاب ، قلت : لأخرجن إليهِ لعلى

أقتلهُ فأُكافئ به حمزة فخرج مع الناس فقتلهُ يوم اليمامة أو شارك رجلا في قتلهِ . استشهد حمزة رضى الله عنه فى أُحُد نصف شوال ثالث سنين الهجرة بعد أن قتل أحد وثلاثين كافراً . قال وحشى : رأيته يهد الأَبطال هداً فاختفيت لهُ فلما تمكنت منهُ رميتهُ بحربتى فأصابته فوليت هارباً فتبعنى ثم سقط . قال بعضهم : لما أسلم قبله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال غيب وجهك عنى ،أى خشية أن يصيبه منه شىء إذا تذكر قتل حمزة ، وخرج يوم اليمامة فشارك رجلا فى قتل مسيلمة الكذاب، فكان يقول هذه بتلك ومع ذلك فقد أصابه لما صح عن ابن المسيب أنه قال : كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجو حتى مات غريقاً فى الخمر . وقال ابن هشام : بلغنى أنه لم يزل يجد فى الخمر حتى خلع عن الديوان ، فكان عمر يقول : لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة ، ولما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتيلا بكى ولما رأى ما مثل به شهق وقال : لئن أصاب بمثالك أبدا ما وقفت موقفاً أغيظ لى من هذا . وذكر ابن شاذان عن ابن مسعود ما رأينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - باكياً قط أشد من بكائه على حمزة وضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وبكى حتى كاد يغشى عليه ، يقول : ياحمزة ياعم رسول الله ، يا أسد الله ، وأسد رسوله ، ياحمزة يافاعل الخيرات ، ياحمزة ياكاشف الكربات ، يا ذابا عن

وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس فى هذا نواح ولا تعديد شمائل بل إخبار بفضائله وشمائلِهِ رضى الله عنه ، وصح حديث أنه سيد الشهداء يوم القيامة ، وصحح الحاكم حديث والذى نفسى بيده إنه لمكتوب عند الله تبارك وتعالى فى السماء السابعة حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، وأسد رسوله ، لكن تعقب وورد من طرق أن الملائكة غسلته ، وصححه الحاكم لكن تعقب ، ورويت بفضل الله ورحمته فى صحيحى الذى منَّ الله بِهِ علىَّ مع قِلة عِلمى الذى جعلته تماماً لترتيب مسند الربيع بن حبيب وما ألحق به ما يدل على أن تعديد فضائل حمزة عند موته جائز وأنهُ مختص بذلك عن غيره وصرحت الآية أن للمقتص أن يماثل الجانى فيمثل به كما مثل به بلالا زيادة وفيها الحث على العفو تعريضاً بقوله إن عاقبتم بإن الشرطية الدالة على الشك بحسب الوضع وتصريحاً بقوله ولئن صبرتم . . الخ . فإنه قيل الصبر خير فإن كان ولابد من القصاص فلا تزيدوا على ما فعل بكم ، وقد اتفقوا على تحريم الزيادة وأنها ظلم وعلى تحريم المثلة بمن لم يمثل وإن قلت هل يتصور القصاص بالقتل فى قتال المشركين والنهى عن الزيادة . قلت : نعم . بأَن يقتل ولى المقتول قاتل وليه لأَنه قتل وليه ،ويقتل سواه لشركهِ ونهى ـ صلى الله عليهِ وسلم ـ عن المثلة ولو بالكلب العقور وقيل لما أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالدعاء إلى سبيل الرب وبين له طرق

الدعاء أشار إليه وإلى من تبعه باستعمال المسامحة مع العدو لأنها أجلب له إلى الدين أو بالعدل إن عاقبوا وترك المخالفة فان الدعاء إلى سبيل الرب لا ينفك عن ترك المخالفة ،لأن الدعاء يتضمن رفع العادة وترك الشهوة وترك القدح فى دين الإسلام ويتضمن الحكم عليهم بالكفر والضلال وعلى كل حال فالآية محكمة واردة فى تعلم الأدب فى القصاص بأن يعفو ولا يجاوز الجناية وبذلك قال مجاهد والنخعى والشعبى وابن سيرين والثورى ، وقال ابن عباس والضحاك : هى أمر بقتال من قاتل ولا يبدأ بقتال ثم عز الله الإسلام ونزلت براءة فنسخت آية السيف وعليه فالمعنى ولئن صبرتم عن قتال من بدأكم بالقتال ، والصحيح الأول والمعنى ولئن صبرتم عن القصاص والضمير فى قوله لهو عائد إلى الصبر أى الصبر خير للصابرين من الانتقام للمنتقمين والمراد جنس الصبر وجنس الصابرين ويحتمل أن يراد صبر المخاطبين فوضع الظاهر موضع المضمر أى لصبركم خير لكم ثناء عليهم بصبرهم على الشدائد أو وصفاً بهم بالصفة التى تحصل بهم إذا صبروا عن المعاقبة وإن قلت الفعل الأول ليس عقاباً وهو فعل المشركين فلم قيل بمثل ما عوقبتم به ، قلت : قيل ذلك ليشاكل قوله عاقبتم ويسمى ذلك مشاكلة ،وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوع ذلك الشىء فى صحبته ذلك الغير وقوعاً محققاً كما فى الآية أو مقدراً كما مر فى قوله صبغة الله وقرىء

وإن عقبتم فعقبوا بالتشديد وإسقاط الألف أى إن تبعتم من ظلمكم بالانتصار فاتبعوا بمثل ما فعل بكم ولما كان الصبر أفضل شىء وأنكى سلاح فى العدو وأمتن عدة وكان – صلى الله عليه وسلم – أولى الناس بزيادة علمه بالله سبحانه ووثوقه به أمره به تصريحاً فقال ﴿وَاصْبِرْ﴾ على ما يؤذيك وعما تحب من الانتقام وغيره ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ أى إلا بتوفيق الله وإعانته وتقويته فاستعن به ، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أى على المشركين إن لم يسلموا كقوله تعالى : « فلا تأس على القوم الكافرين » . وقوله : « فلعلك بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِم إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا » . الخ ونحو ذلك وقيل لا تحزن على قتلى أحد وما فعل بهم من المثلة فإنهم قد افضوا إلى رحمة الله ورضوانه والأول أصوب ويناسبه عود الواو فى يمكرون إلى المشركين فإنه عائد إليهم على كلا القولين ، ﴿وَلَا تَكُ﴾ وقرىء تكن ، ﴿فِى ضَيْقٍ﴾ بفتح الضاد وإسكان الياء مصدر ضاق وذلك ضيق الصدر ، ويجوز أن يكون صفة على أن أصله ضيق الصدر ، ويجوز أن يكون صفة على أن أصله ضيق بفتح الضاد وكسر الياء مشددة فخفف أى فى أمر ضيق ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد وإسكان الياء هنا ، وفى النمل وهو مصدر أو وصف والقراءتان بمعنى واحد وهما لغتان ، وقال أبو عمرو بن العلاء : الضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة . وقال أبو عبيدة الكسر فى قلة المعاش وفى المسكن والفتح فى القلب

والصدر ،فى الكلام قلب فإن مقتضى الظاهر أن يقال ولايك فيك ضيق لأن الصفة هى الحالة فى الموصوف دون العكس ، ونكتة القلب هنا أن البشر مطبوع على الضيق مما يؤذيه فلابد من وجود بعض الضيق فنهاه أن يحيط بهِ الضيق كما يحيط اللباس بلابسهِ ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ما مصدرية أى من مكرهم فإن الله كافيك وناصرك .

﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ تركوا المعاصى والكفر وقيل تركوا المثلة والزيادة فى القصاص وتركوا المناهى ، وقيل اتقوا الله بتعظيم أمره من فعل ذلك فإن الله معه بالنصر والمعونة ،﴿ وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ فى أعمالهم بأداء الفرض وزيادة بالنفل والرغبة فيما ندبوا إليه كالعفو عن الجانى ومحسنون بالشفقة على خلق الله الرحمن الرحيم ، قال بعضهم كمال الطريق صدق مع الحق ،وخلق مع الخلق ،وكمال الإنس أن يعرف الحق لذاته والخير لأجلهِ أن يعمل به والمراد بالحق الله سبحانهُ وتعالى . قال الزمخشرى وعن هرم بن سنان أنه قيل لهُ حين احتضر أوص . فقال : إنما الوصية فى المال ولا مال لى أوصيكم بخواتم سورة النحل والله أعلم . . .

ـ صلى الله على سيدنا محمد ـ وآله وصحبه وسلم . قال ابن عباس وقتادة .

* * *